الهيئة العامة السورية للكتاب

بعد الطلاق

تصميم الغلاف
عبد العزيز محمد

الهيئة العامة السورية للكتاب

المشروع الوطني للترجمة
الرواية العالمية

بعد الطلاق

تأليف: غراتسيا ديليدّا

ترجمة: نبيل رضا المهايني

الهيئة العامة السورية للكتاب

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٣م

العنوان الأصلي للكتاب:

Dopo il Divorzio

الكاتب: Grazia Deledda

الناشر: Roux e Viarengo,1902

المترجم: نبيل رضا المهايني.

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر (بالضرورة) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

بعد الطلاق / تأليف غراتسيا ديليدّا؛ ترجمة نبيل رضا المهايني .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٣م.- ٢٦٤ص؛ ٢٥سم.

(المشروع الوطني للترجمة؛ الرواية العالمية؛).

١- ٨٥٣ د ي ل ٢- العنـــــــوان ٣- ديليـــــــدّا
٤- المهايني ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

بعد الطلاق

... وَيَجْلِدُونَهُ، وَيَقْتُلُونَهُ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُوم
وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَفْهَمُوا مِنْ ذلِكَ شَيْئاً...
(انجيل لوقا ١٨ / ٣٢-٣٤)

القسم الأوّل

١٩٠٤ـ في بيت بورّو، في غرفة الغرباء، كان هناك امرأة تبكي وهي جالسة على الأرض قرب السرير، ذراعاها على ركبتيها المرفوعتين وجبهتها على ذراعيها، كانت تبكي وتجهش في البكاء وهي تهزّ رأسها كما لو لتقول إنّه لم يعد هناك، أجل، لم يعد هناك أمل. لذلك فإن كتفيها المستديرتين وظهرها الجميل المغطّى بالمشدّ الضيّق المصنوع من قماش أصفر، كانوا يرتفعون وينخفضون مثل الموج.

كان الظلام يخيّم حولها. فليس للغرفة نافذة، بينما كان الباب المفتوح على مصراعيه، فوق رواق مصنوع من الآجرّ، يطلّ على سماء رماديّة أخذت عتمتها تتزايد. لكنّ نجمة صفراء بعيدة جدّاً كانت تلمع في تلك السماء، بينما كان يسمع في الفناء صوت جدجد يغنّي وحافر حصان يقرع على حجارة الطريق.

ظهرت على الباب امرأة عجوز بدينة ترتدي ملابس بزيّ أهالي نوّرو، لها وجه ضخم يشبه وجه رجل بدين عجوز، وكانت تحمل في يدها قنديلاً له مسند من حديد وأربع كؤوس يشتعل في واحد منها فتيل مغموس بالزيت.

قال صوت ضخم خشن: - جوفانّا إيرا، ماذا تفعلين هناك في الظلام؟ هل أنت هناك؟ ماذا تفعلين؟ يبدو لي أنّك تبكين! إنّك مجنونة، أقسم إنّك مجنونة!

بدأت هذه الأخرى تبكي وتشهق بتشنّج.

- آه، آه، آه! قالت المرأة البدينة وهي تتقدّم بنوع من الدهشة والاستياء والغضب: - كنت أقول إنّك تبكين! لماذا تبكين؟ إنّ أمّك تنتظرك في الأسفل بينما أنت هنا تبكين مثل المجانين.

لكنّ الأخرى واصلت البكاء واشتدّ بكاؤها. علّقت المرأة البدينة السراج على مسمار طويل مدقوق في الجدار. نظرت حولها وبدأت تدور حول الباكية وهي تبحث عبثاً عن كلمات لمواساتها، لكنّها لم تفلح إلّا في قول:

- لكنّك مجنونة يا جوفانّا، أنت مجنونة!

كانت غرفة الغرباء واسعة (وهكذا كانت تسمّى الغرفة التي كانت تخصّصها كلّ العائلات القديمة في نوّرو للضيوف من الأصدقاء القادمين من البلدات المجاورة)، وكانت ذات مظهر أبيض خشن وفيها سرير كبير من الخشب فضلاً عن طاولة مغطّاة بسجّادة من القماش القطنيّ وعليها زينة من الكؤوس والأكواب الزجاجيّة، وقد علّقت كذلك في أعلى جدرانها لوحات كثيرة تصل إلى السقف الخشبيّ غير المدهون. كما كانت تتدلّى من عوارض السقف عناقيد عنب ذابلة وثمار إجاص صفراء تنشر عبقاً رقيقاً. تبعثرت أيضاً، هنا وهناك على الأرض، جعب صوفيّة ملآنة.

تناولت المرأة البدينة، وهي صاحبة البيت، إحدى تلك الجعب وسارت بها لمسافة قصيرة، ثمّ أعادتها إلى المكان الذي أخذتها منه.

قالت وهي تلهث بسبب الجهد الذي بذلته: - حسناً، كفاك الآن بكاء. ماذا بوسعك أن تفعلي؟ لكن عليك ألّا تستسلمي لليأس، أيّ شيطان حلّ بك يا حمامتي الحلوة. على كلٍّ إذا كان النائب العام قد طلب الأشغال الشاقّة، فهذا لا يعني أنّ المحلّفين هم كلاب مسعورة مثله...

لكنّ الثانية بقيت تبكي وتهزّ رأسها، وتقول بين نوبة شهيق وأخرى:

- لا... لا... لا...

- بلى! بلى! أقول لك بلى! انهضي وإلّا ناديت على أمّك – صرخت المرأة وهي تلقي بنفسها عليها وترفع لها رأسها بعنف.

ظهر وجهها الجميل الأحمر المستدير، وحوله شعرها الأسود الكثيف الأشعث، وعيناها السوداوان، وقد ورّمتهما الدموع فازدادتا إشراقاً، وفوقهما حاجبان أسودان، متّصلان، بشعرهما الكثيف الأجعد.

- لا! لا! كانت جوفانّا تصرخ وهي تهتزّ مضطربة – دعيني أبكي على حظّي أيّتها العمّة بورّيدّا[1]...

- أيّ حظّ وغير حظّ! هيّا انهضي.

- لن أنهض! لن أنهض! سيحكمون عليه بثلاثين سنة على أقلّ تقدير. ألا تفهمون أنّهم سيحكمون عليه بثلاثين سنة على الأقلّ؟

- هذا ما يجب أن نراه. ثمّ ما هي ثلاثون سنة؟ ألا ترين أنّك أصبحت مثل القطّة البرّيّة؟

---

(١) بورّيدّا اسم تصغير مؤنّث لاسم بورّو بلهجة سردينيا (الكاتبة).

بقيت الثانية تصرخ وتشدّ شعرها بعد أن أصابتها نوبة يأس عنيفة، كانت تصرخ وتقول:

- ثلاثون سنة! ماهي ثلاثون سنة؟ إنّها حياة إنسان أيّتها العمّة بورّيدّا! إنّك لا تفهمين شيئاً، اتركيني وحدي، حبّاً بالمسيح، اذهبي عنّي...

اعترضت العمّة بورّيدّا قائلة: - لن أبارحك البتّة! غريب أمرك! ألا تعرفين أنّي في بيتي! انهضي، يا ابنة الشيطان، أنهي هذا الأمر، إنّه يسيء إليك! انتظري حتّى الغد قبل أن تشدّي شعرك، فزوجك لم يحكم عليه بعد بالأشغال الشاقّة.

لكنّ جوفانّا خفضت رأسها وواصلت البكاء، كان بكاء هادئاً صادراً عن قلب مكلوم، بكاء يمزّق القلب.

- كوستانتينو، يا كوستانتيني – كانت تردّد بنوع من الأنين شبيه بأنين الندب أمام الأموات – لقد متّ بالنسبة إليّ، لن أراك ثانية، أبداً مرّة أخرى. لقد أخذوك، أخذتك الكلاب المسعورة، لقد أخذوك وقيّدوك ولن يخلوا لك سبيلاً. سيبقى بيتنا مقفراً، وسيبقى سريرنا بارداً، ويتفرّق شعث العائلة. يا حبيبي، يا ملاكي، لقد متّ بالنسبة إلى كلّ العالم، فليمت أيضاً أولئك الذين قيّدوا معصميك!

انفعلت العمّة بورّيدّا أمام أحزان جوفانّا، لكنهّا لم تعرف ماذا تفعل، فخرجت إلى الفناء ونادت:

- تعالي يا باكيسيا إيرا، اصعدي إلى هنا، فابنتك مشرفة على الجنون!

سمع صوت خطا أقدام تصعد على الدرج الخارجيّ، وما إن عادت العمّة بورّيدّا ودخلت، حتّى ظهرت وراءها امرأة طويلة القامة، مأساويّة الهيئة، ترتدي ثياباً سوداء، ويحيط خمارٌ أسود رأسها الذي يبرز منه وجه مستدير أصفر مثل

وجه طائر كاسر، كما بدت عيناها مثل نقطتين خضراوين لامعتين غائرتين، يحيط بهما حاجبان أسودان برّيّان وهالتان داكنتان.

لكنّ وجودها كان كافياً كي يغمر ابنتها بهدوء متماسك.

- انهضي! قالت لها بصوت أجشّ.

نهضت جوفانّا، كانت طويلة القامة، بدينة ومع ذلك رشيقة، بوركين رائعين. كانت ترتدي تنّورة من الصوف مخطّطة بلون أرجوانيّ حول الوركين، ومحفوفة بقماش أخضر، كانت التنّورة قصيرة تكشف عن قدميها الصغيرتين وجزمتها المطّاطيّة بل بداية ساقين جميلتين.

- لماذا كلّ هذه المتاعب تزعجين بها الناس الطيّبين؟ سألتها أمّها. – انتهي عن هذا، انزلي لتناول العشاء لكن لا ترعبي البنات ولا تعكّري مسرّات هؤلاء الناس الطيّبين.

أمّا مسرّات أولئك الناس الطيّبين فهي عبارة عن فرحتهم في ذلك المساء بوصول ابنهم طالب الحقوق ليقضي إجازته في بيته.

بدا أنّ جوفانّا قد تفهّمت الأمر فهدأ روعها، نزعت عن رأسها منديل الصوف، فكشفت عن طاقيّة مصنوعة من البروكار القديم تتبعثر من تحتها خصل شعرها الأسود الفحميّ. ثمّ ذهبت لتغسل وجهها بإناء ماء مركون فوق الكرسيّ. نظرت العمّة بورّيدّا إلى العمّة باكيسيا، وضغطت على شفتيها بين سبّابة وإبهام يدها اليمنى لتطلب الصمت ثمّ ذهبت من غير إحداث ضجيج.

أطاعت صديقتها، ولم تنبس ببنت شفة، بل انتظرت حتّى اغتسلت جوفانّا ولبست، ونزلت الاثنتان بعدها بصمت على الدرج الخارجيّ. أصبح الوقت ليلاً، وكانت ليلة حارّة، عميقة الهدوء. ظهرت أوّل نجمة بلون أصفر، ثمّ

ظهرت بعدها آلاف النجوم الفضّية، كما ظهر درب التبّانة كأنّه خمار مبطّن بالشرر، بينما انتشر في الهواء عبق واخز يشبه رائحة القشّ الجافّ.

كانت الجداجد المخبّأة تحت العريشة تصدح بالغناء وسط الرواق، وكان الحصان يجترّ العلف وهو يضرب الأرض بحدوة حافره الحديديّة. بينما جاء من بعيد صوت غناء حزين.

يفضي إلى الرواق بابان مفتوحان على مصراعيهما، هما باب المطبخ وباب الغرفة الأرضيّة التي استعملت في هذه المناسبة كغرفة طعام. كانت العمّة بورّيدّا منهمكة في تتبيل المعكرونة، بينما وقفت طفلة شقراء ترتدي ثياباً سوداء أنيقة، لكنّها حافية القدمين شعثاء، كانت تتنازع مع طفل يرتدي ثياباً تقليديّة، شديد البدانة، وأحمر مثل جدّته.

كانت الطفلة تشتم وتلعن وهي تذكر أسماء كلّ الشياطين، بينما كان الطفل يحاول أن يقرص ساقيها.

- أقلعا عن هذا – قالت العمّة بورّيدّا – آه، آه، هلّا أقلعتما عن هذا أيّها الطفلان الشرّيران؟

- ماما بورّو، ألا تسمعين كيف تشتم هذه الفتاة، بل إنّها قالت لي اذهب إلى الشيطان الذي جاء بك إلى الدنيا.

- آه، آه، إنّك يا منّيا ستذهبين إلى الجحيم وأنت كاملة على قيد الحياة. – أجابت الجدّة من غير أن تلتفت وهي تخلط المعكرونة.

- إنّه يقرصني، يا ماما بورّو، أي، أي، إنّ قرصته تلسعني! هل أنت بدون بشرة أيّها القذر، إذا أمسكت بك فإنّي سأصفعك بعدد شعر رأسك...

- ما هذا الكلام يا منّيا؟...

- لقد سرق منّي حصّالة النقود التي عليها صورة البابا، والتي أهداني إيّاها العمّ باولو...

- هذا ليس صحيح! لا تحمليني على أن أتكلّم يا منّيا، هتف الطفل متوعّداً... فعلى سيرة السرقة...

هنا سكتت الطفلة كما لو بسحر ساحر، لكنّ الطفل تناول بعدها عصاة ومدّ طرفها المعقوف ليمسك بساق البنت. وعندما أخذت منّيا تبكي، التفتت الجدّة وفي يدها المغرفة.

- الحقيقة أنّي سأضربكما بهذه المغرفة أيّها الطفلان الشرّيران. انتظراني، انتظرا – جرت وراءهما فهربا عبر الرواق واصطدما بجوفانّا وأمّها.

- ماذا جرى، ماذا حصل؟

- لقد ركبهما الشيطان، لقد يئست منهما! – قالت العمّة بورّيدّا من وراء باب المطبخ.

في تلك اللحظة خرجت امرأة من الباب الموارب وقالت بصوت منفعل:

- لقد عادا أيّتها الجدّة، ها هما هنا.

- دعيهما يعودان، من الأفضل يا غراتسيا أن تنتبهي إلى أخويك، فهما يتنازعان فيما بينهما مثل الصيصان.

لم تحر غراتسيا جواباً، لكنّها أخذت بعد قليل حامل الضوء الحديديّ من العمّة باكيسيا وأطفأته ثمّ ذهبت لتخفيه خلف طاولة المطبخ، وقالت بصوت منخفض:

- عليك أن تخجلي بهذا السراج يا جدّتي، ولا سيّما الآن بوجود العمّ باولو.

- أيّ عمّ باولو هذا؟ وهل تظنّين أنّه قد ترعرع بين الذهب؟

- لقد جاء من روما...

- وماذا يعني؟ ولا سيّما أنّه لا يوجد مثله في روما، لأنّهم يشترون الزيت هناك بنقودهم، بينما يملأ الزيت عندنا القلال الكبيرة.

- اطمئنّي إذا كنت تصدّقين هذه الأقوال – قالت الفتاة – وذهبت إلى الرواق وقلبها يخفق بعدما سمعت صوتيْ جدّها وعمّها.

- تحيّاتي يا جوفانّا، كيف الأحوال يا عمّة باكيسيا؟ قال صوت الطالب الشابّ. – أنا بحال جيّدة والحمد لله! يؤسفني ما سمعته عن مصيبتكما، تشجّعا، من يدري؟ هل جلسة المحكمة في الغد؟

دخل إلى الغرفة حيث أعدّت مائدة الطعام، وتبعته النسوة والطفلان، وكان وجوده قد أدخل على قلبيهما السرور مع شيء من الخشية.

كان هذا صغير القامة ويعرج إلى حدّ ما، لأنّ له قدماً أصغر من الأخرى وساقاً أقصر من الثانية. لهذا كانوا يلقّبونه الدكتور بيديدّو (القدم الصغيرة)، ولم يكن هو يستاء من الأمر، لأنّه كان يقول إنّه من الأفضل أن تكون قدم الإنسان أصغر من قدمه الثانية من أن يكون رأسه أصغر من رأس الآخرين.

كان له وجه مبتسم صغير، زهريّ اللون ومستدير، وله شارب أشقر قصير، ويعتمر قبّعة سوداء شبيهة بالمنديل. وكان يدّعي أنّه اشتراكيّ.

ما إن دخل إلى الغرفة حتّى جلس على السرير، فتأرجحت قدماه، ثمّ دعا إلى جنبه ابن أخته وابنتها، ووضعهما كلّ في جنب. فطفقا ينظران إليه بفم مشدوه، وكان يضمّهما إليه من غير أن يعيرهما أيّما انتباه لأنّه كان يصغي إلى

الحكاية الأليمة التي كانت تحكيها العمّة باكيسيا. لكنّه كان يراقب، بين الفينة والأخرى، تلك الفتاة التي بدأت تنضج، وذات الثلاثة عشر عاماً، أي غراتسيا بهيئتها الطويلة والنحيلة التي شوّهها ذلك الثوب الأسود الضيّق جدّاً. وكانت عيناها، الفاتحتان والمعدنيّتان، تحدّقان بخالها بعناد وشغف.

- هذه هي القصّة – قالت العمّة باكيسيا بصوت أجشّ –كان لكوستانتينو ليدّا عمّ، أخ لأبيه، اسمه بازيلِه ليدّا وكانوا يلقّبونه العُقاب (رحمه الله، إذا لم يكن الآن بين مخالب الشيطان)، وذلك بسبب شراهته للمال.

- كان شرّيراً، عقاباً أصفر، فليغفر الله له، ويقال إنّه ترك زوجته تموت من الجوع. كان كوستانتينو يعيش تحت وصايته، وقد بقي للطفل بعض الممتلكات، لكنّ عمّه أكلّها عليه، وكان يضربه بالعصا، يربطه بين حجرين ويتركه في البستان تحت الشمس بينما كان النحل يلسع عينيه.

- كفى، فقد هرب كوستانتينو ذات يوم من البيت، وكان له من العمر ستّ عشرة سنة. غاب لثلاث سنوات، قال إنّه عمل خلالها في المناجم، أنا لا أعرف، هذا ما قاله هو.

- أجل، أجل! كان يعمل في المناجم! أضافت جوفانّا.

- لا أعرف – قالت الأمّ وهي تزمّ فمها، لتدلّ على شكوكها.

- كفى، فخلال غياب كوستانتينو، أطلقت النار من بندقيّة على بازيلِه العقاب وهو في الريف. والحقّ أنّه كان له أعداء. وعندما عاد كوستانتينو أسرّ أنّه فرّ كيلا يقع فريسة أيّ إغراء يدعوه إلى قتل عمّه الذي كان يكرهه حتّى الموت. لكنّ الفتى حاول مصالحة العقاب وتمّ له ذلك... والآن اسمع يا باولو بورّو...

لكنّ ابن الأخت صاح ليصلّح كلام الضيفة: - دكتور بورّو! دكتور بيديدّو! فنظرت إليه هذه بغضب كأنّما أرادت أن تصفعه، ولو صفعة صغيرة. فأخذت جوفانّا تضحك.

ضحكت أيضاً، وبنوع من التوتّر، غراتسيا الشاحبة والنحيلة، عندما رأت ضحكة الضيفة المتألّقة بسبب زوجها السجين والمحاطة لهذا بهالة من الرومانسيّة. ثمّ ضحكت منيّا، فضحك ابن بلدها الصغير وضحك الطالب أيضاً. نظرت العمّة باكيسيا حولها بعينين فوسفوريّتين. لماذا يضحكون؟ هل هم مجانين؟ رفعت يدها الصفراء النحيلة من غير أن تعرف من تصفع، هل تصفع ابنتها أم تصفع الطفل، ذلك عندما دخلت العمّة بورّيدّا وفي يدها طبق المعكرونة الذي يتصاعد منه البخار.

دخل وراءها العمّ إيفس ماريّا بورّو، وهو رجل ضخم مهيب، صدره محشور ضمن الصدّارة المخمليّة ذات اللون الأزرق السماويّ. كان فلّاحاً يدّعي أنّه أديب، وجهه رماديّ كأنّه قناع من رخام قديم، لحيته صغيرة شعرها أجعد، شفتاه ضخمتان مفتوحتان، والعينان واسعتان فاتحتان.

- أسرعوا، أسرعوا إلى المائدة! - قالت العمّة بورّيدّا وهي تلقي بالطبق وسط المائدة. –آه، كنتم تضحكون إذاً؟ وهل يحملكم الدكتور الصغير على الضحك؟

- كنت في سبيلي لأن أصفع حفيدك – قالت العمّة باكيسيا.

- ولماذا يا روحي؟ تعالوا إذاً إلى المائدة. اجلسي هنا يا جوفانّا، واجلس أنت هنا يا دكتور بوريدّوو.

لكنّ الطالب رمى نفسه على ظهره فوق السرير، ومدّ ذراعيه، ورفع ساقيه في الهواء، ثمّ خفضهما وقفز إلى الأسفل على قدميه وهو يتثاءب.

فأخذ الولدان وجوفانّا يضحكون من جديد. وقال هو:

- القليل من الرياضة يفيد الجسم. آه يا إلهي كيف يمكن لي أن أنام هذه الليلة! كلّ عظامي مخلوعة. كم كبرتِ يا غراتسيا الصغيرة، كأنّك أصبحت مثل المعسفة.

احمرّ وجه الفتاة وخفضت بصرها، أمّا العمّة باكيسيا فقد قلبت وجهها غاضبة لأنّ الطالب كان يفكّر بكلّ شيء عدا بالقصّة التي كانت ترويها، ولأنّ جميع الضيوف لا يبدون اهتماماً بمصيبة كوستانتينو. على كلّ بدا أنّ جوفانّا أيضاً قد نسيت الأمر، لكنّها ما إن وضعت لها العمّة بورّيدّا وجبة وفيرة من المعكرونة الزهريّة اللون التي تفوح منها روائح الصلصة العطرة، حتّى تجهّم وجهها ورفضت أن تأكل.

- قلت لكم هذا – صاحت العمّة بورّيدّا وقد ثارت دهشتها – إنّها مجنونة، بحقّي إنّها مجنونة! ولماذا لا تأكلين الآن؟ ماهي العلاقة الآن بين تناول الطعام والمحاكمة في الغد؟

- هيّا! – قالت العمّة باكيسيا، ليس بغير شيء يسير من المرارة – لا ترتكبي حماقات، لا تعكّري فرحة هؤلاء الناس الطيّبين.

أمّا العمّ إيفس ماريّا فقد أخذ يضع فوطة الطعام تحت ذقنه بكل تؤدة، وهو يتفوّه بخطبة بليغة.

- قلب قدير في مواجهة المصير، هكذا يقول دانتى آليغييري. فهيّا يا جوفانّا إيرا، برهني على أنّك زهرة الجبال، وأقوى من الصخور. الزمن سيسوّي كلّ شيء.

بدأت جوفانّا بتناول الطعام، لكنّ شهقة علقت في حلقها وحالت دون بلع الطعام.

التزم باولو الصمت وهو منحن فوق صحنه الذي بدأ يفرغ عندما تمكّنت جوفانّا من ابتلاع أوّل قطعة معكرونة.

- إنّك مثل الريح يا بنيّ – قالت العمّة بورّيدّا – أكلت بسرعة، إنّك جائع جوع الكلاب! هل تريد المزيد؟ أجل، ثمّ المزيد مرّة أخرى؟ ما رأيك؟

- ما أروعك! قال العمّ إيفس –يبدو أنّك لم تر في المدينة الخالدة أيّ شيء يؤكل.

- صحّ! كنت أقول هذا أنا أيضاً – أكّدت العمّة بورّيدّا – الأماكن هناك رائعة إذا شئتم، لكنّ كلّ شيء يشترى بالدراهم الرنّانة. والحقّ أنّي سمعتهم يقولون إنّهم لا يملكون مؤونة في بيوتهم، مثلما هو الأمر عندنا، لذلك فعندما لا توجد مؤونة في البيت فإنّ الناس لا يشبعون أبداً...

أومأت العمّة باكيسيا برأسها لأنّها كانت تعرف أنّه لا يوجد في بيتها، للأسف، شيء من المؤونة.

- هل هذا صحيح أو غير صحيح يا دكتور بوريدّوو؟

- هذا صحيح، قال وهو يأكل ويضحك ويهزّ يديه العريضتين البيضاوين بأظافرهما الطويلة.

هنا أبدى العمّ إيفس ماريّا ملاحظته وقال: - لهذا فقد تحوّل إلى علقة ومصّاص دماء! ولم يترك لي قطرة دم في عروقي. إنّه الشيطان بشحمه ولحمه، لأنّه كان يأكل المال أكلاً في روما!

لكنّ باولو تنهّد وأجاب: - آه، لو تعلمون، كلّ شيء هناك. كلّ شيء مرتفع ثمنه! سعر أي غرض تافه يفوق العشرين سنتيماً. أمّا هنا فالأمر مختلف ومريح!

- عشرون سنتيماً! قال الجميع بصوت واحد.

- حسناً يا عمّة باكيسيا، وبعدها؟ متى يعود كوستانتينو؟ سأل باولو.

- حسناً يا باولو بورّو... آه، إنّي مازلت أخاطبك بلهجة الودّ[1]، رغم أنّك ستصبح دكتوراً عمّا قريب، ذلك أنّي ضربتك وصفعتك عدّة مرّات عندما كنت فتى صغيراً...

---

(١) أنتَ وأنتِ هي طريقة الخطاب للمفرد بلهجة الودّ في الإيطاليّة – كما في لغات لاتينيّة أخرى. وذلك مقابل الخطاب بأنتم وأنتنّ للمفرد أيضاً، في الخطاب الرسمي. (م)

- لا أذكر شيئاً من هذا – قال الشابّ – تابعي حديثك - بينما كانت خياشيم غراتسيا ترتعش غضباً.

- حسناً، أخبرتك أنّ كوستانتينو غاب لمدّة ثلاث سنوات وأنّه...

- ذهب إلى المناجم، رائع، ثمّ عاد وتصالح مع عمّه.

- التقى في ذلك الحين ببنتيّ جوفانّا، هذه البنت، فتحابّا. لكنّ عمّه لم يقبل لأنّ الفتاة فقيرة. فعاد الخصام بينهما، وكان كوستانتينو يعمل مع العقاب، لكنّ العقاب لم يكن يدفع له أجره، ولا سنتيماً واحداً. عندها جاء كوستانتينو إليّ وقال لي: - أنا فقير، ولا أملك المال لشراء مجوهرات للعروس وإقامة حفل ووليمة عرس كما يجب، وأنتم فقراء كذلك. لذلك يمكن لنا أن نعمل الآن معاً حتّى نجمع المال اللازم للحفلة ثمّ نتزّوج كما يريد الربّ – وبما أنّ كثيرين يفعلون مثل هذا فلنفعل ذلك نحن أيضاً. وهكذا تمّت الزيجة المدنيّة بصمت، وعشنا معاً بوفاق ووئام. لكنّ العقاب انفجر غضباً، وكثيراً ما كان يأتي ليزعق في طريقنا ويستفزّ كوستانتينو قبل الجميع. أمّا نحن فكنّا نعمل. وحدث أنّه بعد الحصاد في العام المنصرم، وبينما كنّا نحضّر حلوى العرس، تمّ العثور على بازيلِه ليدّا قتيلاً في بيته. وكان كوستانتينو قد شوهد قبل ليلة وهو يدخل إلى بيته، لأنّه ذهب إليه ليخبره بالعرس وإجراء المصالحة. آه، يا للفتى المسكين! بل إنّه رفض أن يهرب كما نصحته، وهكذا تمّ اعتقاله.

- لأنّه كان بريئاً...يا أمّـــي...

- وهل تعودين يا حمقاء لتبكي... إذا لم تكفّي عن البكاء فإنّي سأنقطع عن الكلام. حسناً، لقد اعتقلوا كوستانتينو، وتقام الآن الدعوى، كما يطلب المدّعي العام له الأشغال الشاقّة. فهل هو كلب ذلك المدّعي العام؟ هناك أدلّة، هذا صحيح، كما أنّه شوهد وهو يدخل ليلاً إلى بيت عمّه الذي كان يعيش بمفرده مثل طائر برّي، وتمّ

أيضاً التذكير بأحداث الماضي، كلّ هذا صحيح، رغم أنّه لا توجد أدلّة فعليّة. لكنّ كوستانتينو أظهر أنّه متناقض في أقواله وعبّر عن مشاعر الندم. كان يقول دائماً: إنّها خطيئة مميتة وإثم عظيم. إذ عليك أن تعرف أنّه رجل متديّن، وقد ظنّ أنّ هذه المصيبة حلّت به لأنّه عاش مع جوفانّا قبل أن يتزوّجا زواجاً دينيّاً.

- لكن أخبريني...

- انتظر. عليّ أن أضيف، إنّهما تزوّجا زواجاً دينيّا بعدها، لكن في السجن. أجل في السجن، تصوّر يا روحي ما أبشع هذا الأمر. لا تعودي للبكاء يا جوفانّا، وإلّا ضربتك بهذه المملحة. ها هي تلك الحمقاء! كان الجميع يقولون لها: لا، لا، لا تتزوّجا زواجاً دينيّاً، فإذا أدين يمكن لك أن تتزوّجي بواحد غيره...

- آه يا لكم من أنذال! صاحت الشابّة بعينيها اللتين اشتعلتا من الغضب، لكنّ أمّها حدّقت فيها بنظرة حادّة فسكتت من جديد.

- هل أنا التي كنت أقول هذا الكلام؟ تساءلت العمّة باكيسيا. – لا، كان يردّده الآخرون، وكانوا يقولونه من أجل مصلحتك.

- مصلحتي، مصلحتي – تذمّرت جوفانّا وهي تخفي وجهها بين يديها. لقد انتهت مصالحي، انتهى خيري، انتهى، انتهى.

- هل عندكما أولاد؟ سألها باولو.

- أجل، ولد واحد، ويا للمصيبة لو لم يكن عندنا! يا للمصيبة! ثمّ غرزت أصابعها في شعرها فوق جبهتها، وكانت تهزّ رأسها كأنّها مجنونة.

- وهل تريدين أن تقتلي نفسك يا قلبي؟ سألتها أمّها باستهزاء وسخرية. أمّا الطالب فظنّ أنّه رأى نوعاً من الزيف في حركات جوفانّا، بل إنّه شبّهها بممثّلة شهيرة رآها في تمثيليّة فرنسيّة، لذلك فقد خرجت كلمات شكّ من بين شفتيه إزاء آلام المرأة الشابّة.

- حسناً – قال – على كلّ لقد تمّت المصادقة على قانون الطلاق، إذ يمكن لكلّ امرأة أن تعود حرّة إذا حكم على زوجها.

لم يظهر أنّ جوفانّا قد فهمت هذا الكلام، فتابعت هزّ رأسها بين يديها. فقالت العمّ بورّيدّا بقناعة:

- أجل، يا لهذا الكلام! إنّ الله نفسه لا يفسخ الزواج!

لكنّ العمّ إيفس ماريّا لاحظ بشيء من السخرية:

- بلى! لقد قرأت عن هذا في الصحف. هذا الطلاق الآن! سينّفّذونه في القارّة[1]، حيث يمكن للرجال والنساء أن يتزوّجوا عدّة مرّات، ومن غير حاجة إلى راهب أو عمدة، لكن هنا، هل يعقل هذا!..

- لا، يا أبتي بورّو، ليس في القارّة، بل في تركيّا- علّقت غراتسيا.

- هنا أيضاً، هنا أيضاً! قالت العمّة باكيسيا التي فهمت كلّ شيء.

ما إن انتهت امرأتا آل إيرا من العشاء، حتّى خرجتا لتذهبا إلى المحامي.

- أين ستؤويانهما لتناما؟ سأل باولو – هل في غرفة الغرباء؟

- بكلّ تأكيد. لماذا؟

- لأنّي أريد في الحقيقة أن أذهب أنا إلى هناك في الأعلى، لأنّ الجوّ خانق هنا، ثمّ ألست أنا أفضل الغرباء؟

- اصبر حتّى الغد يا بنيّ، إنّهما ضيفتان فقيرتان...

- يا إلهي، ما هذه العادات الهمجيّة، متى ننتهي منها؟ تساءل بكثير من الريبة.

---

(١) تجري أحداث الرواية في سردينيا، وهي جزيرة. والإشارة إلى القارّة هنا هي لإيطاليا. (م).

- هذا ما أسأله أنا أيضاً – قال العمّ إيفس ماريّا، الذي كان قد بدأ يقرأ في الصحيفة. - لكثرة ما تزعجني هاته النساء. على كلّ ما هو رأيك بالوزارة الجديدة؟

- هذا لا يهمّني في شيء – أجاب متضاحكاً، لأنّه تذكّر تلك الشخصيّة في مسرحيّة **سيّدات لدى مكسيم**(١)، وهي من أروع تمثيليّات مسرح مانزوني الذي كان كثيراً ما يرتاده.

لكنّه ذهب لينظر في بعض الكتب التي وضعها في زاوية من زوايا الغرفة. كانت منيّا وأخوها قد خرجا إلى الرواق. أمّا غراتسيا فقد جلست أمام الطاولة ووضعت قبضتيها على خدّيها وهي مازالت تنظر إلى خالها الذي التفت إليها بدوره وقال:

- أنت تقرئين هذه الروايات، أليس كذلك؟

- أنا لا، أجابت وقد احمرّ وجهها.

- لكنّي أقول لك وأحذّركِ إنّي إذا وجدتك تقرئين كتباً معيّنة فإنّي سأقلبها على رأسك....

ارتجفت شفتاها، ثمّ نهضت وخرجت كي تخفي بكاءها، فسمعت أنّ أخويها مازالا يتنازعان بسبب حصّالة النقود التي رسمت عليها صورة البابا.

قال الطفل: - أمّا فيما يتعلّق بالسرقة فعليك أن تلتزمي الصمت، فقد قمت اليوم أنت وتلك الأخرى القابعة هناك، تلك المعسفة، قمتما ببيع بعض النبيذ واحتفظتما بالنقود...

- آه، أيّها الكذّاب! – قالت وهي تقفز فوقه وتضربه بينما أخذ هو يبكي بمرارة.

---

(١) Dame chez Maxim (م)

كانت صراصير الجداجد تغنّي في الخارج، وكانت الخيل تضرب بحوافرها على الأرض، والنجوم تشعّ بأضوائها الشبيهة بلون الحليب فوق الرواق الحارّ والمليء بعبق القشّ الجافّ.

- إنّها يتيمة مسكينة، لا تعاملها بقسوة – قالت العمّة بورّيدّا لابنها دفاعاً عن غراتسيا (والفتية الثلاثة هم أولاد الابن الأكبر لبورّو، الراعي الغنيّ وزوجته الشابّة التي ماتت قبل سنة)، فإذا كانت تريد أن تقرأ فدعها تقرأ ما تريد.

- أجل، دعها تقرأ ما تريد! أكّد العمّ إيفس ماريّا بكلّ وقار – ولماذا لم يكونوا يتركونني أقرأ ما أريد عندما كنت صغيراً؟ كنت سأصبح عالم فلك، ومثقّفاً مثل القساوسة.

عالم الفلك يعني بالنسبة للعمّ إيفس ماريّا رجلاً واسع المعرفة، شديد الحكمة، أي فيلسوفاً على وجه التقريب.

- وهل رأيت البابا يا بنيّ؟ سألت العمّة بورّيدّا بعد أن جاءت سيرة القساوسة.

- لا.

- وكيف؟ ألم تشاهد البابا؟

- وماذا تظنّين أنت؟ أنّ البابا موجود في صندوق، ومن يريد أن يراه عليه أن يدفع، وأن يدفع الكثير.

- هيّا بنا! قالت له - أنت زنديق كافر.

وهكذا فقد خرج إلى الرواق حيث كان ابنا أخته يتضاربان، فهجم وفرّق بينهما، وألقى بكلّ واحد في طرف من أطراف الرواق، وهو يصرخ عليهما:

- لستما حقّاً إلّا صوصين أحمقين. ها هي صيصان حمقى، ليحمكما الله. يا لكما من ولدين شرّيرين! لستما إلّا من الأشرار!

فزعق الطفلان بين غناء الجداجد، وسط هدوء الليل وصفائه.

-II -

كانت جوفانّا هي أوّل من استيقظ في صباح اليوم التالي. تسلّل من طرف زجاج الباب شعاع ضوء أحمر من الفجر، ووسط سكون الصباح كانت تسمع زقزقة طيور السنونو.

ما إن استيقظت حتّى شعرت الصبيّة بنوع من الحلاوة، لكنّه سرعان ما تهيّأ لها أنّ هدير رعد شديداً يحيط بها. لأنّها تذكّرت.

في ذلك اليوم سيتقرّر مصير زوجها. كانت متأكّدة أنّ كوستانتينو مدان لامحالة، لكنّها كانت تصرّ على التعلّق ببصيص أمل. لم تكن تفكّر البتّة فيما إذا كان مذنباً أم لا، وربّما لم يخطر في بالها أن تفكّر على الإطلاق، لكنّ نتيجة الأمر كانت تعذّبها، فكيف لها الانفصال انفصالاً قد يكون أبديّاً عن ذلك الشابّ المشوق القدّ القويّ البنية مثل الكلب السلوقيّ وذي اليدين الناعمتين والشفتين الحارقتين! عندما تذكّرت شعرت بحزن شديد، فقفزت من السرير عن غير وعي منها وبدأت ترتدي ثيابها وهي تقول بصوت لاهث:

- لقد تأخّر الوقت، تأخّر الوقت، تأخّر الوقت...

فتحت العمّة باكيسيا عينيها الصغيرتين الشبيهتين بعيني يراعة، ثمّ نهضت هي أيضاً. لكنّها كانت تعرف حقّ المعرفة ما الذي سيحصل في ذلك اليوم وفي اليوم التالي كما في السنة والسنتين والسنوات العشر القادمة، فلا حاجة لأن تشغل بالها. ارتدت ملابسها وغمست يديها بالماء ثمّ مرّرتهما على وجهها لمرّة واحدة، وبعد أن جفّفته لفّت بعناية فائقة الرباط على رأسها.

كرّرت جوفانّا: - لقد تأخّر الوقت، يا إلهي، لقد تأخّر...

لكنّها تأثّرت بهدوء أمّها، فهدأت هي أيضاً. نزلت العمّة باكيسيا إلى المطبخ فتبعتها جوفانّا. أخذت العمّة باكيسيا تحضّر القهوة بالحليب والخبز لكوستانتينو (إذ من المسموح للمرأتين جلب الطعام للمتّهم) ووضعت كلّ شيء في السلّة وتوجّهت نحو السجن، وتبعتها جوفانّا.

كانت الطرقات مقفرة، وعندما أشرقت الشمس فوق قمم الجرانيت في أعلى جبل أورتوبينه[1]، نشرت في الهواء غباراً من ذهب ورديّ. كانت السماء زرقاء للغاية، والطيور سعيدة للغاية، والهواء في هدوء شديد وذو عطر فوّاح، حتّى ليقال إنّه صباح يوم عيد، لكن قبل أن يبدأ الناس بالتحرّك وقبل أن تقرع الأجراس. عبرت جوفانّا الطريق الذي يقود من محطّة القطار (وكان آل بورّو يعيشون قربها) إلى السجن، وهي تنظر إلى الجبال البعيدة البنفسجيّة، وهي تتهادى كأنّها إكليل ضخم من الجمشت على حافّة الأودية العظيمة والموحشة، وكانت تتنفّس الهواء المضمّخ بالعطور البرّيّة وهي تفكّر في بيتها الصغير المبنيّ بصخور هشّة، وبطفلها، وبالسعادة المفقودة، فشعرت بالموت يتغلغل بين أوصالها.

كانت أمّها تتمايل أمامها والسلّة على رأسها. وصلتا إلى أمام مبنى السجن المستدير الأبيض الموحش: ظهر الحارس الجامد بلا حراك كأنّه تمثال منتصب وسط ذلك السكون وتحت سطوع الصباح الباكر. وكان هناك شجيرة خضراء بجانب جدار السجن، فزاد منظرها من وحشة المكان. كان الباب الأخضر ينفتح من حين

---

(١) جبل من الجرانيت شرقي مدينة نوّرو في جزيرة سردينيا. قالت عنه ديليدا مرّة (الحقّ أنّه لا يمكن أن نقارن بين جبل أورتوبينه والجبال الأخرى، فجبل أورتوبينه هو فريد في العالم بأجمعه، إنّه قلبنا، إنّه روحنا، إنّه شخصيّتنا. وفينا كلّ ما فيه من كبير وصغير، من حلو هيّن ومن قاس وحادّ ومؤلم). (م)

لآخر كأنّه فم أبي الهول، وقد فتح الآن ليبتلع المرأتين. كان الجميع هناك، في ذلك الكهف المخيف، يعرفون هاتين البائستين، بدءاً من رئيس الحرس الأحمر المهيب، الذي يبدو وكأنّه جنرال كبير، إلى آخر حارس، ذي الوجه الشاحب والشارب الأشقر المنتصب، والذي يتباهى بما يدّعي من أناقة في مظهره.

كان كلّ رعب الداخل يتّضح منذ بداية الممرّ المظلم النتن: ولم تتعدّ المرأتان ذلك الحدّ ولم تمضيا أبعد من ذلك. لكنّ الحارس الأنيق ذا الوجه الشاحب جاء لأخذ السلّة، فسألته جوفانّا بصوت منخفض إذا كان كوستانتينو قد نام.

- أجل، لقد نام، لكنّه كان يحلم، ويحلم. كان يقول: الخطيئة المميتة.

فقالت العمّة باكيسيا: - آه، يا لخطيئته المميتة تلك، فليذهب إلى الشيطان!... عليه أن ينتهي عن هذا!

فغمغمت جوفانّا: - آه يا أمّي، لماذا تشتمينه؟ ألم يصبه ما يكفي من لعنات القدر؟

انتظرت المرأتان خروج المتّهم بعد أن عادتا إلى الخارج.

عندما رأت جوفانّا رجلي سلاح الكارابنييري اللذين سيقودانه إلى المحكمة بدأت ترتجف بتشنّج، رغم أنّها تمكّنت قبل أيّام من رؤيته وهو يخرج بينهما. اتّسعت عيناها السوداوان وهما تحدّقان في الباب بنظرة جنونيّة. مرّت دقائق من الانتظار المؤلم: انفتح فم أبو الهول مرّة أخرى فظهر كوستانتينو بين رجال الدرك بوجوههم الرماديّة كالجرانيت والشوارب السوداء الطويلة. كان طويل القامة ورشيقاً مثل شجرة حور صغيرة: كان هناك فرقان من الشعر الأسود الطويل اللامع يحيطان بوجهه الذي بيّضه السجن، والحليق الجميل كجمال النساء، وكانت له عينان بنّيتان كبيرتان وفم صغير كفم طفل بريء. وكان هناك غمّازة على ذقنه: فظهر كأنّه الإله أبولّو في أوج شبابه.

توقّف عندما رأى جوفانّا وقاوم الجنود، ورغم أنّه كان يتوقّع تلك اللحظة فإنّ شحوب وجهه ازداد وامتقع. اندفعت جوفانّا أمامه وهي تشهق بالبكاء ثمّ شدّت على يده المقيّدة.

قال واحد من رجال الكارابنييري بصوت عذب: - هيّا، أنت تعرفين أنّ هذا ممنوع أيّتها السيّدة الطيّبة.

لكنّ العمّة باكيسيا اقتربت أيضاً ورمت المجموعة بنظرات عينيها الخضراوين الصغيرتين. فتوقّف رجلا الكارابنييري للحظة، وتمكّن كوستانتينو أن يقول بصوت ثابت بل ومرح بعض الشيء أيضاً:

- هيّا، تشجّعي! تشجّعيّ! وامتلك القوّة كي يبتسم لجوفانّا.

قالت العمّة باكيسيا بينما كان رجلا الكارابنييري يدفعان المرأتين بلطف: - المحامي ينتظرك هناك.

- ابتعدا، أيّتها المرأتان الطيّبتان، ابتعدا، قالا وهما يسحبان المتّهم.

ابتسم هو لجوفانّا من جديد، فظهرت أسنانه شديدة البياض بين شفتيه النضرتين لكن الشاحبتين، ثمّ ابتعد بين الرجلين اللذين ظهرا كأنّهما من جرانيت.

قامت العمة باكيسيا بدورها بسحب جوفانّا بعيداً بعد أن حاولت أن تتبع زوجها، ثمّ أعادتها إلى منزل بورّو لتناول الإفطار قبل الذهاب إلى المحكمة. كانت الشمس تغمر الفناء. وكانت طيور السنونو تنظر إليها وهي تشدو فوق أوراق العنب البرّاقة على العريشة، التي تدلّت منها عناقيد كبيرة من عنب لم ينضج بعد، بل ظهر كأنّه منحوت في رخام أخضر. وكان العم افيس ماريّا قد امتطى صهوة حصانه الأصفر الظهر والأسود الجنبين واستعدّ لينطلق نحو

بساتين الريف. أيّ ضياء وأيّ احتفال في ذلك الفناء، الذي لا يحيط به سوى سور صغير من حجر، ويستمتع المرء فيه برؤية أفق عريض! كان الأطفال يأكلون فتّة القهوة بالحليب وهم جالسون على طرف باب المطبخ. وكانت غراتسيا قد ذهبت لتأكل طبقها في إحدى الزوايا، ربّما كيلا يراها عمّها الطالب وهي في ذلك الوضع غير الشاعريّ، بينما كان هو يقف بقميصٍ بنصف كمّ وسط الفناء ليلتهم طبق الفتّة الكبير. وكانت العمّة بوريدّا تلمّع له حذاءه وهي مندهشة من القصص التي كان ابنها يرويها لها.

وبما أنّه كان خلال الصيف في روما، فقد قال: - كم هي كبيرة كنيسة سان بطرس؟ حسناً، إنّها كبيرة كالمراعي، ولا يمكن للمرء أن يصلّي فيها، وكيف يمكن له أن يصلّي في مرعى؟ تماثيل الملائكة أكبر من ذلك الباب، ولا نتحدّث عن الملائكة الصغار، أولئك الذين يسندون حوض الماء المقدّس.

- آه، يجب إذاً وضع السلّم لأخذ الماء.

- لا، لأنّه يوجد مساند ركوع، على ما أظنّ. أعطني مزيداً من القهوة بالحليب يا أمّي، هل بقي منها؟

- بقي بالطبع. لقد عدت بكثير من الجوع يا صغيري باولو، تبدو كأنّك سمكة قرش.

- هل تعرفين ثمن مثل هذه القهوة بالحليب في روما؟ ليرة كاملة، لا أقلّ من ذلك، فضلاً عن أنّ الحليب كالماء.

- باركهم الله! هذا مرعب بالفعل!

- هل تعلمين؟ لقد رأيت الدلافين في البحر، أوه، كم هي غريبة! أوه، ها هم الضيوف. صباح الخير، ماذا فعلتم؟

قصّت جوفانّا عن لقائها بزوجها، وأرادت أن تعاود البكاء، لكنّ العمّة بورّيدّا أخذتها من يدها وذهبت بها إلى المطبخ.

ثمّ قالت لها وهي تناولها وعاء كبيراً من القهوة بالحليب: - إنّك اليوم بحاجة للقوّة يا روحي، كلي، هيّا كلي.

بعد قليل خرجت المرأتان للذهاب إلى المحكمة، ووعد باولو باللحاق بهما.

قالت العمّة بورّيدّا لجوفانّا وهي تودّعها: تشجّعي!

فتهيّأ لها أنّها تسمع إدانة زوجها من خلال صوت مضيفتها، فانصرفت وهي منحنية الرأس، مثل كلب مضروب بالسياط. تبعها باولو بعينيه، ثمّ توجّه نحو أمّه، وهو يعرج مثل صوص جريح، وقال لها شيئاً غريباً:

- اسمعي، لن تمرّ سنتان وستجدين أنّ تلك الصبيّة قد تزوّجت.

- ماذا تقول يا دكتور بيديدّو؟ صاحت المرأة التي ما إن تغضب حتّى تنادي ابنها بلقبه – الحقّ أنّي أراك مجنوناً.

فقال: - آه يا أمّي، لقد عبرت أنا البحار! أرجو على الأقلّ أن تختارني أنا محامياً لها!

وكانت جوفانّا قد قالت لأمّها وهما تنزلان على طريق منحدرة: - ذلك الشابّ! إنّه يأكل مثل الكلاب، ليحفظه الله.

كانت العمّة باكيسيا تسير مثقلة بأفكارها فأجابت بأسنان مطبقة:

- سيكون محامياً جيّداً، أي أنّه سيقضم زبائنه قضماً حتّى العظم، بل سيلتهمهم وهم أحياء يرزقون.

قالا هذا الكلام وصمت كلاهما. لكنّ العمّة باكيسيا تعثّرت بحجر، ولا أحد يعرف لماذا فكّرت وهي تتعثّر أنّه إذا بدأت جوفانّا في يوم ما معاملة الطلاق، فإنّا سترجو باولو كي يصبح محامياً عن ابنتها.

كانت الساعة قد بلغت الثامنة عندما وصلتا إلى أمام الكاتدرائيّة، وكانت نوافذ المحكمة الصغيرة تعكس على زجاجها ضياء الصباح.

في ساحة الجرانيت الصغيرة وجدت المرأتان كثيراً من أبناء بلدتها، شهود القضيّة، وقد أحاط بعضهم بهما وهم يكرّرون الكلمة المعتادة:

- تشجّعاّ! تشجّعا!

قالت العمّة باكيسيا وهي تمرّ كأنّها فرس مدجّنة: - آه، الشجاعة! ما أشدّ شجاعتنا، فاتركونا بسلام! كانت تعرف الطريق فتوجّهت مباشرة إلى قاعة الحسم الحزينة.

تبعتها جوفانّا، وتبعهما أبناء بلدتها، من رجال ملتحين وبملابس خشنة، ودخل أيضاً بعض الطفوليّين العاطلين، بل دخلت امرأة طويلة مخلوعة الأسنان وذات عينين مقطّبتين.

كان كلّ المحلّفين تقريباً بدينين ومسنّين، كانوا قد جلسوا إلى مقاعدهم، وكان أنف أحدهم ضخماً ومعقوفاً، وآخران بلحية كثّة وعيون متوحّشة فظهرا مثل قطّاع الطرق، وتقارب الثلاثة المتبقّون فتجاورت رؤوسهم وهم يتضاحكون على صحيفة يقرؤونها.

خرج الرئيس، وجهه أحمر محاط بلحية بيضاء قصيرة، والنائب العامّ شابّ بشارب أشقر مستقيم ووجه دمويّ ينمّ عن التسلّط، ثمّ المستشار والحاجب بالعباءة السوداء فظنّتهما جوفانّا ساحريْن، ساحرين شرسيْن جاءا ليسحرا كوستانتينو المسكين.

كان هو في القفص، كأنّه طائر ضخم هائج، بين قامات رجال الكارابنييري الجرانيتيّة، وكان ينظر نحو جوفانّا، لكن دون أن يبتسم لها. بدا أنّ حزناً قاتماً يعصره، بينما كان الرعب يغشى عينيه الطفوليّتين البرّاقتين.

كانت جوفانّا أيضاً تشعر أنّ يداً من حديد تعصر قلبها، فيسري لذلك ألم يخز جسدها بين حين وآخر.

كان المحامي، وهو شابّ صغير أصفر مائل للحمرة، قد بدأ يتحدّث بصوت أنثويّ صارخ. كان دفاعه فاشلاً بما فيه الكفاية: إذ أخذ يكرّر أشياء كانت قد قيلت، فكان كلامه يسقط في الفراغ، مثل قطرات ماء تسقط في وعاء كبير بدون صدى.

حافظ المدّعي العام ذو الشارب المنتصب على وقاحة مظهره، وظنّ بعض المحلّفين أنّهم يفعلون الكثير إذا أظهروا الصبر على وجوههم، وإذا حكمنا على الآخرين كما ينبغي، فمن الواضح أنّهم لم يكونوا يستمعون. فقط العمّة باكيسيا وجوفانّا والمتّهم كانوا وحدهم هم الذين يصغون إلى الدفاع، لكنّهم كانوا يشعرون بالضياع كلّما تقدّم المحامي في حديثه.

جاء شخص آخر وجلس خلف جوفانّا، وكانت هذه تستدير بسرعة بين الحين والآخر لترى فيما إذا كان باولو قد جاء. لم تكن تعرف السبب، لكنّها كانت تنتظره بفارغ الصبر، وكأنّ حضور هذا الطالب قد يفيد المتّهم.

عندما أنهى المحامي حديثه، نهض كوستانتينو على قدميه واحمرّ وجهه وهو يطلب الكلام.

قال بصوت متردّد وهو يشير إلى الدفاع: - حسناً... حسناً... لقد دافع عنّي السيّد المحامي... وأنا أشكره... لكنّه لم يقل ما أريد أنا قوله... لم يقل، حسناً، لم يقل...

وتوقّف وهو يلهث.

قال الرئيس:

- أضف إلى ما قيل في الدفاع عنك كلّ ما تراه.

وقف المتّهم وهو يفكّر بعينين حزينتين، وشحب وجهه مرّة أخرى: ثمّ مرّر يده المتشنّجة بعض الشيء على جبينه، كأنّما ليخدشه، ثمّ رفع رأسه.

قال بصوت منخفض: - حسناً، أنا، أنا – لكنّه لم يتمكّن من المتابعة فشدّ قبضته والتفت بغضب نحو المحامي ثمّ صاح بصوت مدوّ:

- لكن قل إذاً إنّي بريء، إنّي أنا بريء!

فلوّح المحامي له بيده ودعاه إلى الهدوء. كما رفع الرئيس حاجبه وكأنّما ليقول: - ولكنّه قالها مئة مرّة، فهل هو ذنبنا إذا لم يكن بوسعنا تصديقه؟ - فارتجف أنين امرأة في القاعة.

كانت جوفانّا هي التي تبكي. فأخرجتها العمّة باكيسيا وهي تقاوم وتبكي، وألقى الجميع، باستثناء المدّعي العام، نظرة على صراع المرأتين.

بعد ذلك بوقت قصير، انسحبت المحكمة للتداول.

لحق بالعمّة باكيسيا اثنين من أبناء البلد، وهي تسحب ابنتها إلى الساحة الصغيرة. لكنّها بدلاً من مواساتها أخذت بتأنيبها. وهل جننت جنوناً تامّاً؟ هل كنت ترغبين في أن يطردوك من القاعة بالقوّة؟

وأنهت حديثها قائلة: إذا لم تسكتي فسألكمك بحقّ لكمات كثيرة.

فقالت الثانية وهي تجهش بالبكاء: أمّي، يا أمّي العزيزة، سيحكمون عليه، سيضيّعونه عنّي، عليهم اللعنة، ولا أستطيع أنا أن أفعل شيئاً، أنا لن أستطيع فعل أيّ شيء...

قال لها واحد من أبناء بلدتها: - وماذا تريدين أن تفعلي؟ كما أنّه حقّ أنّي حيّ أرزق، فكذلك أنت لا يمكن لك أن تفعلي شيئاً. فتحلّي بالصبر، على كلّ ما زال علينا أن ننتظر بعض الوقت...

في تلك اللحظة ظهر ثلاثة أشخاص سود، كان أحدهما يعرج ويضحك. كان ذلك هو باولو بورّو بين خوريّين شابّين من أصدقائه.

قال الطالب: - ها هي هنا، يبدو أنّهم قد أدانوه.

بدأ الآخر في النظر إلى جوفانّا بفضول، وعندما اقترب الأصدقاء الشباب الثلاثة منهما، سأل باولو عمّا إذا كانت المحاكمة قد انتهت.

سأل واحد من الخوريّيْن:

- هل ذلك هو الذي قتل عمّه؟

بينما بقي الثاني يراقب جوفانّا التي بدأت تهدأ.

قالت باكيسيا بإباء: - إنّه لم يقتل أحداً! بل أنتم هم القتلة أيّها الغربان السود.

أجاب الخوريّ الشابّ: - إذا كنّا نحن غرباناً فأنت ساحرة شرّيرة.

فضحك بعض الحاضرين.

في هذه الأثناء هدأت جوفانّا بعد أن شجّعها باولو على ذلك، ووعدت بعدم القيام بمزيد من الحركات إذا سمحوا لها بالعودة إلى القاعة. وهكذا فقد عادوا سويّة، بينما كان المحلّفون يعودون أيضاً إلى أماكنهم بعد أن أجروا مداولات قصيرة.

خيّم صمت عميق على القاعة الحارّة والقاتمة: وسمعت جوفانّا طنين ذبابة تحوم حول حديد النافذة، ثمّ حسبت أنّ عظامها قد ثقلت وأنّ قضبان حديد مثلّج تتسرّب عبر جسمها وعلى طول ساقيها وعلى طول ذراعيها.

قرأ الرئيس الحكم بصوت منخفض ولا مبال، بينما تعلّقت أنفاس المتّهم وهو ينظر إليه بثبات. بقيت جوفانّا تسمع طنين الذبابة وشعرت بموجة بغضاء نحو ذلك الرجل الأحمر ذي اللحية البيضاء، ليس بسبب ما كان يقرؤه بل لأنّه كان يقرأ بصوت منخفض ولا مبال: وبذلك الصوت المنخفض اللامبالي حكم بالسجن سبعة وعشرين سنة على قاتل حضّر جريمته منذ زمن طويل، ونفّذها ضدّ عمّه ووليّ أمره.

كانت جوفانّا متأكّدة من صدور حكم بثلاثين سنة، فبدا لها أنّ سبعة وعشرين أقلّ بكثير، لكن للحظة، لأنّها حسبت مباشرة أنّ ثلاثة سنين من أصل ثلاثين ليست شيئاً يذكر، فعضّت على شفتيها كيلا تصرخ. تعتّم بصرها وبذلت جهداً جهيداً يائساً لتنظر نحو كوستانتينو، فرأت، أو تهيّأ لها أنّها ترى وجهه وقد بهت وهرِم، وأنّ خماراً قد انسدل على عينيه فتاهتا في الفراغ. آه، إنّه لا ينظر إليها، ولم يعد ينظر إليها حتّى! لقد انفصل عنها إلى الأبد. لقد مات، رغم أنّه ما زال حيّاً. لقد قتله أولئك الرجال الضخام الهادئون الذين ما زالوا على لا مبالاتهم بانتظار ضحيّة أخرى. شعرت بفقدان رشدها، وسمعت فجأة صرخات موحشة تتردّد في القاعة، وهنا أمسك بها أحدهم وسحبها نحو الساحة الصفراء بشمسها.

قالت لها العمّة باكيسيا وهي تجرّها من ذراعها: - هل هذا ممكن يا بنيّتي؟ هل أنت مجنونة؟ إنّك تصرخين كالوحوش، ولماذا؟ ما زال هناك الاستئناف، ما زال هناك النقض يا روحي، فاهدئي!

حدث كلّ هذا في لحظات قليلة. ثمّ حاصر جميع الشهود والمحامي وباولو بورّو المرأتين في محاولة لمواساتهما. بكت جوفانّا بلا دموع، وبتنهّدات جافّة قطّعت صدرها. كما خرجت من شفتيها المرتعشتين كلمات مفكّكة، ملؤها الحنان في مخاطبة كوستانتينو، بينما تنمّ عن التهديد للمحلّفين.

رجت أن يتركوها لتشاهد خروج المتّهم، وانتظرت. في النهاية ظهر بين رجلي الكارابنييري الباردين الجامدين، كان قاتم الوجه، منحني القامة، بعينين غائرتين، وكأنّه شاخ على حين غرّة.

اندفعت جوفانّا أمامه، وبما أنّ رجلا الكارابنييري لم يتوقّفا، فقد خطت بضع خطوات ملتوية، نحو المحكوم عليه، وابتسمت له، وقالت له إنّ النقض سيعالج كلّ شيء، وأنّها ستبيع حتّى القميص كي تنقذه.

كان ينظر إليها بعينين مفنجلتين مليئتين بالدهشة، وبما أنّ رجلا الكارابنييري كانا يدفعانه، وقال أحدهما:

- هيّا، هيّا أيّتها المرأة الصالحة، تحلّي بالصبر، فقد قال هو أيضاً:

- هيّا، هيّا يا جوفانّا، حاولي أن تحصلي على إذن زيارة قبل أن يأخذوني... تعالي مع الطفل... وتشجّعي.

عادت مع أمّها إلى بيت الضيافة. عانقت العمّة بورّيدّا المرأتين وبكت تبكي، ثمّ بدا أنّها غضبت من ضعفها وحاولت أن تعالج الأمر.

- حسناً، سبع وعشرون سنة، ما هي؟ أو لم يكن أسوأ لو حكموا عليه بثلاثين؟ هل ترغبان في المغادرة؟ أو بهذه الشمس؟ أنتما مجنونتان، ولن أدعكما في الحقيقة أن تذهبا.

- لا - قالت العمّة باكيسيا - لا، سنغادر، لأنّ أبناء بلدتنا الآخرين سيغادرون أيضاً بعد أن رافقونا. لكنّ جوفانّا ستعود في غضون أيّام قليلة مع الطفل، إذا كان ذلك لا يزعجكم.

- بوركتما، إنّ بيتنا هو بيتكما.

جلسوا إلى الطاولة، لكنّ جوفانّا لم تأكل، رغم أنّها حافظت على هدوئها. حاولت العمّة بورّيدّا مرّتين أو ثلاث مرّات التحدّث بأشياء غير مهمّة، فسألت إذا كان الطفل قد وضع أسنانه الأولى، وقالت إنّه قد يتأثّر ربّما إذا سافر تحت تلك الشمس، ثمّ سألت إذا كان محصول الشعير وفير في بلدة آل إيرا.

ساد سكون عميق في الفناء، وغطّت أشعّة الشمس المكان هنا وهناك، فطرّزته ظلال العريشة. كما أخذت طيور السنونو تحلّق جيئة وذهاباً وهي تغنّي – بينما كان باولو يقرأ الصحيفة وهو يأكل. كانت غراتسيا ومنيّا (بينما غادر الأخ الصغير مع جدّه) ترتديان ملابس سوداء ضيّقة مجعّدة، وبدأتا في منتصف الغداء بتغميض عيونهما بعدما ألمّ بهما نعاس الظهيرة، وهكذا فقد سقطت كلمات العمّة بورّيدّا في فراغ ذلك الصمت، وذلك السكون المضيء، الذي شمخت فيه شخصيّة العمّة باكيسيا المأساويّة وآلام جوفانّا الصامتة.

عندما انتهى الغداء سرّجت المرأتان حصانهما وحضّرتا جعبتيهما وطلبتا الإذن بالسفر. وقد وعد باولو بحثّ المحامي على استعجال الذهاب إلى النقض، لكنّه ما إن غابتا حتّى أخذ يلاعب منيّا ليوقظها من النعاس الذي ألمّ بها خلال الغداء، وهو يتضاحك بطلاقة ويهتزّ كلّه، قبل أن يسكت على حين غرّة ويتحوّل إلى كآبة جمّدت عيناه، ثمّ ليعود إلى الضحك من جديد.

تسلّت الفتاتان وأخذتا بالضحك بطريقة جنونيّة هما أيضاً، فتردّدت أصداء بهجة سكون الظهيرة في أنحاء الفناء المضيء وزوايا البيت الهادئ بعدما تحرّر من ذلك الوجود المأساويّ الذي فرضته الضيفتان المتألّمتان.

- III -

سارت امرأتا آل إيرا تحت أشعّة شمس تموّز الساطعة. كان عليهما نزول الوادي والمشي في قاعِه قبل الصعود مرّة أخرى وتسلّق الجبال القرمزيّة التي تغلق مشهد الأفق، حيث كانت القمم المتوحّشة تتلاشى في السماء ذات الضياء الرماديّ وأبخرته الصيفيّة.

كانت تلك رحلة حزينة. فالمرأتان تعدوان على حصان واحد، وديع وكئيب، بينما سبقهما رفقاء السفر، أو تبعوهما متفرّقين ينوؤون بعبء الحرّ والصمت والألم. كانوا يتألّمون بسبب إدانة كوستانتينو بقدر آلام المرأتين، لكنّهم التزموا الصمت احتراماً لمعاناة جوفانّا التي التزمت الصمت هي أيضاً، وإذا تجرّؤوا على الكلام، فقد كانت أصواتهم تصدر هادئة، قبل أن تضيع في صمت الساعة والطبيعة. ساروا ثمّ ساروا، بينما كان الوادي ينحدر نحو مجرى سيل جافّ، وعلى طول ممرّات لم تكن شديدة الانحدار لكنّها برّيّة موحشة، حفرت بعض الشيء بين تلال يبوس، وبين صخور وبقع متربة وأكوام أوراق يابسة صفراء حزينة. كما انتصبت أشجار غريبة الشكل، برّيّة تنتصب منعزلة ووحيدة مثل النسّاك، صامتة وسط مسافات طويلة، وجامدة بلا حراك على خلفيّات من بريق موحش: بينما كانت ظلالها تسقط على الأرض كأنّها ظلّ سحابة منفردة، ضاعت خوفاً من الضوء الساطع الذي قامت بحجبه. من بين تلك الظلال كان يرتفع صوت طير برّيّ ظهر صراخه حادّاً في البداية ثمّ بدا أنّه يتلاشى وسط الصمت الذي كان قد قطعه.

كانت تتحدّى الشمس أزهار أشواك كبيرة ذات لون بنفسجيّ زاهٍ، وأجراس أزهار ذات لون ورديّ، ونجوم الخبّيزة ذات اللون الأرجوانيّ، كانت

تتحدّى الشمس فتزيد من الشعور بوحشة الوادي. ومن الأسفل إلى الأعلى كانت تتعرّج أسوار حجرّية لا متناهية مغطّاة بالطحالب المصفرّة الجافّة تحت أشعّة الشمس، بينما كانت حقول قمح لم تُحصد بعد، تظهر بسنابلها الصفراء الشبيهة بكتل الأشواك، وهي تغطّي مسافة كبيرة من الصمت والسكون. كانت جوفانّا تسير وتسير، وهي تشعر أنّ رأسها يحترق تحت منديل الصوف المحروق بالشمس، بينما تنتشر الدموع الصامتة على وجهها. كانت تحاول جاهدة ألّا تسمع أمّها صوتها وهي تبكي، وكانت أمّها تمتطي صهوة الحصان منفرجة الساقين، بينما كانت هي تجلس على ظهره - لكنّ العمة باكيسيا كانت ترى، وكانت العمّة باكيسيا تسمع من وراء ظهرها، وهي لم تعد تستطيع أن تقاوم أكثر من ذلك.

فقالت لها على حين غرّة بينما كانتا تمرّان بين كتل من أزهار الدفلى في قاع الوادي: - اسمعي يا روحي، هل يمكن أن تصنعي لي معروفاً وتكفّي عن البكاء؟ لماذا تبكين؟ ألم تكوني تعلمين بالأمر منذ أشهر كثيرة وكثيرة؟

لكنّ جوفانّا أجهشت ببكاء شديد بدلاً من أن تكفّ عنه. رأت العمّة باكيسيا أنّ رفاق الرحلة كانوا بعيدين جميعهم، فنفّست عن نفسها بصوت منخفض أجشّ سمعته جوفانّا وكأنّه يصدر من بعيد وقد أطبق عليه صمت المكان.

- ألم تكوني تعرفين يا روحي؟ هل من الممكن أنّك حمقاء بهذا الشكل؟ هل قتل هو أم لم يقتل ذلك العقاب الكاسر القاسي القلب؟ أجل، لقد قتله...

فقالت جوفانّا: - لكنّه لم يقل لي هذا.

- لا ينقص فقط إلّا أن يكون مجنوناً ليخبرك أنت أيضاً! فانظري يا روحي، لم ينقص إلّا هذا! كما أنّي كنت من ناحية أخرى على ثقة من أنّه سيسحق في يوم أو آخر ذلك العقاب كما يسحق الدبّور الذي يلدغنا. هل تقولين إنّ

كوستانتينو رجل طيّب؟ لكنّك تعرفين الآن ما هو معنى الحقد. فهل تقتلين أنت أو لا تقتلين الرجال الذين أدانوا كوستانتينو؟ حسناً، لقد قتل هو أيضاً ذلك العقاب وإنّي لأشفق عليه إلى حدّ معيّن، لأنّي أعرف خفايا قلب البشر. لكنّي لم أسامحه ولن أغفر له تهوّره. هذا لا، حبّاً بالله! عنده زوجة وولد، وكان عليه أن يفعل ما فعله بحكمة، إن كان يجب أن يفعل ذلك. أمّا الآن فكفى، عليك أن تقلعي عن هذا. فأنت شابّة يا حبيبتي جوفانّا، يا روحي، تصوّري أنّه قد مات.

فقالت جوفانّا بيأس: - آه، لكنّه لم يمت!

فصاحت العمّة باكيسيا وقد رفعت صوتها: - حسناً، اشنقي نفسك إذاً. هاك إذاً هناك، هل ترين تلك الشجرة؟ اذهبي واشنقي نفسك عليها. لكن لا تسبّبي لي المزيد من العذاب! أنت التي كنت دائماً تعذّبينني. لو أنّك كنت تزوجت من برونتوو ديغاز لكنت فعلت خيراً. لكن لا، أردت ذلك المتسوّل. حسناً، اذهبي الآن واشنقي نفسك.

لم تجب جوفانّا. ففي نهاية الأمر كانت تعتقد هي أيضاً أنّ كوستانتينو مذنب، لكنّها كانت قد غفرت له ذلك منذ فترة طويلة. ولا تجد الآن إزاء آلامها سوى تلك الإدانة، ولم تتمكّن من فهم كيف يمكن لأناس بسيطين أن يتحكّموا بحياة غيرهم من البشر. آه، كم هي تكره سلطتهم الغامضة! إنّها تكرههم كما تكره الأشباح الرهيبة، التي لم يرها مخلوق ولكنّ الجميع يشعرون بوجودها وهي تملأ الليالي العاصفة.

ساروا وساروا صعوداً من الوادي وتسلّقوا على الجبال. مالت الشمس إلى الغروب، وانفتح الأفق، وحنّت السماء، ففقد المشهد وحشته القاسية. كما تساقطت ظلال طويلة من القمم العالية، وانبسطت مثل السجّاد فوق بقع الشجيرات الرماديّة

المنخفضة حيث لا تزال بعض الورود مزهرة، وهبّت نسائم مضمّخة بالروائح البرّيّة. إنّ في ذلك الانتعاش المفاجئ من ظلٍّ وبرودةٍ سلوى للنفوس. اقترب رفيق سفر من المرأتين وبدأ في سرد قصّة لا يُعرف عن أيّ مغامرات غريبة حدثت مع صديق له ذات مرة في بعض المناطق المجاورة، وقد بدت القصّة في مرحلة معيّنة ممتعة للغاية لدرجة أنّ جوفانّا ابتسمت ابتسامة لطيفة.

ساروا وساروا حتّى حلّ الغروب، فأمكن رؤية البحر من أعلى الجبال، وهو ممدود مثل لفافة من أبخرة مزرقّة تنتشر في الأفق الصافي. كانت تلك هي أورلي، بلدة آل إيرا، تقع وراء سهوب وعرة تعلوها شجيرات متينة البنية قادرة على مقاومة رياح الشتاء المجنونة وصواعق البرق، وعلى هضاب كئيبة تنتصب كجزر مجهولة في بحر من النور والوحدة. والبلدة عشّ لأناس برّيّون يشعّون حلاوة وقوّة، تشتهر بالرعي وزراعة القمح وجني العسل. تتوسّط الصخور مراعيها الخضراء، التي ينتشر فيها خلال فصل الربيع نباتات الآس وتفوح روائح النعناع والزعتر، بينما تكاد حقول القمح تحيط بتلك المجموعة الصغيرة من المنازل المبنيّة بالحجر الصخريّ الذي يتلألأ مثل الفضّة المصقولة. كما تظلّل الأشجار الكبيرة أعشاش طائر السمان المبثوثة هنا وهناك بين سنابل القمح. وترى كذلك في البعاد خطوط خضراء من نبات الطرفاء، وغابات من الزعتر والفراولة، ومشاهد هضاب لامتناهية تمتدّ تحت سماء صافية ذات حلاوة حزينة لا توصف. على اليمين، في هذه السماء نفسها، تنتصب مثل تمثال أبي هول هائل، جبال منعزلة تتلوّن بلون أزرق في الصباح، وأرجوانيّ بعد الظهيرة، وقرمزيّ أو برونزيّ عندما يحلّ المساء، وتصطفّ على تلك الجبال غابات تنتعش بالنسور والكواسر.

وصلت مرأتا آل إيرا إلى البلدة في المساء، عندما كان جبل بيلّو، وهو أبو الهول الأكبر، يشعّ بلونه الأرجوانيّ في السماء الرماديّة. كانت البلدة قد بدأت

تظهر كأنّها قرية مهجورة وصامتة بالفعل. بينما كانت حوافر الخيل تقرع على الدروب الخشنة كأنّها تساقط أمطاراً من الحجارة.

تفرّق رفقاء السفر هنا وهناك، بينما وصلت المرأتان بمفردهما إلى بيتهما الصغير في فسحة قرب الطريق. وكان هناك منزل آخر يطلّ عليه، مطليّ باللّون الأبيض. وكانت هناك أيضاً شجرة لوز كبيرة، تميل على الطريق السفليّ الذي يفضي إلى الحقول المجاورة، ويحيط بها جزء من السور الحجريّ الذي يبدأ من زاوية منزل آل إيرا.

كان هنا وهناك في الباحة، تحت شجرة اللوز تلك، أي أمام منزل آل إيرا القاتم وبيت عائلة ديغاز الأبيض، حجارة كبيرة مصفوفة كالمقاعد، جعلت من الفسحة فناء كبيراً مشتركاً بين الجيران.

بمجرّد وصولها انزلقت جوفانّا عن الحصان، ورغم أنّها كانت منهكة ومنحنية الظهر فقد توجّهت مباشرة إلى تلك المرأة من قريباتها التي تركت لها رعاية المنزل والطفل الصغير، فجاءت المرأة لملاقاتها وهي تحمل الطفل بين ذراعيها، فأخذته منها وعانقته وهي تحتضنه، ثمّ عادت لتبكي من جديد، وقد أخفت وجهها وراء كتف الطفل الصغير. لكنّ بكاءها كان هادئاً يشي بيأس عميق. بدا لها أنّ الألم الذي شعرت به في السابق لم يكن شيئاً مقارنة بالألم الذي تشعر به الآن. ولا سيّما بعد أن تعرّف الطفل الصغير عليها، وهو الذي لم يتجاوز خمسة أشهر فقط. كان وجه الطفل خشناً نوعاً ما وعيناه أرجوانيّتان صغيرتان برّاقتان، وضعوا على رأسه قبّعة حمراء صلبة، تحيط بها حوافّ تخفي جبهته الصغيرة. تمسّك الطفل بقوّة شديدة بطرف منديل أمّه وهو يهزّ قدميه ويتفوّه بـ:

- هاه، هاه، هاه...

قالت جوفانّا وهي تبكي: - حبيبي مالتينو، حبيبي مالتيندو، يا حبّي الوحيد في هذه الدنيا، لقد مات أبوك...

فهمت القريبة أنّ كوستانتينو قد أدين بحكم ثقيل فبدأت تبكي هي أيضاً. جاءت العمّة باكيسيا ودفعت جوفانّا إلى داخل البيت ورجت القريبة بمساعدتها في تفريغ حمولة الحصان، وقالت بصوت منخفض:

- هل جننتما بالفعل. هل من حاجة للبكاء بهذا الشكل أمام ذلك البيت الأبيض؟ كأنّي أرى الآن جارتنا مالثينا تلك وهي تمدّ رأسها الشبيه برأس العصفور. آه، كم ستكون مسرورة لمصيبتنا...

قالت القريبة: - لا، فقد جاءت عدّة مرّات لتسأل عن أخبار كوستانتينو وأظهرت حزنها عليه، بل قالت لي إنّها رأت في المنام أنّهم حكموا عليه بالأشغال الشاقّة.

- آه، إنّها آلام الكلب المسعور، إيه، إنّي أعرفها تلك الحيّة السامّة. لا يمكن لها أن تسامحنا. ثمّ أضافت وهي تقترب من الباب والجعبة على كتفها: - معها الحقّ على كلّ، لأنّنا لا نستطيع نحن أيضاً أن نسامحها.

كانت العمّة مارتينا هي صاحبة البيت الأبيض، وأمّ برونتوو ديغاز ذلك الشابّ الذي سبق أن طلب يد جوفانّا ورفض طلبه. كانت امرأة ثريّة لكنّها بخيلة، وقد أخطأ العمّة باكيسيا عندما ظنّت أنّ المرأة قد حقدت عليها، لأنّ العجوز ديغاز لم تبال البتّة بذلك الرفض.

قالت العمّة باكيسيا بعد أن انتهى تفريغ حمولة الحصان: - حسناً، اصنعي لي معروفاً آخر، اذهبي وأعيدي لها الحصان وقولي لها أيضاً إنّ كوستانتينو قد ألقي به في السجن لسبع وعشرين سنة، ثمّ راقبي لي سحنتها.

تناولت القريبة في الحال رسن الحصان الذي كان قد استؤجر من آل ديغاز، وتوجّهت به نحو البيت الأبيض. كان آل ديغاز قد اشتروا هذا البيت قبل

عدّة سنين بالمزاد العلنيّ، بعد أن صودر من تاجر مفلس، وكان بيتاً كبيراً ومريحاً يوجد في مدخله رواق أنيق كانت العمّة تطلق فيه الخنازير والدجاج، رغم أنّه لم يكن بيتاً لرعاة همج مثل آل ديغاز، ويشهد على ذلك الأثاث الخشن الذي وضعوه في الغرف من أسرّة خشبيّة مرتفعة وقاسية، ومن صناديق محفورة بغلاظة ومقاعد وكراسٍ سمجة ثقيلة.

كانت العمّة مارتينا لا تزال تغزل في الرواق، (وكانت تحسن الغزل حتّى في الظلام) عندما جاءتها ماريّا كيكّا بالحصان. كان البيت مقفراً بالكامل، لأنّ برونتوو والخدم كانوا في الحقل، ولم يكن لدى العمّة مارتينا خادمات بيت. كان لها أبناء وبنات آخرون متزوّجون، لكنّها كانت دائما على شقاق معهم بسبب بخلها. وعندما كان يكثر العمل في بيتها كانت تنادي على الجيران، بمن فيهم جوفانّا وأمّها، وتكافئهم بأسوأ طريقة وتقدّم لهم الطعام الفاسد، لكنّ هؤلاء كانوا أناساً فقراء جدّاً يقبلون باليسير.

وضعت المغزل والفلكة الصغيرة على مقعد الرواق، وهي تسأل:

- حسناً، كيف انتهى الأمر؟ كان صوتها رقيقاً يصدر عن أنفها، وعيناها مستديرتان فاتحتان متقاربتان فوق أنف معقوف دقيق، ومازال فمها أحمر نضراً. – هل أنت تبكين يا ماريّا كيكّا؟ لقد رأيت المرأتين البائستين تعودان لكنّي لم أجرؤ على الاقتراب منهما، لأنّي رأيت في المنام هذه الليلة أنّهم أدانوه بالأشغال الشاقّة.

- لقد سبق أن أخبرتني بهذا أيّتها العمّة مالثينا. آه، لا، لقد حكموا عليه بسبع وعشرين سنة...

بدا أنّ الخبر قد أزعج العمّة مارتينا، ليس لأنّها تكره كوستانتينو بل لأنّها كانت تؤمن بأحلامها بما لا شكّ فيه. أخذت رسن الحصان وقالت:

- سأذهب هذا المساء بالذات إلى آل إيرا إذا تمكّنت من ذلك، لكنّي لا أعرف إذا كنت سأستطيع، لأنّي أنتظر شخصاً كان خادماً عند بازيليو ليدّا، ويجب أن يعمل الآن في خدمتي. كان هذا شاهداً، وأظنّ أنّه قد عاد الآن من نوّرو.

- أظنّ ذلك. أجابت الثانية وهي تنصرف. وعندما عادت إلى أقربائها بدأت بالقول إنّ العمّة مارتينا كانت متألّمة جدّاً، وإنّها رأت في المنام إدانة كوستانتينو بالأشغال الشاقّة، وإنّ جاكوبِه ديغاز (وكان ديغاز هذا فقيراً وابن عمّ آل ديغاز الأغنياء) سيعمل في خدمة الجيران.

كانت جوفانّا ترضع ابنها وتتألّم وهي تنظر إليه، فلم ترفع رأسها، بينما أرادت العمّة باكيسيا أن تعرف أشياء كثيرة: فيما إذا كانت العجوز ديغاز وحدها، فيما إذا كانت تغزل، وفيما إذا كانت تغزل في الظلام، الخ.

ثمّ قالت لجوفانّا: - اسمعي إذاً، ربّما جاءت هذا المساء.

لكنّ جوفانّا لم تجب ولم تتحرّك.

فصرخت الأمّ بغضب: - أولا تسمعين يا روحي؟ إنّها ستأتي هذا المساء.

سألت جوفانّا وكأنّها قد أفاقت من أحلامها: - من؟

- مالثينا ديغاز.

- حسناً، فلتذهب إلى الشيطان!

- من يجب أن يذهب إلى الشيطان؟ تساءل صوت مدوّ على الباب. كان ذاك هو إيزيدورو بانِه، صيّاد علق عجوز، من أقرباء آل إيرا، جاء ليقدّم التعازي. كان طويل القامة وله لحية طويلة مصفرّة، وعينان زرقاوان، ويحمل مسبحة حمراء على نطاق خصره، وعصا طويلة عليها صرّة في أعلاها. كان العمّ إيزيدورو يسير هائماً على وجهه مثل الحجّاج، وكان أفقر سكّان أورلي وأكثرهم حكمة. عندما كان يريد أن يجدّف ويشتم كان يقول:

- فليجعلك الله صيّاد علق.

كان من أفضل أصدقاء كوستانتينو، وقد أنشد معه الأناشيد المقدّسة عدّة مرّات في الكنيسة، لذلك فقد طلب آل إيرا منه أن يكون شاهداً في القضيّة، فلا أحد أفضل منه قادر على تعداد صفات المتّهم الحميدة. لكنّه استبعد عن المحكمة، إذ ماذا يمكن لصيّاد علق فقير أن يكون أمام العدالة العظيمة والقويّة؟

عندما رأته جوفانّا رقّ قلبها في الحال وأجهشت في البكاء من جديد.

قال إيزيدورو وهو يسند عصاه على الجدار: - فلتكن إرادة الله. اصبري يا جوفانّا إيرا ولا تقنطي من رحمة الله...

سألته جوفانّا: - هل عرفت؟

- لقد عرفت، ماذا يعني؟ إنّه بريء، وأقول لك إنّ براءته ستظهر قريباً رغم أنّه أدين اليوم.

قالت جوفانّا وهي تهزّ رأسها: - آه يا عمّ إيزيدورو، إنّي لم أعد أؤمن بثقتك. آمنت بها حتّى البارحة، لكنّي لا أستطيع ذلك الآن.

- أنت لست مسيحيّة مستقيمة، وهذه ليست إلّا أفكار باكيسيا إيرا...

كانت العمّة باكيسيا لا تنظر إلى الصيّاد بعين الرضا، وكانت دائماً تخشى أن يعدي بيتها ببعض الحشرات الضارّة. لذلك فقد التفتت نحوه بغضب، وكانت بصدد أن تكيل له الشتائم، عندما دخل رجل آخر ثمّ بعض النساء ثمّ رجال آخرون.

في قليل من الوقت امتلأ البيت بالناس، وشعرت جوفانّا أنّ من واجبها أن تبكي وتصرخ بيأس وقنوط، رغم أنّها كانت منهكة.

كانت العمّة باكيسيا تنتظر جارتها، لكنّ هذه لم تأت، بل جاء جاكوبّه ديغاز، ذلك الخادم الذي كان يجب أن يتعاقد مع العمّة مارتينا. كان هذا رجلاً مرحاً في نحو

الخمسين، ذا مظهر عاديّ مألوف، قصير القامة ونحيل القدّ، حليق اللحية، بلا حواجب ولا شعر، وله عينان صغيرتان مائلتان وتنمّان عن خبث كبير ولونهما غير واضح، بين الأخضر والأصفر. عمل خادماً لدى بازيليو ليدّا لمدّة عشرين سنة، فشهد لصالح كوستانتينو وقصّ عن سوء معاملة بازيليو لابن أخيه، وعن بخل ذلك العجوز الذي كان يضرب الخدم والنساء، وكيف أنّه قبل يوم واحد من موته ضربه هو جاكوبّه ديغاز، بالذات، ضربه بالعصا وركله بقدميه.

قالت له العمّة باكيسيا: - إنّ مالثينا ديغاز تنتظرك، اذهب إليها.

أجاب جاكوبّه: - فليجدع الشيطان أنفها، سأذهب إليها، لكنّي أخشى أن يكون هذا كالسقوط من المقلاة إلى الجمر، فهي أبخل بكثير من ذلك القتيل.

قال صوت مدوّ: - إذا كانت تدفع لك فليس عليك أن تحكم على أفعالها.

فقال جاكوبّه بلهجة مزح ساخرة: - آه، أنت هنا إذاً أيّها العمّ إيزيدورو، حسناً كيف تسير الأعمال عندك؟ هل قُرصت ساقاك كما ينبغي؟

نظر إيزيدورو إلى ساقيه الملفوفتين بالأربطة (وكان هو يغمرهما في الماء الراكد فيتعلّق بهما العلق، وهكذا كان يصيدها)، ثمّ أجاب برقّة:

- هذا يجب ألّا يهمّك. ولكن لا يليق بك أن تشتم المرأة التي ستأكل من خبزها.

- أنا سآكل من خبزي، وليس من خبزها. لكنّ هذا يتعلّق بنا وحدنا. أما أنت يا جوفانّا فعليك أن تتشجعّي، يا للشيطان! هل تذكرين القصّة التي رويتها لك في طريق عودتنا من نوّرو؟ فكوني عاقلة، هيّا، من أجل هذا الصغير. لا، لن يموت كوستانتينو في السجن، أؤكّد لك هذا. أعطني الطفل.

وانحنى عليه، لكنّ الطفل كان نائماً، فنهض وهو يضع إصبعه على شفتيه.

كان يخاطب من أصغر منه بلهجة الاحترام ويناديهم عمّي. فقال: - اصنعي معروفاً يا عمّة باكيسيا وأرسلي ابنتك إلى سريرها. إنّها لم تعد تتحمّل. ثمّ قال للحضور: - فلنفعل شيئاً أيّها الناس الطيّبون، فلننصرف الآن.

بدأ الجميع بالانصراف شيئاً فشيئاً. فتناولت العمّة باكيسيا المقعد الذي كان يجلس عليه إيزيدورو بانه وأخرجته ونظّفته، وعندما عادت أخذت في هزّ جوفانّا التي هوت في نوع من النعاس كي ترسلها إلى سريرها. فتحت الشابّة عينيها الحمراوين البلّورتين، ونهضت والطفل بين ذراعيها.

فأمرتها أمّها: - هيّا إلى النوم.

نظرت إلى الباب وتمتمت:

- آه، إنّه لن يعود، لن يعود أبداً مرّة أخرى. حسبت أنّي أنتظره...

- هيّا إلى النوم، إلى النوم... قالت لها أمّها بصوت يتزايد جشاً وغلظة.

دفعتها، وتناولت السراج النحاسيّ وفتحت الباب. يتألّف البيت من مطبخ يوجد في وسطه الموقد الحجريّ المعتاد وفرن في الزاوية وغرفتان مؤثّثتان بشكل بائس. كان سرير جوفانّا من الخشب، وكان صلباً ومرتفعاً عليه بطانيّة من قماش قطنيّ أحمر. أخذت العمة باكيسيا مالتينو الصغير، الذي كان يبكي قليلاً وهو نائم لا يستيقظ، ووضعته على السرير، وبقيّت تهزّه بيديها حتّى استلقت جوفانّا على فراشها.

غطّتها أمّها بعناية قبل أن تخرج من الغرفة، كانت حسيرة الرأس، وقد أحاطت به جدائلها الجميلة، على غرار نساء روما في قديم الزمان. ما إن خرجت الأمّ حتّى طرحت الصبيّة الغطاء عنها وبدأت تشكو وهي خارج وعيها. كانت

محطّمة بسبب الألم والتعب، نعسانة لكنّها لم تستطع حقّاً أن تنام. خيّمت عليها رؤى ثقيلة أقضّت مضجعها. ثمّ وكأنّ أحزان قلبها لا تكفيها، فإنّها كانت تتعرّض بين الفينة والأخرى لهجمات حادّة من ألم في أسنانها وصدغيها. كانت تشعر كأنّ دفقات ماء مغليّ تنسكب عليها كلّما هاجمتها هذه التشنّجات، لتسبّب لها رعباً غير واضح المعالم، كانت تلك ليلة مروّعة، رهيبة.

تركت العمّة باكيسيا باب غرفتها المجاورة مفتوحاً، فكانت تسمع شكوى جوفانّا وهذيانها وهي توجّه لكوستانتينو كلام هوى أخرق وتهدّد المحلّفين الذين أدانوه بالموت.

بقيت العمّة باكيسيا مستيقظة، كانت أفكارها واضحة، ورؤيتها صافية عن كلّ ما حدث وما كان يجب أن يحدث. وكانت غاضبة على جوفانّا لأنّها تتألّم، لكنّها رغم ذلك، أخذت تبكي في نهاية الأمر، هي أيضاً.

الهيئة العامة السورية للكتاب

- IV -

في مساء اليوم التالي - يوم سبت - عاد برونتوو ديغاز من الريف، وبدأ يتذمّر بمجرّد أن ترجّل عن حصانه. كان يتذمّر دائماً وهو بين أفراد عائلته، بينما كان يظهر في غاية الودّ أمام الغرباء. لكنّه كان في كلّ الأحوال شيطاناً كما يجب، وشابّاً وسيماً، أسود جدّاً ونحيفاً جدّاً، متوسّط الطول، وله لحية حمراء قصيرة مجعّدة. كانت أسنانه جميلة لذلك فإنّه كان يبتسم باستمرار عندما يتحدّث مع النساء ليعرضها عليهنّ.

عندما عاد من الريف في مساء السبت بدأ بالتذمّر لأنّ أمّه لم تشعل الضوء ولم تحضّر العشاء، ولربّما لم يكن مخطئاً، فهو في نهاية الأمر عامل، وعندما يعود إلى بلدته في مساء السبت بعد أسبوع من التعب كان يجد بيته دائماً مظلماً ووسخاً مثل بيوت المتسوّلين.

قال وهو يفرّغ حمولة الحصان: - إيه، إيه، هذا البيت يبدو مثل بيت إيزيدورو بانه. أشعلوا الضوء، على الأقلّ، فالمرء لا يرى شيئاً هنا حتّى لو أراد أن يشتم. ثمّ سأل: - ماذا هناك لنأكل؟

قالت العمّة مارتينا: - حسناً، لدينا بيض، وبعض الدهن، فالصبر يا بنيّ. هل تعلم أنّه قد حكم على كوستانتينو ليدّا بالسجن لثلاثين سنة؟

- لسبع وعشرون. حسناً، هذا هو البيض؟ لكنّ ذلك الدهن فاسد، لماذا لا ترمينه إلى الدجاج؟ إلى الدجاج! كرّر قوله وأظهر أسنانه الجميلة من شدّة الغضب.

أجابت العمّة مارتينا بهدوء:

- لن يأكله الدجاج. أجل، لسبع وعشرين سنة. آه، تلك فترة طويلة سبع وعشرون سنة! أنا رأيت في المنام أنّهم حكموا عليه بالأشغال الشاقّة. - هل زرت هاتين المرأتين؟ ثمّ أضاف متسائلاً: - آه! لابدّ أنّهما أصبحتا الآن سعيدتين بتلك الزيجة، هاتان المتسوّلتان القذرتان. وهكذا فقد غضب برونتوو أشدّ الغضب عندما أخبرته أمّه قائلة إنّها ذهبت إلى هناك، وإنّ جوفانّا كانت يائسة تنتف شعرها، وإنّ العمّة باكيسيا أفهمتها أنّها ندمت لأنّها لم تقض على ابنتها غرقاً قبل أن تقبل بتلك الزيجة.

- ولماذا ذهبت أنت؟ ما يهمّك أنت من أمر ذلك القمل الجائع الشره؟

- آه يا بنيّ، ألا تعرف أنت معنى الحسنى في المسيحيّة! (وكانت العمّة باكيسيا تحسب أنّها محسنة)، جاء أيضاً الخوريّ إلياس هذا الصباح، أجل لقد جاء إليها ليواسيها. وتريد جوفانّا أخذ الطفل إلى نوّرو ليراه كوستانتينو قبل أن يرحل، لكنّي أرى هذا جنوناً، بوجود تلك الشمس، لكنّ الخوري إلياس رأى أن تأخذه معها، بل بدا كأنّه سيجهش بالبكاء.

- وماذا يعرف هو عن الأطفال؟ فهو مثله مثل جميع الرهبان رجل عقيم. قال برونتوو الذي كان يكره الرهبان لأنّ عمّه الذي كان خوريّ البلد قبل أن يرسلوا إليها الخوريّ إلياس بورتولو، قد أوصى بكلّ أملاكه لأحد المشافي. كانت العمّة مارتينا أيضاً تكنّ له شيئاً من الحقد لهذا السبب، لكنّها، كانت، كثعلب ماكر، تجيد التظاهر والتصنّع، فكانت ترسم إشارة الصليب كلّما تكلّم برونتوو بالسوء عن الرهبان.

لذلك فقد صلّبت هذه المرّة أيضاً وهي تزجره: - ماذا تقول أيّها القرد، أنت لا تعرف حتّى موضع قدميك. فالخوري إلياس قدّيس. ويا للمصيبة إذا سمعك وأنت تتحدّث بالسوء! إنّ لديه الكتب المقدّسة ويمكنه أن يصبّ لعنته على حقولنا فينتشر فيها الجراد ويموت النحل.

فضحك برونتوو منها: - إنّه قدّيس عظيم إذاً! ثمّ أصرّ ليعرف تفاصيل أكثر عن قنوط آل إيرا.

- بماذا كانت تصرخ جوفانّا؟ وماذا قالت العمّة باكيسيا، تلك البومة العجوز؟

حسناً، كانت جوفانّا تبكي بكاء تتشقّق له الحجارة، وكانت العمة باكيسيا غارقة في يأسها، لأنّ عليها، فيما عليها، أن تجابه نفقات المحامي والمصاريف القانونيّة التي قد تطردها وهي عارية حتّى من بيتها.

كان الشابّ يسمع باهتمام وهدوء، ويعرض أسنانه الطفوليّة الجميلة. لكنّه كان بكلّ بساطة شرساً في سروره.

وأضافت العمّة مارتينا: - حسناً، سيأتي بعد قليل جاكوبّه ديغاز، ويريد أن يتحدّث إليك. إنّه يريد أن يبدأ عمله غداً، لكنّي قلت له أن ينتظر حتّى الاثنين، لأنّ الغد هو يوم عطلة، فلماذا يجب أن يأكل دون مقابل.

- آه، أيّها القدّيس قسطنطين الرائع، كم أنت بخيلة ضيّقة يا أمّي...

- آه، أنت ما زلت طفلاً! لماذا الإسراف؟ الحياة طويلة والعيش له مستلزماته!

- وكيف ستتدبّر تين المرأتين أمورهما إذاً؟ سأل برونتوو بعد شيء من الصمت وهو يجلس أمام سلّة من الآس وضعت فيها العمّة مارتينا البيض والخبز.

- حسنًا، ستذهبان للبحث عن القواقع! - أجابت العمّة مارتينا بسخرية. وكانت قد استعادت المغزل وبدأت تغزل بجوار الباب المفتوح. – أراك مهتمّاً جدّاً بتين المرأتين يا برونتوو ديغاز!

ساد الصمت. فسمع دوران المغزل وطقطقة أسنان برونتوو القويّة وهو يمضغ الخبز القاسي. أمّا في الخارج، ما وراء الرواق، فكان يسمع عرير صراصير الليل، ثمّ ووسط سكون الشجيرات وظلام الليل الناشئ، كان يسمع نعيق البوم الحزين.

صبّ برونتوو النبيذ، وأخذ الكأس وفتح فمه، لكن ليس ليشرب. كان يريد أن يقول شيئاً لأمّه، لكنّه لم يستطع. شرب، وعلقت بضع قطرات على لحيته الحمراء فنظّفها بظهر يده، ثمّ خفض بصره وفتح فمه من جديد ليقول شيئاً ما. لكنّه لم يستطع قول شيء هذه المرّة أيضاً.

لكن ها هي قرقعة حذاء في الفسحة. اقتربت العمّة مارتينا من ابنها وهي تغزل، وقالت إنّ جاكوبّه ديغاز آت، ثمّ أخذت النبيذ والسلّة وخبّأتهما في الخزانة.

لاحظ جاكوبّه وهو يدخل حركة العجوز وعرف أنّها قد خبّأت النبيذ كيلا تضيّفه كأساً منه، لكنّه كان يتفهّم أمور الدنيا (كما كان يدّعي) ولن يستاء من هذا، لذلك فقد تقدّم وهو يبتسم بسرور.

قال وهو يضع إصبعه على أنفه: - أراهن، أراهن أنّكما كنتما تتحدّثان عنّي.

- لا، كنّا نتحدّث عن كوستانتينو ليدّا، ذلك البائس.

- آه، أجل، يا له من بائس! قال جاكوبّه وهو يستعيد صرامته. مع أنّه بريء! بريء براءة الشمس! لا أحد مثلي يمكن له أن يؤكّد الأمر.

أخذ برونتوو وضعيّته وصالب قدميه وهو يميل قليلاً إلى الوراء ويعرض أسنانه كما يفعل مع النساء.

قال بصوت من أنفه: - الآراء مختلفة! فأمّي مثلاً رأت في المنام أنّهم حكموا عليه بالإعدام.

- أوه، لا، ماذا تقول يا برونتوو، بالأشغال الشاقّة!

- حسناً، الأمر نفسه. لكن لنتكلّم في شؤوننا.

- لنتكلّم في شؤوننا – قال جاكوبّه وهو يصالب قدميه أيضاً.

تكلّموا واتّفقوا على أمور خدمة جاكوبّه، ثمّ خرج الرجلان سويّة، فقاد برونتوو الخادم الجديد إلى الحانة. وبما أنّه لم يكن بخيلاً، ولم يكن يقدّم لمن يزوره في البيت كأس نبيذ كيلا يغضب أمّه، فإنّه كان يأخذ الزائر إلى الحانة حيث يظهر كلّ روعته. وقد قدّم في ذلك المساء كثيراً من الشراب لجاكوبّه وشرب هو أيضاً كثيراً من الشراب حتّى ثملا.

خرجا بعد ذلك وسارا على الطريق المظلمة والساكنة، حيث كانت تفوح عطور حادّة من الحقول القاحلة، واستأنفا الحديث عن كوستانتينو، فقال برونتوو بقسوة إنّه مسرور بإدانته.

فصرخ جاكوبّه: - اذهب إلى الشيطان! إنّك رجل بلا قلب.

- بالفعل، أنا رجل بلا قلب.

- هل تسرّ أنت لموت إنسان مثلك، بل بأمر هو أسوأ من الموت، لمجرّد أنّ جوفانّا رفضتك؟

- هو لم يمت، وهو ليس إنسان مثلي، وجوفانّا... إيرا أنا الذي لم أردها. لو أردتها فإنّها كانت ستلعق أسفل حذائي.

- بم! انتبه، فأنت ستسقط يا طائر الربيع الصغير. أنت كذّاب كخادمة.

- أنا؟ أنا... لست... لست... خادمة! صرخ برونتوو بكلام متقطّع. – إذا كرّرت مثل هذا القول فسآخذ برأسك وأقتلك.

فصرخ جاكوبّه بدوره: - بم! أخبرتك أنّك ستسقط على الأرض يا طائر الربيع الصغير.

وارتفعت أصواتهما في الليل الساكن. لكنّهما ما لبثا أن صمتا فعاد السكون من جديد. في البعاد، تحت بريق النجوم، التي تتوّج بأزهارها الذهبيّة حوافّ الجبال السوداء الشبيهة بأبي هول ضخم، كان البوم يردّد دائماً نعيقه الحزين.

أخذ برونتوو يبكي فجأة، بكاء السكارى الغريب، بلا دموع ولا شهيق.

- والآن ماذا حلّ بك؟ سأله الثاني بصوت منخفض. – هل سكرت؟

- أجل، أنا سكران. سكران من السمّ، فلتمت غرقاً، يا نفايات السجون!

استاء الثاني، لأنّه لم يدخل السجن البتّة، بل لم تكتب بحقّه أيّ مخالفة، فأخذته رعشة غامضة. ثمّ قال بصوت ما زال منخفضاً:

- هل جننت أنت؟ ماذا حلّ بك؟ لماذا تتكلّم بهذا الشكل؟ ماذا فعلت أنا لك؟

هنا أخذ الثاني ينفّس عن نفسه، فاشتكى كأنّ عضواً من أعضائه يؤلمه، وقال إنّه يحبّ جوفانّا كالمجنون، وإنّه كان يتوسّل دائماً إلى الشيطان كي يدان كوستانتينو.

- فليأخذ الشيطان روحي... لا يهمّني هذا في شيء، فأنا لا أؤمن به في كلّ الأحوال! ثمّ قال وهو يضحك ضحكة صارخة طفوليّة تعبّر عن يأس أشدّ ممّا عبّر عنه بكاؤه قبل قليل: - أنا سأتزوّج بجوفانّا.

شعر جاكوبّه بالدهشة، لكنّه أظهر دهشة أعظم من تلك التي كان يشعر بالفعل بها.

وقال: - أنا مثل شخص غريق! - وكيف ولماذا وماذا يعني هذا كلّه؟ - وكيف يمكن لك أن تتزوّج بجوفانّا؟

- ستطلب الطلاق، هذا كلّ شيء. وأنت تعلم أنّ هناك قانوناً يتيح للمرأة التي يحكم على زوجها بالسجن لسنين طويلة أن تتزوّج من زوج آخر.

كان جاكوبّه قد سمع كلاماً عن هذا القانون، لكنّه لم تحدث في أورلي أيّ حال طلاق قانونيّ، ناهيك عن زواج جديد. ومع ذلك فقد قال مباشرة كيلا يظهر بمظهر الغبيّ:

- آه، أجل، أعرف ذلك. لكنّ هذه خطيئة مميتة، ولن تقبل جوفانّا بذلك.

- وهذا ما يؤلمني يا جاكوبّه ديغاز! هل بوسعك أن تكلّمها أنت عن الأمر؟ أجل كلّمها غداً.

أجل، غداً بالذات! كم أنت غبيّ يا برونتوو ديغاز. أنت غنيّ لكنّك غبيّ كاليراعة. لا بل أغبى منها. أنت الذي تستطيع أن تتزوّج بامرأة عذراء، غنيّة، طفلة مثل وردة تقطر بالندى، تريد الآن الزواج بتلك المرأة. هذا ما يثير ضحكاً يدوم سبعة أشهر...

فقال برونتوو ديغاز وقد ثار غضبه من جديد: - حسناً، فلتضحك أنت إذاً حتّى تنشقّ مثل ثمرة الرمّان! فأنا سأتزوّجها. ولا أحد مثلها بين النساء. أنا، ولتعرف هذا، سأتزوّجها!

فأجاب الآخر ضاحكاً: - تزوّجها إذاً يا طائر الربيع الصغير! فأخذ برونتوو يضحك أيضاً، وضحكا على طول مقطع طويل من الطريق، حتّى قابلا رجلاً طويل القامة يحمل عصا طويلة متوجّهاً نحوهما بخطا هادئة.

فسأله جاكوبّه: - أيّها العمّ إيزيدورو بانِه، هل كان الصيد موفّقاً؟ هل قُرصت ساقاك كما ينبغي؟

فأجاب الثاني وهو يقترب: - عسى أن تصبح أنت أيضاً صيّاد علق، أشتمّ رائحة الغرابّا![1] لا بدّ أنّه حطّموا برميلاً منها في هذه الأنحاء!

فسأله برونتوو مهدّداً: - هل تعني أنّنا ثملنا؟ أنت لا تسكر لأنّه ليس لديك ما تسكر به، فابتعد وإلّا قتلتك. سأحطّمك كأنّك ضفدع...

ضحك العجوز ضحكة هادئة لطيفة ثمّ ابتعد.

---

(١) غرابّا grappa - مشروب إيطالي مميّز مصنوع من كعكة العنب التي تتخلّف عن إنتاج النبيذ. وقد عرفت الغرابّا منذ العصور الوسطى لكنّها بعثت من جديد في أوائل القرن العشرين. (م) عن ويكيبيديا.

قال جاكوبّه بصوت منخفض: - غبيّ. – عساه أن يعمل مراسلاً لك، لأنّه صديق جوفانّا.

فالتفت إليه برونتوو وهو يهزّ يديه ويصرخ عليه: - حسناً، تعال إلى هنا، قلت لك أن تأتي إلى هنا. فلتعضّك الكلاب يا إيزيدورو بانِه!

ضحك من هذا التقريع لكنّ إيزيدورو لم يتوقّف.

فصرخ السكران من جديد وهو يتلعثم: - ماذا إذاً! قلت لك أن تأتي! آه، ألا تريد أن تأتي أيّها الضفدع الصغير؟ قلت لك...

لكنّ إيزيدورو ابتعد بخطا هادئة.

فتمتم جاكوبّه قائلاً: - لا تخاطبه بهذا الشكل، ما هذه الطريقة؟

عندها غيّر برونتوو طريقته.

- تعال يا وردتي الحلوة! تعال فلديّ ما أقوله لك. أخبر تلك المرأة صديقتك... حسناً، أخبر جوفانّا أنّي سأتزوّجها إذا تطلّقت.

توقّف العجوز عندها فجأة، والتفت ونادى بصوت مدوّ:

- جاكوبّه ديغاز!

فسأله الخادم بصوت ساخر: - ماذا تريد يا روحي؟

أجاب إيزيدورو بلهجة أمر حازمة: - احمله على الســـكو... ت! لم يعرف جاكوبّه سبب ثورة مشاعره عند سماع ذلك الصوت وتلك الكلمتين، وسرعان ما أخذ سيّده من ذراعه وسحبه بعيداً، وهو يهمهم:

- أجل، إنّك أحمق. ما هذه الأساليب؟ إنّك تتصرف كما يتصرّف الكبش، يا طائر الربيع...

- أو لم تطلب أنت ذلك؟

- أنا؟ أنت مهزوز، فأنا لست مجنوناً.

وذهبا سويّة وهما يترنّحان: وجدا في رواق آل ديغاز العمّة مارتينا وهي لا تزال تغزل في الظلام. سرعان ما أدركت أنّ ابنها سكران، لكنّها لم تقل له شيئاً، لأنّها تعرف أنّه سيستشيط غضباً إذا عارضته وهو في تلك الحال، لكنّها عندما طلب منها برونتوو النبيذ، أجابت أن لا شيء منه لديها.

- آه، ألا يوجد نبيذ في بيت ديغاز، أغنى بيت في البلدة؟ كم أنت بخيلة يا أمّي! – ثمّ أخذ يصرخ: - لن أثير فضائح، لا، لكنّي سأتزوّج جوفانّا.

فقالت العمّة مارتينا كي تهدّئه: - أجل، أجل، ستتزوّجها، لكن عليك أن تنام الآن وألّا تصرخ، لأنّها سترفضك إذا سمعتك.

صمت، لكنّه أراد من جاكوبّه أن يمدّ على الأرض حصيرتين من قشّ الخيزران، وقال بعدما رقد إنّه يريد أن يستبقي الخادم قربه. تركته العمّة مارتينا يفعل ما يشاء كيلا تثير غضبه، وهكذا بدأ جاكوبّه عمله مساء السبت عوضاً عن الاثنين.

الهيئة العامة السورية للكتاب

- V -

بعد حوالي خمسة عشر يوماً، اجتمعت في صباح يوم أحد شخصيّاتنا هذه كلّها في القدّاس الذي أقامه الخوريّ إلياس. ويقول أهل البلدة عن هذا الخوريّ إنّه يظهر وهو يقيم القدّاس كأنّه إنسان بجناحين.

لم يغب إلّا جوفانّا، وقد غابت لسببين: أوّلاً لأنّ مصيبتها تفرض عليها أسى يجبرها على ألّا تظهر خارج البيت ما لم يكن هناك عمل يطلب منها ذلك. ثمّ لأنّها أصيبت بوهن وذهول يمنعانها عن الحراك والخروج والعمل والصلاة. كما أنّها لم تكن البتّة مسيحيّة متديّنة ومواظبة، سوى أنّها نذرت قبل محاكمة سيباستيانو بعض النذور، كأن تذهب مشياً وهي حافية القدمين وبشعر محلول إلى كنيسة بعيدة على الجبل، ثمّ إذا أطلق سراح كوستانتينو، فعليها حينئذ أن تزحف على ركبتيها من المكان الذي ترى فيه الكنيسة إلى مبنى الكنيسة بالذات، أي حوالي كيلومترين تقريباً.

لكنّها الآن لا تصلّي، لا تتكلّم، لا تأكل. بل إنّها لم تعد تبالي بالطفل، فكان على العمّة باكيسيا أن تغذّيه بالحليب والخبز المعلوك كي يقوى. وقد قال البعض إنّ جوفانّا قد تجنّ، وفي الواقع فهي عندما تخرج من حال الذهول، حيث تجثم لساعات وساعات في الزاوية وعيناها البلّوريتان مثبّتتان في الفراغ، فإنّ غضبها كان يثور، فتمزّق شعرها، وتصرخ بكلمات لا معنى لها. وهي لم تعد، بعد لقائها الأخير بكوستانتينو، حين أخذت الطفل معها، تفكّر بأيّ شيء سوى بالمشهد الذي حدث وقتئذ، فكانت تكرّر ذلك على فترات، بلهجة اللاوعي الذي يميّز المهوّسين.

- كان هناك وكان يضحك. كان متأثّراً وكان يضحك. خلف الشبك. تشبّث مالثنيدّو بالشبك فلمس هو يديه الصغيرتين. وضحك. يا قلبي! يا قلبي!

لا تضحك بهذا الشكل، فأنت تؤلمني، وأنا أعرف أنّ ضحكتك هذه هي ضحكة الموتى. وكان الحرس واقفين هناك مثل سحرة أشرار. كان هؤلاء الحرس بشراً طيّبين قبل ذلك، لكنّه اصبحوا بعد إدانة كوستانتينو، أناساً سيّئين. شرّيرين مثل الكلاب. خاف مالثينو وبكى عندما رآهم. بينما كان أبوه يضحك، هل تفهمون؟ كان الطفل البريء يبكي: لأنّه فهم أنّ أباه قد أدين وكان يبكي. يا قلبي! يا قلبي!

وكانت العمّة باكيسيا تتألّم، ولم تعد تتحمّل، فكانت تقول:

- يبدو أنّك لست يا جوفانّا في الحقيقة إلّا طفلة بعمر سنتين، يا روحي. إنّ ابنك أعقل منك يا حمقاء.

وكانت تهدّدها حتّى بالضرب، لكنّ كلّ شيء، من الترجّي إلى المواساة إلى التهديد، كان كلّ شيء يبدو عقيماً بلا فائدة.

وردت في غضون ذلك، أنباء من نوّرو مفادها أنّ كوستانتينو قد نقل بانتظار الاستئناف إلى سجون كالياري. ثمّ جاءت منه رسالة قصيرة وحزينة. قال إنّ رحلته كانت جيّدة، لكنّه يكاد يختنق من شدّة الحرّ في كالياري، وإنّ بعض الحشرات الحمراء وغير ذلك من الألوان كانت تؤرّقه ليل نهار. كما أرسل قبلاته إلى الطفل، وتوسّل إلى جوفانّا أن تربّي مارتينيدو على خوف الله القدّوس، وأرسل تحيّاته إلى صديقه إيزيدورو أيضاً.

بعد أن انتهى القدّاس انتظرت العمّة باكيسيا أن ينتهي الصيّاد البائس من إنشاد الترانيم بصوته الرقيق لتبلّغه تحيّات كوستانتينو.

بقي الخوريّ إلياس يصلّي راكعاً على درج المذبح، وكان وجهه شاحباً في نشوته، وقد واصل إيزيدورو الإنشاد، بينما استمرّ الناس في الانصراف.

مرّت أمام العمّة باكيسيا العمّة مارتينا بخطواتها المتباهية الشبيهة بمشية فرس عجوز بقيت برّيّة: مرّ برونتوو، بملابسه الجديدة، وشعره البرّاق بسبب

الزيوت (وهو رغم أنّه يتحدّث بالسوء عن الكهنة، فهو يذهب في أيّام الأحد إلى القدّاس) ومرّ كذلك جاكوبّه، يرتدي سروالاً من الكتّان الجديد، الخشن، الذي لم يغسل بعد، وما زالت تفوح منه روائح الدكّان.

واصل إيزيدورو الإنشاد.

كادت الكنيسة أن تصبح فارغة من الناس، لكنّه بقي ينشد. كان صوته الرنّان يتردّد بين الجدران البيضاء المتربة، تحت سقف من الأعمدة والقصب، وبين المذابح المتواضعة، المغطّاة بأغطية خشنة، مزيّنة بأزهار من ورق، يحدّق بها قدّيسون حزينون من خشب ملوّن.

عندما انتهى العمّ إيزيدورو من الغناء لم يكن هناك أحد في الكنيسة سوى الخوريّ وصبيّ بدأ ينتهي من إطفاء الأضواء، والعمّة باكيسيا وعجوز أعمى.

توجّب على إيزيدورو أن يكرّر وحده لازمة النشيد، ثمّ نهض ووضع الجرس الذي كان يستعمله للإشارة إلى حبّات المسبحة، وتوجّه نحو الباب، حيث كانت العمّة باكيسيا تنتظره، فخرجا سويّة وأبلغته تحيّات كوستانتينو. ثمّ طلبت منه معروفاً بأن يقول للخوريّ إلياس أن يتواضع ويأتي لزيارة جوفانّا ويعظها عسى أن ينقذها من قنوطها.

وعد بذلك فانصرفت العمّة باكيسيا، وقد لحق بها في الطريق جاكوبّه ديغاز الذي بقي في ساحة الكنيسة العالية وهو ينظر إلى القرية وإلى الحقول الصفراء المغمورة بالشمس.

سأل الخادم العمّة باكيسيا: - كيف الأحوال؟

- آه، يا إلهي لسنا بخير رغم أنّنا لسنا مرضى! وأنت كيف حالك مع أسيادك الجدد؟

- آه، سبق أن أخبرتك أنّي انتقلت من المقلاة إلى الجمر، فالعجوز بخيلة مثل الشياطين، وتريد أن تسقط أحشائي من كثرة العمل، ولا تسمح لي بالذهاب إلى البلد إلّا لحضور القدّاس كلّ خمسة عشر يوماً.

- والسيّد؟

- آه، السيّد الصغير؟ إنّه حيوان، هذا كلّ شيء!

- ماذا تقول أنت يا جاكوبّه؟

- حسناً، قلت الحقيقة، إنّه عصفور الربيع. يغضب مثل الكلاب لأتفه الأسباب، يسكر، وهو كذّاب مثل الطقس. حسناً، لابدّ أنّ إيزيدورو بانِه قد أخبرك...

سكت وتوقّف، فحدّقت فيه العمّة باكيسيا بعينيها الخضراوين، وكانت تفكّر أنّه إذا تكلّم بالسوء عن سيّده فذلك لغاية في نفسه.

فاستأنف: - حسناً، لابدّ أنّ إيزيدورو بانِه قد أخبرك... أجل، بكلّ تأكيد أنّه أخبرك... أنّ برونتوو كان سكران ذلك المساء. وأنّه أخذ هنا، أجل هنا بالضبط، أخذ يصرخ: «قل لجوفانّا إيرا أنّها إذا طلبت الطلاق، فإنّي سأتزوّجها!». إنّه وحش، وحش بالضبط! إنّه يشرب الغرابّا بالبراميل.

لم تفهم العمّة باكيسيا من كلّ هذا إلّا قوله «إذا تطلّقت جوفانّا إيرا، فإنّي سأتزوّجها!»، فبرقت عيناها الخضراوين. وقالت بكبرياء: وأنت يا جاكوبّه، ألا تريد ذلك؟

- أنا؟ وما يهمّني من أمر عصفور الربيع؟ لكن عليك أنت أيّتها الحدأة أن تخجلي من قول هذه الأشياء ولم يمض على ذلك أسبوعان...

فصاحت العجوز مستاءة: - أنا لست حدأة...

فضحك الثاني، لكنّ المرأة فهمت أنّ الغضب قد صدّعه.

قال جاكوبّه: - انتظري الاستئناف على الأقلّ، ويمكن لك بعد ذلك أن تلتهمي كوستانتينو كما يلتهم الحمل البريء، التهميه كما تشائين، لكنّ جوفانّا ستتزوّج ببرميل من الغرابّا، كما أنّه ما دامت مارتينا ديغاز على قيد الحياة فإنّك ستموتين أنت من الجوع بأسوأ ممّا كنت...

بدأت العمّة باكيسيا تصيح: - آه، أيّها الرأس الأصلع... لكنّ الثاني ابتعد بسرعة، وكان عليها أن تكتفي بقذف كومة من الشتائم خلفه.

ليس أنّها كانت تفكّر، لا سمح الله، بتطليق ابنتها بينما ما زال البائس كوستانتينو بانتظار الاستئناف وهو سجين في فرن حارق تهاجمه الحشرات القذرة، لا... لماذا تكلّم ذلك الخادم الجبان إذاً بتلك الطريقة؟ وما يهمّه هو من سيّده؟ وضعت العمّة باكيسيا في ذهنها أنّ جوفانّا تروق لذلك الغراب المنتوف، ثم دخلت إلى بيتها وهي تلوك تلك الأفكار الخبيثة.

أرادت أن تخبر جوفانّا بكلّ شيء، لكنّها رأتها لأوّل مرّة منذ خمسة عشر يوماً وهي تغتسل وتمشّط بهدوء شعرها الطويل الأشعث الذي كان يتساقط بكميات كبيرة، فلم تجرؤ على قول شيء.

الهيئة العامة السورية للكتاب

- VI -

مرّت الأيّام: وجاء الخريف، وجاءت الشتاء. وكما يحدث دائماً، فقد رُفض استئناف كوستانتينو. فقيّدوه ذات ليلة بسلسلة واحدة مع رجل لا يعرفه، وسلكوه ضمن طابور من رجال آخرين كانوا يمشون مثاني صامتين بثياب من قماش فظّ مثل وحوش صارت وديعة بعدما روّضتها قوى خفيّة لا ترى. مشوا وذهبوا. إلى أين؟ لا يعرفون إلى أين. كانوا صامتين ولا يعرفون سبباً لصمتهم. أخذوهم إلى البحر، ووضعوهم على متن باخرة سوداء طويلة، وحبسوهم في قفص. دائماً مثل الوحوش. بدا البحر كأنّه قدّ من كريستال أخضر غامق بينما كانت تمض حوله مصابيح من ياقوت وزمرّد بأعمدة أضوائها التي تمتدّ إلى مسافات بعيدة، بعد أن تتسلّل عبر الأمواج كأنّها ستائر فسفوريّة من لآلئ خضراء وحمراء قانية. أمّا في الأعلى، فوق هالة البحر اللامتناهية، فقد انحنت السماء الزرقاء العميقة كأنّها واد شاسع من صمت مطبق، وكانت كلّها مزهرة بالنجوم الصفراء. لم يشعر كوستانتينو في البداية بأيّ انطباع قد يقزّز نفسه. كان متوجّهاً نحو المجهول، نحو مصيره القاسي. ولكنّه كان واثقاً في أعماق قلبه أنّ سراحه سيطلق عمّا قريب، ولم ييأس أبداً. بل إنّ غدوّ طاقم الباخرة ورواحهم، وصليل السلاسل، وتمايل الباخرة في البداية، ولّدت كلّها في نفسه انطباعاً مفعماً بفضول صبيانيّ. لم يسبق له أن سافر أبداً في البحر. لكنّه كان يرى في صباه ذلك الخطّ الرماديّ الذي يميّز في الأفق البحرَ الأبيض المتوسط، ويلامس أحياناً جناح أشرعة الزوارق، كان عندئذ يقف بين الشجيرات البريّة على جبال موطنه، ليحلم أنّه يعبر تلك الأمواج البعيدة نحو بلدان مجهولة، نحو مدن ذهبيّة في القارّة. كان يجيد القراءة والكتابة. وقد رسم

على كتابه لوحة لكنيسة القدّيس بطرس في الفاتيكان في روما، بل كان هناك في القسم المتعلّق بالتاريخ المقدّس نقش يمثّل القدس القديمة.

آه، القدس، نحو القدس، التي كانت في ظنّه أكبر مدن العالم وأجملها، كان يودّ لو توجّه نحو القدس عندما كان يقف منتصباً بين شجيرات جبل بيلّو وهو يرنو نحو الخطّ الرماديّ الذي يميّز في الأفق البحرَ الأبيض المتوسط. ها هو الآن يمخر عباب البحر، لكن كم هو مختلف هذا العبور عمّا كان في أحلامه! ومع هذا فقد كان ظنّه عن القدس يجذب نفسه بشكل يجعله سعيداً حتّى لو أخذوه إليها ليقضي محكوميّته، أي وهو على هذه الحال، مداناً ومقيّداً بالسلاسل.

كانت الباخرة تتأرجح، تتماوج، تمخر عباب البحر وسط صخب لا ينقطع، مثل خرير السيول. وكان المدانون يثرثرون فيما بينهم، وكان بعضهم يمزح ويضحك.

أمّا كوستانتينو فقد غفا وأخذ يحلم بما يحلم بها عادة، في أنّه في بيته، وقد أطلقوا سراحه منذ قليل – كان يحلم – وأنّه عاد إلى البيت من غير أن يخبر جوفانّا بشيء عسى أن يكون ذلك مفاجأة لها من سعادة لا توصف. كان يقول: - لكنّ هذا حلم، هذا حلم! وكانت نفقات المحاكمة قد أخلت البيت من كلّ شيء، كلّ شيء، حتّى السرير. لكن ليس للأمر أيّ أهميّة. فكلّ خيرات الدنيا هي لا شيء أمام نعمة الحريّة وسعادة العيش قرب جوفانّا ومالثينيدّو. لكنّ كوستانتينو كان منهكاً، متعباً، فهجع واستلقى في مهد الطفل، فكان المهد يتأرجح من تلقاء نفسه، أقوى فأقوى، دائماً أقوى فأقوى. فكانت جوفانّا تضحك وتقول: احذر من السقوط، يا عزيزي كوستانتينو، يا حمَلي الغالي! وكان المهد يتأرجح، أقوى فأقوى من جديد.

في البداية أخذ هو أيضاً في الضحك، لكنّه شعر بالألم فجأة، شعر بالدوّار وسقط من المهد بعدما مال حتّى لامس الأرض. فاستيقظ بسبب دوّار البحر.

كان البحر هائجاً، وكانت الباخرة تنزل وتصعد فوق جبال من الماء. بل كان الماء يصل إلى ما فوق ركّاب الدرجة الثالثة.

كان جميع المدانين يعانون: لكنّ بعضهم ما زال يحاول أن يمزح، والبعض الآخر يشتم، بينما كان أحدهم يئنّ كالأطفال، وهو صديق كوستانتينو، رجل ذو وجه أصفر رقيق للغاية.

كان يقول وهو خائف يلهث برأسه المتدلّي: - آه، كنت أحلم أنّي في بيتي، فلقد حان الوقت... لقد حان الوقت! ارحمني أيّها القدّيس فرانشيسكو الجميل...

شعر كوستانتينو بالشفقة على صديقه، رغم ما به من حزن في قلبه وألم في جسده.

- تحلّ بالصبر أيّها الأخ العزيز، أنا أيضاً رأيت في المنام أنّي في البيت...

فقال رجل آخر: - أشعر كأنّ روحي تهرب من جسدي، أيّ شيطان حلّ في هذه الباخرة؟ يبدو وكأنّه يرقص عليها رقصة سردينيا! فامتلك البعض الشجاعة على أن يضحكوا من هذا التشبيه.

تتابعت العاصفة، وبدا لكوستانتينو أحياناً أنّه يموت، وكان يشعر بالخوف من الموت رغم ما كان يشعر به من ألم عميق من هذه الحياة.

بدت روحه مشبعة بالسائل المرّ الذي كان يطرده من بطنه المتشنّج. لم يسبق له أن شعر بمثل هذا إلياس حتى عندما سمع الحكم عليه. وهكذا فقد بدأ هو أيضاً في التذمّر وتوجيه الشتائم، وهو يشدّ قبضتيه ويلوي أصابع قدميه المتجمّدة.

- عسى أن تموت بهذه الطريقة التي أموت أنا فيها، أيّها الكلب القاتل الذي حطّمتني... – هكذا كان يقول بينما يقطر من عينيه السائل المرّ نفسه الذي كان يغمر فمه ونفسه كلّها.

توقّفت العاصفة قرابة الفجر، لكنّ كوستانتينو لم يهدأ رغم زوال آلامه، بدا له أنّهم قد ضربوه حتّى الموت، وكان يرتجف من البرد والوهن والخوف.

لم تتوقف الباخرة أبداً: آه، لو أنّها تتوقّف للحظة واحدة على الأقل! فقد بدا لكوستانتينو أنّ لحظة هدنة واحدة ستكفيه كي يستعيد قواه المفقودة. لكنّ ذلك التقدّم المتواصل، ذلك التدحرج المستمرّ وذلك الزئير الذي لا ينقطع الصادر عن أمواج تتكسّر بعنف شديد، كانوا يسبّبون له هزّات تشنّج مستمرّة. سارت وسارت، فمرّت ساعات طويلة من الألم، وعاد الليل: وبقي رفيقه ذو الوجه الأصفر الرقيق يشكو على الدوام، فهاجت أحزان كوستانتينو. وعندما تمكّن أخيراً من النوم، عاد إليه ويا للغرابة الحلم نفسه الذي رآه في الليلة السابقة. لكنّ جوفانّا كانت في هذه المرّة عابسة وهي تهزّ المهد بشيء من الرفق. عندما استيقظ كوستانتينو بدا له أنّ الباخرة لا تتحرّك إلّا ببطء، وسمع وسط صمت ساعة السحر صوتاً في الخارج يقول:

- تلك هي بروشيدا...

ارتجف من البرد وتساءل فيما إذا كانوا يقودونه إلى بروشيدا، إذ بدا له أنّه سمع بوجود سجن فيها. استيقظ صديقه أيضاً وهو يرتجف وتثاءب مطوّلاً.

سأل كوستانتينو: - هل وصلنا؟ كيف حالك؟

- لا بأس! هل وصلنا؟

- لا أدري، نحن قرب بروشيدا، هل يوجد سجن هناك؟

- لا، في نيسيدا. لكنّنا نحن لسنا محكومين بالأشغال الشاقّة – قال الثاني بكبرياء قبل أن يعود ويتثاءب.

- آه، ماذا كنت أحلم... أضاف الثاني، لكنّه لم يواصل حديثه حول ذكرياته عن حلمه، كما أنّ كوستانتينو لم يسأله المزيد.

أُنزل المدانون في نابولي وسُجنوا مباشرة ضمن شاحنة سوداء وصفراء تبدو مثل مقبرة جوّالة.

رأى كوستانتينو مشهداً عظيماً من مياه خضراء ساكنة، تجوب فيها ظلال سفن ضخمة وقوارب مليئة برجال قذرين يصرخون بأشياء غير مفهومة. وكانت تطفو على المياه الخضراء حول القوارب، بعض الأعشاب وقشور برتقال وأوراق وأنواع من القمامة. كما انتصبت مبان ضخمة أمام صفحة السماء الزرقاء العميقة.

فُصل المدانون في نابولي، فقيد كوستانتينو إلى السجن رقم X ولم ير بعد ذلك رفيق رحلته ذا الوجه الأصفر الرقيق.

بعدما وصل إلى مصيره، وضع المدانُ في زنزانة عليه أن يقضي فيها ستّة أشهر من السجن الانفراديّ. كانت الزنزانة بطول مترين وبعرض ستّة أكفّ فقط، ولا تكاد تتّسع لذلك السرير الغريب الصغير الذي يطوى في النهار ويسند إلى الجدار. ولا يمكن أن يرى من النافذة الصغيرة إلّا السماء.

كانت تلك أشدّ فترات السجن حزناً بالنسبة إلى كوستانتينو. كان يجلس لساعات وساعات ثابتاً بلا حراك، يلفّ ساقيه الواحدة على الأخرى ويداه مشبوكتان حول ركبتيه. الغريب أنّه لم ييأس البتّة، ولم يتمرّد قطّ. كان على قناعة بأنّه يدفع ثمن «خطيئة مميتة» كما كان يسمّيها، وهي أنّه عاش لفترة طويلة مع امرأة لم يتزوّجها زواجاً دينيّاً. وكان يشعر في قرارة نفسه بيقين يقول إنّه، في يوم من الأيّام، وبمجرّد أن تنتهي كفّارته عن خطيئته تلك، فلابدّ أن تظهر براءته ويطلقون سراحه.

لكنّه إذا لم يكن يشعر بإلياس، فإنّه كان يتألّم: وكان يعدّ الأيّام والساعات والدقائق، في انتظار متواصل ومثير للأعصاب ليوم تتغيّر فيه الأمور، ليوم لم يأتِ أبداً. استولى عليه حنين عميق أذهله. كان يعيش بأفكاره يوماً بيوم، وساعة بساعة، ودقيقة بدقيقة، بالقرب من جوفانّا وابنه، ويتذكّر بدقّة كاملة أصغر تفاصيل منزله وجميع تفاصيل منزله، وحياته الماضية، والأفراح التي مرّ بها. ولم يكن يعاني آلامه فقط، بل كان يتألّم أيضاً من أجل جوفانّا. كانت تهزّه نوبات الحنان نحوها، كما نحو الطفل، فيرتعد عن جموده المؤلم: فكان ينهض عندئذ ويقف على قدميه ويمشي خطوات واسعة، لا تتعدّى الخطوتين أو الثلاث، ثمّ يتوقّف فجأة، فينحني ويفرك رأسه بشدّة على الجدار كأنّما ليسقطه. كانت هذه أشدّ أوقاته يأساً.

ثمّ كان الأمل يعود إليه، فيتحرّى في ذهنه عن أحلام خياليّة تنبئ بخرافات عن تحريره. فكان قلبه ينبض بشدّة كلّما دخل عليه الحارس ظنّاً منه أنّه يحمل إليه ذلك الخبر السارّ.

في أحيان أخرى كان يلعب مع نفسه لعبة المورّا[1] فيتذوّق الربح مرّة والخسارة في مرّة أخرى، ثمّ إنّه كان يضحك بعد ذلك في نفسه مثل الأطفال. أو أنّه كان يتأمّل طويلاً راحة يده المفتوحة ويصوّرها لنفسه على أنّها سهل شاسع مقسّم إلى تانكاس أي إلى قطع من الأرض كبيرة مسيّجة بالأسوار أو مفصولة بالأنهار والأشجار والمواشي والرعاة، وكان يخلق لهم حياة مليئة بالمغامرات المثيرة.

ثمّ إنّه كان يصلّي ويسبّح بالعدّ على أصابعه وينشد الترانيم بصوت مرتفع ويرتجل أحياناً بعض الأبيات الدينيّة.

---

(١) لعبة تقليديّة في إيطاليا وخاصة في المناطق المطلّة على البحر الأبيض المتوسّط، ويفوز اللاعب عندما يحزر مجموع الأعداد التي تظهرها أصابع بقيّة اللاعبين (م) عن ويكيبيديا.

وهكذا فقد ألّف ترنيمة بأربعة أبيات مجّد فيها القدّيس قسطنطين، وأوصاه خاصّة بالمدانين الأبرياء. وجاء في اللازمة:

صلّ أيّها القديس قسطنطين

من أجل من أدين وهو بريء

انشغل بالكامل لعدّة أيّام في تكوين هذه الترنيمة، فكاد الأمر يجعله سعيداً: بل شعر بفرح عميق عندما انتهى من ذلك. كما شعر على الفور بالحاجة إلى إخبار شخص ما أنّه ألّف ترنيمة. لكن من سيخبر بذلك؟ فالحارس كان رجلاً صغيراً أصلع من نابولي، حليق الذقن، ذا أنف مسحوق مائل إلى الأعلى، كأنّه أنف هيكل عظمي، لكن لا يمكن له أن يفهم الترانيم رغم أنّه كان يتحدّث أحياناً مع المدان.

أمّا خلال ساعات التنفّس فكان ممنوعاً منعاً باتّاً على المحكوم عليه بالحبس الانفراديّ أن يتوجّه بالكلام إلى رفاقه. لذلك فقد طلب الإذن بأن يعترف أمام الكاهن، وهكذا يمكنه أن يتلو الترنيمة عليه. كان خوريّ المنشأة شابّاً ذكيّاً من مناطق الشمال سريع الحركات طويل القامة نحيل القدّ يطير من مكان إلى آخر بعينيه السوداوين المتّقدتين. استمع هذا بصبر وأناة إلى كوستانتينو وطلب منه تفسير معنى الأبيات، ثمّ سأله إن كان لم يرتكب خطيئة التباهي والغرور عندما أراد أن يعترف لمجرّد أن يتلو تلك الأبيات. احمرّ وجه كوستانتينو ونفى ذلك، فابتسم الكاهن بلطف، وواساه، وأشاد بالأبيات، ثمّ باركه وصرفه.

بعد أيّام قليلة طلب المدان أن يعترف من جديد.

فسأله الكاهن: - حسناً، هل ألّفت ترنيمة أخرى؟

قال المدان وعيناه منخفضتان: - لا، لكنّي جئت في طلب معروف.

- ما هو هذا المعروف؟ لنستمع.

بقي كوستانتينو معلّق الأنفاس لبرهة، خائفاً ممّا سيطلبه، ثمّ قال على عجل:

- حسناً، إرسال الترنيمة إلى بلدي.

قال الكاهن: - آه، أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك. ثمّ كيف يمكن لك أن تكتب الترنيمة؟

فرفع المدان عينيه البرّاقتين وقال: - أوه، أنا أعرف أن أكتب!

- أجل، لكنّي لا أعني هذا يا أخي. فأنت لا يسمح لك بالكتابة.

- آه، يمكن لي أن أتدبّر أمري في هذا الأمر...

- حسناً، حسناً، لكنّي أنا لا أستطيع.

ظهرت الخيبة على وجه كوستانتينو ولم يبق إلّا القليل حتّى يبكي. وبعد أن أدّى اعترافه سأل فيما إذا كان من الأفضل تخصيص ترنيمته باسم القدّيسيْن بطرس وبولس، لأنّهما كانا مسجونيْن، وطلب من الكاهن العفو لأنّه تجرّأ وتقدّم بذلك الطلب.

منحه الكاهن الشابّ الغفران ثمّ صلّى بصوت مرتفع بينما صلّى المدان بصمت، وبعد أن مرّر يده على رأسه وقال له بصوت منخفض وببطء:

- اسمع، اكتب الترنيمة إذا استطعت، وكن حذراً.

سرت رعشة من الفرح في قلب المدان، ومنذ تلك اللحظة لم يعد يفكّر إلّا في أن يفلح بكتابة الترنيمة.

قال للحارس: - أنا درست، وأستطيع أيضاً أن أصنع الأحذية. هل تريد أن أصنع لك حذاء، أو أن أصلّح حذاءك...

فأجاب الرجل الصغير بلهجة نابولي: - أنت تريد شيئاً ما، لكنّك لا تستطيع أن تفعل شيئاً.

- كن طيّباً أيّها العمّ سيرافينو. فكّر بالروح الخالدة.

- أنا أفكّر بالروح، لكن سبق أن قلت لك إنّي لست عمّك. وأنت قتلت عمّك.

- حسناً، لا يهمّ. نحن نقول عمّي للأشخاص المهمّين.

لكنّ دون سيرافينو كان يريد لقب دون الذي لم يتمكّن كوستانتينو من مناداته به لأنّه لقب لا يعطى في سردينيا إلّا للنبلاء. وهكذا فلم ينجح كوستانتينو من فعل شيء في ذلك اليوم.

في اليوم التالي عاد المدان إلى الهجوم، وقال إنّه ينحدر من عائلة نبيلة، وإنّه درس، وإنّ عمّه الذي اتّهم بقتله، أكل عليه ثروة كبيرة، ثمّ أجبره على العمل، وعلى صنع الأحذية بعدما حبسه في غرفة مظلمة صغيرة، وإنّه سلخ له مرّة قدمه بالكامل.

وأراد أن يعرضها عليه. لكنّ دون سيرافينو كان يهزّ رأسه ويظهر رعبه كما كان يشتم بصوت منخفض ذلك الميّت ذا القلب القاسي.

وهكذا فقد تمكّن كوستانتينو من الحصول على قطعة ورق، ثمّ استعمل قشّة وقطرات من دمه ليكتب ترانيم لحماية المحكومين.

انقضى الشتاء، وجاء إلى زنزانة كوستانتينو في يوم من أيّام آذار تفتيش بقيادة رجل ضخم له عينان واسعتان بلون أزرق قريب من لون الحليب، مستديرتان وثابتتان، وكانت ذقنه قصيرة بالفعل يغطّيها بكاملها شاربه الأشقر.

صرخ في وجه المدان: - أنت هناك، ماذا بوسعك أن تعمل؟

كان هناك أيضاً دون سيرافينو وقد أدار وجهه ذا العظام الناتئة نحو المدان، فأجاب هذا بعدما تذكّر كلّ الهراء الذي قاله للحارس وأنّه يعرف كيف يصنع الأحذية.

فقال الرجل الضخم ذو العينين الثابتتين: - أنت هناك، لقد قتلت أنت عمّك.

كان يتكلّم بلهجة لا تحتمل ردّاً. ففتح كوستانتينو فمه كأنّما ليقول:

- أنت هناك، لقد قتلت عمّي، إذا كان هذا ما يروق لسيادتك.

ذهب التفتيش، وأخبر دون سيرافينو كوستانتينو أنّهم سينقلونه من الزنزانة خلال وقت قصير، أي باختصار ثلث مدّة السجن الانفراديّ تقريباً. ظنّ كوستانتينو أنّ هذه الرحمة نزلت عليه بسبب سلوكه الجيّد، لكنّ دون سيرافينو أسرّ له أنّه توسّط من أجله لدى أشخاص متنفّذين وقال لهم إنّ المدان هو من عائلة نبيلة وإنّ قدمه مسلوخة وإنّه يعرف صنع الأحذية.

بعد بضعة أيام وضعوا كوستانتينو في عنبر السجن، وبدأ العمل كإسكافي مع غيره من المحكومين. كما أنّه أصبح في تلك الأيّام قادراً على إرسال أخباره إلى جوفانّا، لأنّهم سمحوا له بكتابة الرسائل كلّ ثلاثة أشهر. وقد جعلته هذه الظروف سعيداً لبعض الوقت. ثمّ جاء الربيع فعلت علائم البهجة على وجوه المحكومين بعد ما عانوا بشدّة من برد الشتاء. وكانوا يمزحون على الدوام في المهجع الذي يعمل فيه كوستانتينو. عدا شقيقين منهم، وهما اثنان من منطقة أبروتسو، ورغم أنّهما كانا قد طلبا التفضّل عليهما بإمكانيّة العمل سويّة، فإنّهما أخذا يتشاجران دائماً، وذلك حول مصالح معيّنة يجب تسويتها بعد انتهاء مدّة العقوبة، أي بعد عشر سنوات. تضاربا ذات يوم فأمسكوا بواحد منهما. ثمّ قضيا أسبوعين في زنزانة انفراديّة، لكنّهما عادا وتشاجرا مرّة أخرى عندما التقيا من جديد خلال ساعة التهوية، أي في ساعة الحرّيّة التي يقضيها المحكومون في فناء السجن.

تمكّن كوستانتينو خلال ساعة التهوية من التعرّف إلى واحد من أهل منطقته، واحد من سردينيا، يسمّونه **ملك المجارف**، ربّما لأنّ وجهه مثلّث وجسمه ضخم فوق ساقين صغيرتين دقيقتين، بدين، شاحب الوجه، وكان يحلق شعره بشكل يبدو معه أصلع الرأس.

كان يعمل في سلك الكارابنييري، لكنّه أدين بالاختلاس: وكان يقال إنّه أحد أقارب كاردينالٍ صديقٍ للملك والملكة، لكن بالسرّ. لذلك فقد كان ملك المجارف هذا يتوقّع يوماً بعد يوم أن يعفوا عنه، لا بل كان يعد بالعفو عن غيره من المحكومين الذين كانوا يقدّمون له الهدايا مثل أصابع السيجار والمال والطوابع البريديّة. كما أنّه عمل مشرفاً على مكتب الكتبَة. وهكذا أصبح قادراً على التواصل مع العالم الخارجي، وأخذ يسهّل بعض المراسلات السرّيّة بين المحكومين وأقاربهم، بل كان قادراً على إدخال الأموال والتبغ والطوابع والكحوليّات إلى السجن، ويستفيد من وراء ذلك استفادة كبيرة.

وقد عرض مباشرة على كوستانتينو عفواً ملكيّاً وسأله إذا كان يريد ارسال رسائل إلى البلد.

فقال الشابّ: - أجل، لكنّي لا أملك مالاً أقدّمه لك، لأنّي فقير.

أظهر الثاني كرمه وقال: - حسناً، هذا لا يهمّ لأنّنا من منطقة واحدة. ثمّ بدأ يقصّ عليه مباشرة بطولاته عندما كان ضابطاً، حين قتل أكثر من عشرة لصوص، وحصل على عشر ميداليات كما زار مرّة روما فدعاه الملك إلى مقصورته في المسرح. وأخيراً كان هو بطلاً، وهذا يغني عن الحديث عن بطولاته الأخيرة. وقال إنّه سجن بسبب مكر أعدائه من الحسّاد. في البداية صدّقه كوستانتينو، وأظهر له كلّ ودّ رغم شخصيّته المقيتة. ولكنّ قصص الضابط كانت تتباين أكثر فأكثر بمرور الوقت، ففقد هو أيضاً مصداقيّته.

كما أدرك أنّ الجميع هناك، بمن فيهم الحرس، كانوا كذبةً ماكرين. إذ كان المدانون بحاجة لإخفاء كيانهم الحقيقيّ، فيتخيّلون أشياء رائعة عن الماضي والمستقبل يحسّنون بها صورتهم في عيون رفاق محنتهم. لكنّ المصير الذي جمعهم، رغماً عنهم، في مكان الكراهيّة هذا، لم يثر فيهم، ولم يسمح لهم بإثارة أو تبادل شيء من العواطف.

وقد دهش كوستانتينو عندما رأى أنّ المحكومين بعقاب شديد هم أقلّ سوءاً من غيرهم، ولو كانوا أكثر غروراً وكذباً. فكان بعض الأقلّ إجراماً يكرهون بعضهم البعض، وجبناء وجواسيس وشاة. وكان الآخرون يخدمون بعضهم البعض طالما وجدوا فائدة من ذلك، لكنّهم يخون بعضهم بعضاً عندما يستدعي الأمر ذلك، ولا يحبّ بعضهم بعضاً أبداً. قال ملك المجارف لكوستانتينو:

- هناك فساد عميق ينخر جميع المحكومين تقريباً، وكثير منهم مجرمون حقيقيّون حطّمتهم الرذائل. فامتلأ الهواء بالآفات. إنّ الإنسان يسحق بالكامل عندما يُبعد عن المجتمع، ويُحرم من حرّيّته، ويوضع في مكان العقوبة، وهو يفقد كلّ ما تبقّى فيه من شعور أخلاقيّ، فيصبح كاذباً وجباناً وشرساً وفاسداً إلى درجة لا يدرك فيها أنّه فاسد.

ثمّ روى له قصصاً مخيفة.

وأضاف: - أظنّ أنّه لا يوجد شرفاء هنا في الداخل سوانا. كلّ الآخرين مجرمون. فاحذرهم يا كوستانتينو، يا ابن بلدي العزيز. هذا وكرُ قطّاعِ طرقٍ أسوأ من أولئك الذين سبق لي أن أرسلتهم إلى الجحيم.

كان كوستانتينو يشعر بالفزع أحياناً، فأيّ سعادة في أن يكون هو شريفاً على غرار ملك المجارف! أمّا *رقبة البطّة* فكان طالباً من جزيرة صقلّية مصاباً بالسلّ، شعره أبيض وعنقه طويلة وجسمه كأجسام الأطفال. كان يقرأ دائماً، خجول المظهر، نادراً ما يتكلّم، لكنّه كان يثور في بعض الأحيان من شدّة الغضب، بشكل يتوجّب عليه عندها أن يخضع لارتداء ثوب التقييد. وكان قد قتل أستاذاً. كذلك كان **المندوب** رجلاً من الجنوب أيضاً، أدين بالابتزاز. وكان يبدو كأنّه رجل نبيل، بصدره الكبير البارز ورأسه النبيل ذي الأنف الإغريقيّ الكبير والشفة السفليّة البارزة والمنقسمة. كان هناك على وجهه علائم سخط

تميّزه: لكنّه يظهر ودوداً جدّاً عند الاقتراب منه بل خدوماً. كان هذا أيضاً يدّعي أنّه يحظى بحماية كبيرة ومتنفّذة جدّاً، رغم أنّه تعرّض لاضطهاد أشخاص في مناصب عليا، وخاصّة من قبل أحد الوزراء.

بعد أن قرأ العديد من الكتب العلميّة التي أعارها له الطالب، بدأ منذ شيء من الوقت كتابة عمل علميّ عظيم، لأنّه كان هو أيضاً من مكتب الكتبة وقادراً لذلك على العمل بمفرده في السرّ.

وقد تكلّم ملك المجارف عنه بالعجائب.

فقال لكوستانتينو: - إنّ ذلك الرجل سيجلب لنا كلّ سعادة. فنحن نكتب بعضنا لبعض كلّ يوم ولدينا تعابير مشتركة متّفق عليها. لكن يجب أن نكون حذرين، وإلّا فإنّنا سنخرب كل أعماله، وهي اكتشاف علميّ حقيقيّ. أستطيع أن أعلمك بالنقاط الرئيسيّة فيه: - كيف تشَكّل الغلاف الجوي: أي الهواء. - كيف تشكّل المحيط، أي كلّ البحار. - أصل العالم العضويّ. – برهان عقليّ عن وجود قارّة أزليّة في المنطقة الوسطى من المحيط الهادئ. - في هذه القارة نشأت البشريّة، وفي تلك المناطق الاستوائيّة كانت طفولتها. - الهجرة إلى إفريقيا وآسيا. - اختفاء هذه القارة بسبب كارثة كبيرة. - رؤية هذه الكارثة في الطوفان التوراتيّ. - ظهور القارّات الأخرى. - ثمّ: نهاية الجوّ. - نهاية المحيط. - نهاية القمر. - نهاية الأرض.

ونهاية السجن أيضاً؟ سأله كوستانتينو وهو يبتسم، ذلك أنّه لم يفهم إلّا القليل، أو أنّه رأى أنّ ملك المجارف يقصّ عليه شيئاً من هرائه.

لكنّ الثاني كان بحاجة لأن يسمعه أحد ما فاستأنف بكلّ هدوء:

انتظر، الفصول الأخرى عن: توسيع نظريّة الارتقاء التي أصبحت مقبولة. – ارتقاء نوعنا كقردة شبيهة بالإنسان. – أسباب ميلان محور الكواكب، عدا عطارد. – أسباب هذا الشذوذ. – البقع الشمسيّة، الخ.

- إلى الشيطان إذاً! فكّر كوستانتينو وهو يتثاءب. ثمّ سأل بصوت مرتفع، وهو ينظر حوله في الفناء الجافّ، وفيه نافورة تتدفّق: «وطائر العقعق، اليوم؟» وكان يشير إلى طائر العقعق المروّض الذي يعيش في منشأة السجن، ويتغذّى من طعام المدانين، وهو سمين وكسول، عندما يجوع ينادي على اسم بعض المحكومين بصوت غريب يصدر عن أنفه.

قال ملك المجارف: - حسناً، سيكون قد مات وفني! - وماذا يهمّك أنت من أمر هذا الطائر؟ إنّك مثل الاطفال يا كوستانتينو. لا يمكنك فهم الأهميّة التي سيكتسبها عمل المندوب. أمّا أنا فقد كان لي بشكل غير مباشر دور كبير في هذه الاكتشافات، لأنّني أنا الذي سهّلت تراسله مع رقبة البطة. كما تمكنّا من إرسال ملخّص للعمل إلى الخارج، وكتبنا كذلك رسالة إلى رئيس وزراء ملك إيطاليا. لكن عليك أنت أن تلزم الصمت! قال عالم عظيم بعد قراءة الملّخص: «إنّه أعلى مظهر من مظاهر العبقريّة الإيطاليّة». صدّقني يا عزيزي كوستانتينو، يا بن بلادي، لقد وصل المندوب إلى ارتفاعات مذهلة. وقد ذهب بعض أصدقائه المتنفّذين إلى روما خصّيصاً ليطلبوا العفو له. لكنّ له أعداء متنفّذين ايضاً. إنّ عمله سيساعده على نيل حرّيته.

أثارت سأم كوستانتينو أحاديث رفيقه، لكنّه تظاهر بالاستماع إلى ملك المجارف كي يبقي على ودّه، ولا سيّما انّه كان بانتظار رسالة أرسلتها له جوفانّا.

وصل جوابها في أيّار فملأت المحكوم بالفرح. كتبت جوفانّا تقول إنّ الطفل كان مريضاً نوعاً ما، ربّما لأنّ ما عانته من عذاب قد أفسد حليبها، لكنّه الآن بخير. كما أنّ إيزيدورو بانِه بكى عندما استلم ترانيم القدّيس كوستانتينو المخطوطة بالدم، وأخذ ينشدها في الكنيسة بمرافقة جميع الناس. ولا يعرف من

كتب هذه الأبيات، وكان إيزيدورو يقول إنّه استلمها من عجوز بلحية طويلة بيضاء ناصعة يرتدي ملابس بيضاء، بعدما ظهر له ذات يوم على ضفّة النهر. ويظنّ أنّه القدّيس قسطنطين أو يسوع المسيح بالذات.

كما أنّ جاكوبَه ديغاز بدأ بالعمل لدى أقربائه الأثرياء، وأنّ محامي نوّرو استملك بيت المحكوم وترك فيه المرأتين مقابل إيجار بسيط. ويقدّم آل ديغاز الأثرياء بعض العمل للعمّة باكيسيا ولها أيضاً، وهذا ما يتيح لهما تدبّر أمور العيش. وقد مات بالجمرة الخبيثة بيترو بونيا، كما تزوّجت أنّيكّا الملقّبة ذات الكتفين من ذهب، واعتقلوا راعياً لأنّه سرق خلايا نحل.

كانت رسالة جوفانّا مليئة بمثل هذه الأخبار التي ملأت نفس كوستانتينو بكثير من الرضا والسرور والغبطة. إذ بدا له أنّه يتنفّس هواء بلاده ويرى حجارتها وشجيرات براريها وأشخاصها والأشياء التي كان قلبه متعلّقاً بها.

لكن أساءه أن تذهب جوفانّا للعمل لدى آل ديغاز، فهو كان يعرف عن مشاعر برونتوو وطلبه المرفوض، لذلك فقد شعر بشيء من خشية غير واضحة المعالم. وقد أرسلت له جوفانّا ثلاث ليرات ضمن الرسالة، وبما أنّه يعرف أنّ مصدر هذا المال هو بيت ديغاز فقد أمسكه بشيء من القرف، ثمّ قدّم منه ليرتين لملك المجارف، ظنّاً منه أنّ ابن منطقته سيرفضه، لكنّ ابن منطقته أخذه قائلاً إنّه سيعطيه للشخص الذي تولّى تلك المراسلة السريّة.

لو حدث ذلك الأمر في وقت آخر لكان كوستانتينو قد استشاط غضباً، لكنّه في تلك الساعة كان يشعر بالحاجة إلى أن يراسل جوفانّا، وأن يتواصل مع عالمه الصغير البعيد، وكان عندها على استعداد كي يهب نصف حياته لملك المجارف كيما يسهّل له ذلك.

قرأ الرسالة وأعاد قراءتها حتّى حفظها عن ظهر قلب. في النهار كان يخبّئها تحت نعل حذائه الذي كان يفكّه في الليل ثمّ يعيد خياطته. وكان يعمل صامتاً وهو يفكّر باستمرار بأحداث بُلَيدته الحبيبة البعيدة وأشخاصها.

كان يستغرق أحياناً في أفكاره فينسى الواقع حوله. فرسم في خياله مرّة صورة ذلك الراعي اللصّ العجوز وهو يتسلّل بحذر بين سياج الخلايا، وقد غطّى وجهه ويديه بالخرق. كان المكان مقفراً تضربه الشمس، وانبسطت على مدّ البصر حقول خضراء تزيّنها الزهور وأنواع الورود والرياحين والبازلاء العطرة. وكان طنين النحل يعلو وسط الصمت العميق، وبين الروائح القويّة والمؤثّرة الصادرة عن الأعشاب البرّيّة والنباتات العطريّة.

تابع كوستانتينو باهتمام عمل اللصّ العجوز، فتخيّله وهو يفصل عن الأحجار المسطّحة خلايا الفلّين الصغيرة التي تستقرّ فوقها، ثمّ كان يجمعها ويربطها بحبل قبل أن يضعها في كيس ويحملها إلى خارج السور... وهنا توقّف كوستانتينو لأنّه لا يعرف المزيد عن عمل ذلك اللصّ، كما سمع وهو غارق في تخيّلاته صوتاً غريباً يصدر عن الأنف ويصرخ في الفناء:

- كوس... تانتي! كوس... تانتي!

استفاق عندها من أحلامه وعاد إلى الواقع. رأى طائر العقعق يتواثب ببطء في الفناء، سميناً ومستديراً، وهو يشرّع جناحيه الزرقاوين.

كان المحكوم يضع الرسالة في الليل تحت رأسه ويستعيد خيوط أحلامه. وهكذا سمع ذلك الصوت الرنّان، صوت صديقه الصيّاد وهو ينشد الترنيمة. وكان يتساءل في بعض الأحيان فيما إذا كان إيزيدورو قد رأى حقّاً وهو على ضفاف النهر، وبين نباتات الدفلى المنحنية تحت ثقل عناقيد الزهور الورديّة

الجميلة، صورة ذلك الرجل العجوز بثوبه الأبيض ولحيته الطويلة البيضاء كصوف حمَلٍ ولد لتوّه.

آه، لا بدّ أنّ ذاك هو شفيعه القدّيس قسطنطين الطيّب القلب (الذي كان يتصوّره عجوزاً ناصع البياض مثل قدماء الأجداد، رغم أنّ تمثال القدّيس الموضوع في كنيسة البلدة يصوّره على أنّه محارب أسود الوجه) ولا بدّ أنّه تجلّى أمام إيزيدورو ليخبره أنّه يفكّر بالمدانين الأبرياء. وأنّ القدّيس العجوز سيمنحه الحرّية عمّا قريب. آه، فلتتبارك أيّها القدّيس قسطنطين الرائع!

ثمّ كانت تتغيّر الصورة. فيظهر رواق آل ديغاز الأثرياء، حيث يتحوّل الصوف المغزول إلى شلل طويلة جاهزة للنسيج. كانت جوفانّا تذهب وتجيء وهي تحمل كوكبة الغزل الضخمة بين يديها. وكان هناك برونتوو جالساً على عتبة باب المطبخ، مشرّع الساقين، بينما يقف مالتيندو الصغير بين رجليه وهو يتأرجح ويضحك. آه، كان هذا أمراً مخيفاً! لكنّ كوستانتينو تذكّر على الفور أنّ برونتوو لا يجيء أبداً إلى البلد خلال أيّام العمل، وهنا استيقظ فجأة وقلبه يتماوج مضطرباً بين مشاعر الألم والفرح.

الهيئة العامة السورية للكتاب

- VII -

عاد الصيف.

قالت العمّة مارتينا وهي تغزل تحت الرواق: «كم يمرّ الوقت بسرعة». - يبدو أنّك دخلت في الأمس فقط في خدمتنا، بينما ها أنت تعود اليوم لتجديد العقد. آه، كم يمرّ الوقت سريعاً بالنسبة إلينا نحن السادة المساكين! لقد ادّخرت أنت ثلاثين سكوداً من الفضّة وبدأت في بناء منزل لك. أمّا نحن فماذا يبقى لنا؟

فأجاب الخادم وهو يطلي بالدهن حبلاً من جلد: - فلتخترق قذيفة مغزلك! كم تجيدين أنت الكلام. لكن ماذا عن تعبي وعرقي يا عصفور الربيع الصغير، أليس لتعبي وزن؟

لكن ألا تحسب ما تأكله؟ آه، ألا تحسب ذلك؟

فكّر جاكوبّه قائلاً في نفسه: لتأكلك الغربان! وكان بودّه أن يشتمها بصوت مرتفع، لكنّه لم يجرؤ. كان يكره أسياده بالفعل، يكره العجوز البخيلة والشابّ الغضوب الذي كان يعذّبه دائماً بخططه الرامية إلى التزوّج بجوفانّا إذا تطلّقت. لكن بما أنّه كان يريد تجديد عقده فكان يلتزم الصمت.

عندما نزل نحو بيت آل إيرا رأى الخادمُ مالثينيدّو الصغير وهو يمتطي حصاناً من قصب ويتأرجح بثوبه الأبيض القذر بينما ذراعاه وساقاه عارية لوّحتها الشمس. انحنى الخادم وفتح ذراعيه وحال دون عبور الصغير للطريق.

سأله مداعباً: - إلى أين الذهاب؟ - ألا ترى أنّ الجوّ مشمس؟ أوه، أوه، قد تأتي الآن ماريا بيتّنا ومعها مشط من نار[1]، فتختطفك وتأخذك إلى الغول. فعد إذاً إلى البيت.

---

(١) فزّاعة يستعملها أهل سردينيا في الصيف ليخيفوا الأطفال من الخروج في الشمس. (هامش أصلي في الكتاب)

فزعق الطفل وهو يتأرجح على لعبة حصانه: - لاااا، لاااا!

فقال جاكوبّه وهو يخفض صوته ويغمز باتّجاه الرواق: - حسناً يا عصفور الربيع الصغير، هناك توجد العمّة مالثينا التي لا تأكل الخبز كي يتسنّى لها أن تلتهم الأطفال، هل تراها؟

بدا هنا أنّ الطفل قد اقتنع واستسلم لانقياده إلى البيت لكنّه أصرّ على استعمال حصان القصب.

كانت جوفانّا تخيط خلف الباب، كانت قد سمنت، محمرّة، نضرة، كما لو أنّها لم تتعذّب بأيّ ألم. كان شعرها البرّاق المتماوج يغطّي جبهتها الجميلة. رفعت رأسها وابتسمت لمرأى جاكوبّه مع طفلها.

قال الخادم: - ها هو، لقد أعدته إليك. كان في الشمس، وكان ذاهباً نحو العمّة مالثينا التي لا تأكل الخبز كي يتسنّى لها أن تلتهم الأطفال.

قالت جوفانّا: - هيّا بنا، لا يمكن أن تقال هذه الأشياء أمام الأطفال.

- لكنّي أقول هذا حتّى للكبار، لأنّ العمّة مالثينا تلتهم الكبار أيضاً، فاحذري ألّا تأكلك أنت أيضاً يا جوفانّا إيرا، خاصّة وأنّك تظهرين مثل سفرجلة ناضجة، لكن لا، السفرجلة لونها أصفر، وأنت تبدين مثل، مثل...

فقالت وهي نضحك: - مثل الصبّار!

- وماذا عن العمّة باكيسيا؟ أمن زمن طويل لم تستلمي رسائل من كوستانتينو؟

انقلب وجه جوفانّا جادّاً، وقالت بنوع من الغموض إنّها تلقّت منذ فترة غير طويلة أخبار المحكوم.

فاستأنف الثاني من غير أن يصرّ على أمر الرسائل: - آه، وهل يمكنك أن تخبريني إذا كان إيزيدورو بانه في البلد؟ يجب أن أكلّمه.

فقالت وهي تعود لخياطتها بكلّ جدّيّة: - إنّه في البلد.

انصرف وهو مستغرق في أفكاره، نزل إلى الطريق الرئيسيّة إذا أردنا تسميتها بهذا الاسم وتوجّه نحو بيت إيزيدورو بانه الذي يسكن في الطرف الآخر من البلدة.

كان إيزيدورو، وهذا ما يجب أن يقال تكريماً له، يصطاد أيضاً سمك التروت وثعبان الماء عندما تتاح له الفرصة، فكان يجلس في ظلّ بيته الطويل ويرمي شبكته. كان هذا البيت بعيداً نوعاً ما عن غيره، ويقع قرب الحقول، وهو عبارة عن مبنى من ما قبل التاريخ مصنوع من شظايا صغيرة من الشست (ربّما من وقت لم يكن الناس يعرفون فيه تقطيع الحجارة، لأنّ البيت مبنيّ بأحجار مقطوعة بشكل طبيعيّ)، ومغطّى بالقصب وقطع آجرّ نمت عليها حشائش صدئة.

غربت الشمس بعد ظهر يوم حارق. لم تتحرّك ورقة من الأشجار المتربة المنتصبة بلا حراك فوق البلدة القاحلة المهجورة. وانتشرت على الهضبة الصفراء ظلال مائلة، غارقة عند غروب الشمس في بريق بلون الدم. كما ارتفعت عبر سماء بلون النار الورديّ جبال غريبة الشكل، تكاد تشبه الطاووس، بل كأنّها تماثيل حمراء لأبي الهول، ضخمة ومغطاة بلون أرجوانيّ. كان يمكن وسط ذلك الصمت العميق سماع زقزقة شحرور تأتي من بعيد. وكانت تحيط ببيت الصيّاد نباتات تين برّيّة بأوراقها الصلبة المائلة إلى السواد، وشجيرات الروبينيا، المتشابكة مع نباتات طويلة أخرى كالقرّاص ذي الأوراق البيضاء. كان هو جالساً على عتبة الباب حيث يمكن له أن يرى الأفق البعيد وهو ينتصب منعزلاً وضبابيّاً مثل البحر. وكانت تنتشر في الهواء روائح واخزة تصدر عن القشّ والآس الجافّ: كما انتشرت على الأرض وغطّتها أقشاش وأوراق جافة. اقترب جاكوبّه بصمت، فلم يرفع إيزيدورو رأسه عن عمله.

هتف الخادم: - ماذا نعمل؟ فرفع الآخر بصره من غير أن يرفع رأسه، ونظر إلى الخادم بفضول ولم يجب عن سؤاله.

جلس جاكوبّه على الأرض بالقرب منه وصالب بين قدميه وأخذ ينظر إلى إيزيدورو الذي كان يسلك في الشبكة خيطاً غليظاً موصولاً بإبرة ضخمة بدأت تصدأ.

قال جاكوبّه متضاحكاً: - صدّقني أنّ الأسماك الصغيرة تستطيع أن تدخل وتخرج من هذه الشبكة على هواها.

فأجاب الصيّاد وهو يقلّد طريقة حديث جاكوبّه: - دعها تدخل وتخرج على هواها يا عصفور الربيع الصغير. ولماذا أنت في البلد؟ هل أنت خارج الخدمة؟

- أي! لقد استأنفت الخدمة عند أولئك الصراصير من أقاربي الأغنياء. يجب أن أحدّثك بأمور جادّة أيّها العمّ إيزيدورو. لكن أخبرني بداية عن حال ساقيك؟ وهل لم يظهر لك القدّيس قسطنطين على ضفاف النهر منذ وقت طويل؟

قطّب العجوز بين حاجبيه لأنّه لا يحبّ الحديث بخفّة عن أمور مقدّسة، وقال بصوت منخفض:

- إذا كنت قد جئت لتسأل هذا السؤال فتحلّ بالشجاعة وانصرف من هنا.

- حسناً، لا تنزعج. سأخبرك الآن بسبب مجيئي... أجل، إنّه عمل مهمّ. أمّا إذا رأيت أنّي أصبحت زنديقاً جاهلاً فأنا مدين بذلك للسيّد الصغير الذي يتكلّم بالسوء عن القدّيسين، عندما يكون غير آبه بساعة الاحتضار. آه، اسمعني، لقد رأينا في الليلة الماضية نجماً يتحرّك، ينزل من السماء مباشرة وكأنّه مغزل من ذهب، وله ذيل طويل: بدا وكأنّه ينزل إلى الأرض. عندها استلقى

برونتوو على الأرض وهو يصرخ: «إذا كانت هذه ليلتنا الأخيرة، فيا ربّي ارحمنا!» وبقي ساجداً على الأرض. وأقول الصدق إنّي أردت ساعتها أن أركله.

- وأنت ألم تخف؟

- أنا لا يا عصفور الربيع الصغير! فقد رأيت أن النجم قد تلاشى مباشرة.

- لكن قل الحقيقة، ألم تشعر بالخوف أوّل ما رأيته؟

- بلى، اذهب إلى الشيطان! حسناً، لقد جئت لأكلّمك عن سيّدي. إذا لم يكن هذا مجنوناً، فلا أحد في هذا العالم مجنون. فهو يريد منك أن تذهب إلى جوفانّا إيرا وأن تعرض عليها أن تتطلّق لتتزوّجه.

ترك إيزيدورو عمله وخيمّ ظلّ على عينيه الطيّبتين الصافيتين ثمّ شبك يديه وسند عليهما ذقنه وبدأ يهزّ رأسه.

ثمّ قال بصوت رنّان: - وأنت، ألست أنت مجنوناً إذ جئت لتخبرني بهذا؟ آه، لكنّي أفهم أنّك لا تريد أن تتكلّم بأمور تخصّ مصدر رزقك وخبزك. كم أنت نذل جبان!

فصرخ الآخر بطريقة مضحكة بعد أن استاء: - أوه، أو تظنّ أنّك تتكلّم مع علقاتك؟

- أنت تمزح، لقد حان الوقت لإنهاء هذا الأمر. أخبر سيّدك أنّ الوقت حان، وكلّ البلد يعرف الأمر ويثرثر حوله.

- آه يا عزيزي، مازلنا في البداية فهل تتحدّث أنت عن النهاية؟ أمّا أنا فقد امتلأت جعبتي، وهو لا يفعل ليل نهار إلّا أن يحدّثني بهذا، ذلك البرميل المليء بالغرابّا! وهكذا فقد كان عليّ أن أعده بالمجيء إليك، وها أنا قد جئت، لكن ليس لدعمه بالطبع. إنّ الشخص الوحيد القادر على إنهاء هذه الفضيحة هو جوفانّا. فاذهب إليها عسى أن تسكت ذلك الكلب المسعور، فأنا لا أستطيع أن أتحمّل المزيد.

بقي إيزيدورو يحملق فيه بعينيه الضبابيّتين، لكن بدا أنّه لا يسمعه، ثمّ انحنى واستأنف عمله وهو يتمتم:

- يا كوستانتينو المسكين، أيّها الحمل البائس، ماذا فعلوا بك؟

قال جاكوبّه: - أجل، إنّه بريء، ولا بدّ أن يعود بين يوم وآخر. ويجب منع وقوع هذا الشيء الذي خطّط له برونتوو، ولا سيّما أنّ العمّة باكيسيا تتربّص تربّص العقبان بالفريسة.

- لكنّ الآخر استمرّ في تمتمته من غير أن يعير جاكوبّه السمع: - يا كوستانتينو المسكين، أيّها الحمل البائس، ماذا فعلوا بك؟

عندئذ غضب هذا ورفع صوته فدوّى وسط ذلك الصمت الأحمر وتلك العزلة التي تحميها أشجار التين والشجيرات البرّيّة.

- فعلوا به الشنائع! لماذا لا تعيرني سمعك يا من أنت نفايات متعفّنة؟ عليك أن تذهب إليها في الحال، لأنّ الصبيّة في جذل، حمراء كالورد، وستستلم أمام أوّل عرض وتقع كما تقع التفّاحة الناضجة، لكنّ قلبها ليس سيّئاً، وإذا حرّكته أنت كما ينبغي، إذا أفهمتها واجباتها، فيمكن عندها على الأرجح تجنّب كلّ المصائب. فاذهب، عساك أن تذهب إلى المشنقة! تحرّك، اصنع معجزة إذا كنت حقّاً قدّيساً كما يقول الحمقى.

فهتف العجوز ثلاث مرّات بقول: - آه! آه! آه! ثمّ نهض ووقف على قدميه. فارتسمت قامته العالية البهيّة رغم الخرق البالية التي تغطّيها في الجوّ الأحمر على خلفيّة الأعشاب البرّيّة وذلك الأفق المنعزل، كأنّه راهب ناسك عجوز.

ثمّ قال وهو يتنهّد: - سأذهب، سأذهب! فشعر جاكوبّه بثقل ينزاح عن قلبه.

شرع الرجلان بعدئذ بمساعيهما الرحيمة لمساعدة ذلك المدان البعيد، لكن كان عليهما أن يتصارعا مع ثلاث قوى مجتمعة ناشطة ومع سلبيّة جوفانّا. أمّا القوى فكانت: عواطف برونتوو المقيتة، جشع العمّة باكيسيا، وحسابات العمّة مارتينا. فهذه لم تكن تنظر باستياء إلى خطّة ابنها: فجوفانّا فتاة فقيرة، لكنّها تتمتّع بصحّة جيّدة، وهي مقتصدة ومتواضعة وتعمل كالوحوش، أمّا المرأة الثريّة فستجلب الفوضى وتشتّت المنزل، كما أنّ حفل زفافها سيوجب نفقات باهظة، بينما إذا تزوّج بجوفانّا فسيكون هذا بالسرّ تقريباً، وستدخل هي إلى البيت مثل جارية بالمجّان.

ما أخبث العمّة مارتينا!

استمرّ مسار الزمن فوق البلدة المبنيّة بأحجار الشيست، فوق الجبال المقفرة، فوق الهضبة المصفرّة مثل الصحراء: وجاء الخريف، دافئاً حزيناً في بعض الأحيان، ذلك عندما يدخّن البحر في الأفق وتنتفخ الغيوم الكثيفة المظلمة وهي تمرّ كأنّها عناكب ضخمة فوق سماء بلون الحليب، وتنسج أخمرة رقيقة للغاية. وفي أحيان أخرى يظهر الخريف برّاقاً وشفّافاً وبارداً مثل الماء الصافي.

في أمسية من تلك الأمسيات، عندما علت في الشرق غيوم بنفسجيّة متطاولة فوق بلّور السماء، كأنّها جزيرة في بحر هادئ، وعندما حملت الريح روائح الزعتر الذي كان الفلّاحون يحرقونه وهم يحرثون أراضيهم الرطبة ليزرعوا القمح فيها، كان برونتوو يحتسي وقتها رشفات كبيرة من الغرابّا كي يدفّئ جسمه، وكان قد ذهب إلى الفراش في صدر الكوخ، ليحلم، وهو دافئ الجسم وبهيج النفس مثل القطط، بينما كان يحدّق بسحابة بنفسجيّة تعبر الأفق البعيد. أمّا في الخارج، فقد امتدّت حول الكوخ مساحات شاسعة من حقول آل ديغاز المسيّجة، وكانت سهوبها تتماوج تحت شفق الغروب الساطع، كما جعلت أمطار

الخريف الأرضَ تنتفخ بذهب المحاصيل البنّيّ، بينما كانت الأعشاب الباهتة وزهور الخريف البنفسجيّة تطلق عطورها الرطبة. وكانت تحلّق كذلك أسراب الطيور البرّيّة والغربان الكبيرة ذات اللون الأسود المعدنيّ، وتنطلق من بين شجيرات شيح بدت وكأنّها أكوام من رماد، ثمّ تعود لتختبئ في غابة اللاذن وبين شجيرات القطلب ذات الأوراق البرّاقة والثمر الأعجر بلونه الذهبيّ الشاحب.

كان هناك اثنان من الفلّاحين، من خدم آل ديغاز، قد أضرما النار في الشجيرات ليحرثا الأرض ويهيّئانها لزرع الشعير والقمح. كانت ألسنة اللهب تتأجّج شاحبة اللون في الضوء، وشفّافة مثل زجاج أصفر، وتستعر بفعل الرياح. ثمّ كان الدخان يختفي وينخفض فاتح اللون، ومضمّخاً بروائح تشبه دخان البخور. كانت الأسيجة المضروبة حول القطعان جافّة وشائكة وهي تطرّز الهواء الفضّيّ بلونها الأرجوانيّ الجميل. أمّا القطعان فكانت قد انسحبت، ولم يبق سوى عدد قليل من الخيول السوداء مازالت تدسّ أنفها في الأرض لترعى. سمع صوت جاكوبّه خلف الكوخ، ثمّ شيء من رنين جرس، وعواء كلب أجشّ أتى من بعيد، ونعيق غراب أجشّ كذلك جاء من بعيد.

كان برونتوو مستلقياً داخل الكوخ على جلود ومناديل دافئة كأنّه واحد من البدو، وكان يتابع أحلامه القاهرة، بينما كانت الخمرة الحارقة تغلي في صدره وتغمر قلبه بحلاوة دافئة وعميقة.

آه، كم كان شراب الغرابّا يروق لهذا الملّاك الشابّ! كانت تروق له ليس بسبب طعمها الواخز ورائحتها البرّيّة فقط، بل بسبب الحلاوة التي تغزو قلبه بعد احتسائها. ويا للمصيبة إذا أزعجه أحد في تلك اللحظات، فالحلاوة تنقلب إلى مزاج أخضر مرّ كالمرارة. وهو لا يعرف السبب، لكنّه كان يظنّ أنّ الكلاب

عندما يداس على ذنبها وهي نائمة لا بدّ أن تشعر بما يشعر به عندما يؤذى وهو في ساعات الثمالة. كان غضبه يثور وقتها ولا يرى شيئاً أمامه.

آه، أجل، كانت الغرابّا تروقه بالفعل، كذلك النبيذ يروقه، لكن ليس مثل الغرابّا. كان والد برونتوو يحبّ مثله أيضاً هذا المشروب الحارق، بل إنّه شرب منه مرّة بكثرة حتّى أنّه وقع في النار وبشكل أدّت معه الحروق التي أصابته إلى موته، والعياذ بالله. كفى، دعونا من هذه الأفكار الحزينة، فهو اليوم يقظ ولن يقع في النار. ثمّ إنّ برونتوو يوازن نفسه بالعاطفة الثانية التي يكنّها لجوفانّا. آه، الغرابّا وجوفانّا! أجمل الأشياء وأشدّها حميّة وإسكاراً في العالم. لكنّ برونتوو كان يخجل أمام جوفانّا بمقدار ما كان يتحمّس أمام الغرابّا. كان يرتجف حتّى من فكرة التقرّب منها والتحدّث إليها. كان يتألّم من شدّة رغبته في العودة إلى البيت في الأيّام التي كان يعرف أنّها كانت تعمل فيها لدى العمّة مارتينا، كان يريد أن يراها في بيته، في أن ينظر إليها، لكنّه لم يكن يجرؤ على التحرّك من حقله. وكان الوقت يمضي، والشابّ يشعر أنّ الانتظار يأكله وكذلك اضطرابه العميق. كان يخشى أن ترفضه جوفانّا مرّة أخرى إذا ما هو تأخّر عنها. كان يريد أن يبرهن لها على اهتمامه بها، وأنّه يودّ أن يسعدها وأن يتزوّجها مباشرة بعد إدانة سيباستيانو. وإذا كان هو يفكّر، أخيراً، بشكل مختلف قليلاً عن الآخرين، فهو على ما هو عليه ولا يستطع تغيير ذلك. وقد كان هو في الأساس طيّب القلب، مثل غيره من السكارى، وكانت أخلاقه صادقة شريفة. وكانت جوفانّا هي شغفه الوحيد منذ أن كان مراهقاً، بعد المشروبات الكحوليّة، ومنذ أن سكنت عائلته للعيش في المنزل الجديد. كانت حينها في الخامسة عشرة من عمرها. كانت ذات جمال ونضارة رائعين. كان برونتوو يحمرّ خجلاً كلّما رآها، وتحمرّ حتّى يداه، وكانت هي تلاحظ ذلك ولم تتأذّ منه، لكنّه كان يبقى صامتاً على الدوام، وعندما قرّر في

النهاية أن يرسل أمّه إلى أمّ جوفانّا، كان غيره قد احتلّ مكانه. كانت جوفانّا في تلك الأيام شمّاء تنبري كالمهرة، ولا تعرف قيمة المال، وكما أنّها كانت ستتزوج برونتوو ديغاز لجمال أسنانه وحسب، فإنّها لم تكن لتخدع كوستانتينو حتّى لو من أجل نائب الملك، لو أنّه بقي في سردينيا.

كان الغسق يتركّز. وتبلورت السماء أكثر فأكثر، تعمّقت وأصبحت كالمرآة، وأخذت السحابة البنفسجيّة لونًا قاتماً أغبش، واستطالت وتحرشفت وأصبحت كسمكة ضخمة من البرونز الخالص. كما اشتدّت أصوات الحيوانات والأشياء وسط صمت الساعة المهيب، وبدا لبرونتوو أنّه يحلم وهو يسمع في ذلك المكان وفي تلك الساعة صوت العمّة باكيسيا.

- إذا لم أخطئ فأنت جاكوبّه ديغاز، قال الصوت الخشن والحزين في الوقت نفسه.

- في خدمتك، أرعد صوت الخادم المندهش بالفعل. – من أسقطك في هذه الأرجاء يا عصفور الربيع الصغير؟

- آه، آه، وأخيراً! أين هو برونتوو ديغاز؟

وثب برونتوو من الكوخ، وكانت ساقاه ترتجفان ويدور رأسه ولم ير إلّا بصعوبة قامة العمّة باكيسيا السوداء وهي تحمل حذاء في يدها وكيساً على رأسها.

أخذ ينادي منفعلاً: - العمّة باكيسيا، إنّي هنا، تعالي إلى هنا، تعالي، عمت مساء.

فكادت أن تندفع فوقه، يتبعها الخادم الحريص.

- آه، يا برونتوو ديغاز، يا ابني العزيز، إذا لم أمت هذا المساء فإنّي لن أموت أبداً. منذ ثلاث ساعات وأنا أمشي، لقد ضعت. أنا بحاجة لأن أكلّمك، فعليك بالصبر.

أيّ صبر وصبر! كان منفعلاً إلى حدّ البكاء. أخذها من يدها، وقادها إلى الكوخ. فهم جاكوبّه أنّه لا يستطيع المشاركة في الحديث فرجع إلى خلف الكوخ، وأصاخ السمع، وهو يدور حول نفسه مثل وحش أسير.

لم يسمع شيئاً. لكنّ اللقاء كان من ناحية أخرى قصيراً ولم ترغب العمّة باكيسيا حتّى أن تجلس. قالت إنّها ضلّت الطريق بحثاً عن حظيرة برونتوو وتوجّب على جوفانّا أن تنتظرها وهي في أشدّ القلق، لأنّها ظنّت أنّها ذهبت لتجمع من الحقل أعشاباً يأكلانها. أجل، فقد أجبرتها الظروف لسوء الحظّ على الاعتماد على الأعشاب، أجل، إلى هذا الحدّ وصلت بهما الفاقة. وهكذا فقد جاءت العمّة باكيسيا لطلب قرض من برونتوو. أجل، مجرّد قرض والحمد لله. وإذا لم تتمكّن من سداده، فستشتغل هي وجوفانّا لدى آل ديغاز حتّى سداد الدين. فهما لم يدفعا إيجار البيت منذ عدّة أشهر، وبدأ المحامي يهدّدهما بإخلائه.

وأضافت العمّة باكيسيا وهي تضمّ يديها المعوجّتين الصفراوين: - إلى أين يمكننا الذهاب نحن الاثنتين، تصوّر يا برونتوو يا روحي إلى أين يمكننا الذهاب نحن الاثنتين!

كان يشعر بصدره يرتعش، كان بودّه أن يعانق العجوز وأن يقول لها بصوت مرتفع: - تأتيان إلى بيتي! لكنّه لم يجرؤ.

لم يكن يملك مالاً معه، فقرّر أن يعود مباشرة إلى البلدة، لاسيّما أنّه كان يريد مرافقة العجوز. وهكذا فقد خرج وصرخ على جاكوبّه وطلب منه أن يسرّج له الحصان.

سأله الخادم: - ماذا حصل؟ هل ماتت أمّك، وليرحمها الله؟

أجاب برونتوو من غير أن يتأثّر بالسؤال: - لم يحدث شيء يهمّك.

استمرّ جاكوبّه في تسريج الحصان، بينما كان يحترق من شدّة فضوله وشوقاً إلى معرفة سبب مجيء العمّة باكيسيا وسبب عودة برونتوو إلى البلد.

- هل تريد منه مالاً؟ ليس لديه مال هنا وسيعود ليتدبّره ويعطيها إيّاه. – هل تسمعني يا برونتوو؟ وعندما اقترب هذا منه قال له:

- إذا كانت تلك المرأة تريد مالاً لا يتوفّر لديك منه شيء هنا، فيمكن لي أن أعطيها أنا...

فأجاب برونتوو بصوت منخفض وكلّه فرح: - أجل، إنّها تريد قرضاً منّي، ولكن حتّى لو كان متوفّراً هنا عندي، فإنّي سأعود في كلّ الأحوال، لأنّه يمكن لي أن أرى هذا المساء جوفانّا، يمكن لي أن أدخل إلى بيتها. أريد أن أتكلّم معها أخيراً. وأن أفعل بنفسي ما لم تقدروا على فعله أنتم الحمير.

فهتف جاكوبّه غاضباً: - لقد جننت يا رجل!

- حسناً، دعوني أجنّ. حسناً، شدّ ذلك الحزام. ثم توجّه نحو الحصان وخاطبه قائلاً: - لقد نفخت بطنك أيّها الحصان الصغير. ألا تروق لك رحلة في المساء؟ وماذا ستقول عندما تمتطي العجوز صهوتك؟

فهتف جاكوبّه: - أوَ هذا أيضاً؟

- هذا أيضاً. وماذا يهمّك، أليست هي حماتي؟

- الحقيقة أنّك تجري بسرعة، انتبه ألّا تنفكّ رقبتك يا عصفور الربيع الصغير... أه! آه! آه! ثمّ بدأ الخادم يتمتم: - هل تريد حقّاً ان تفعل بجدّ؟. – هل تريد أن تتزوّج من تلك المتسوّلة، من تلك المرأة المتزوّجة؟ أنت الذي تستطيع أن تتزوّج زهرة؟ بينما كوستانتينو ليدّا بريء. آه، لكنّه سيعود، أقول لك إنه سيعود.

- دعني بسلام يا جاكوبّه. فكّر بما يعنيك. ضع السرج على صهوة الحصان. عمّة باكيسيا؟

جرى جاكوبّه إلى داخل الكوخ فاصطدم بالمرأة وهي خارجة منه.

فقال لها وهو يرتجف: - عليك أن تخجلي، إنّك أتعس من المتسوّلين! لكنّي سأتكلّم أنا مع جوفانّا، سأكلّمها أنا...

أجابت العمّة باكيسيا: - أنت مجنون. ثمّ لفظت بصوت منخفض شتيمة شنيعة، وخرجت.

غادرت بعد قليل هي وبرونتوو. رآها جاكوبّه وهي تبتعد في ضياء الحقول المنعزلة، شيئاً فشيئاً عبر الدرب الرقيق وخلف الشجيرات وخلف دخان الحقول المحروقة. أخذته نوبة من غضب العجز، فخلع قبّعته عن رأسه وألقى بها بعيداً، ثمّ ذهب وأخذها من جديد، ثمّ ضرب الكلب الذي بدأ يئنّ بنباح حزين ملأ صمت المساء العميق. فكرّر الصدى ذلك الصوت الذي لا يوصف والذي بدا وكأنّه صراخ شبح يائس.

هبط الليل. ذهب جاكوبّه ليستلقي على السرير الذي تركه برونتوو قبل وقت قصير، وعندما شمّ رائحة الغرابّا نهض وذهب ليبحث عن قارورة سيدّه وشرب منها. ثمّ عاد إلى الفراش، فشعر هو أيضاً بشيء يغلي في صدره ويغمر قلبه وينفجر في رأسه ويحرق جفنيه. تلاشى الغضب من قلبه ولكنّ الحزن استولى على مجاميعه. تمكّن أن يرى من فتحة في الكوخ الضوء الدمويّ يصدر عن الشجيرات المحترقة ويسود بالتدريج فوق آخر بصيص في الغسق الأزرق: فاندمج الضوءان سويّة في لون أرجوانيّ من حزن لا يوصف. بينما بقي الكلب يئنّ من وقت لآخر. آه، أيّ ألم، يا له من ألم! لماذا ضرب جاكوبّه الكلب المسكين؟ ماذا فعل له؟ لا شيء.

فشعر بندم حادّ رقيق وغير حاسم، ندم مخمور، وفي الوقت نفسه، كان يزعجه عواء الكلب، فعادته رغبة في النهوض ليضرب الحيوان المسكين مرّة أخرى.

ارتجف بدنه عندما تذكّر فجأة برونتوو والعمّة باكيسيا بعد أن كان قد نسيهما منذ لحظات. ماذا يمكن أن يجري في ذلك المساء؟ هل ستعطي جوفانّا موافقتها؟ آه! آه! آه! يا عصفور الربيع الصغير! لماذا ما يزال ذلك الكلب ينبح؟ يبدو كأنّه صوت شخص ميّت. صوت العمّ بازيليو ليدّا، صوت ذلك العقاب العجوز الذي قتل. بوه! بوه! لا يمكن للأموات أن يتكلّموا. ذلك كان صراخ الكلب، ليس إلّا نباح كلب.

ضحك جاكوبّه بهدوء بينه وبين نفسه، وقد بدأ يستولي النوم عليه. انغلق جفناه الثقيلان، ولم يعودا يريان تلك الخلفيّة القرمزيّة الغبشاء التي كانت مثل ستارة تغطّي فتحة الكوخ. بدا له كأنّ كيساً مليئاً بمادّة طريّة لكن ثقيلة يسقط فوقه، فلا يستطيع حراكاً، وإن كان هناك في ذلك الثبات أمر لا يعرف ما فيه من حلاوة وإمتاع. ثمّ بدأ يرى ألف حلم مضطرب، فحلم بين ما حلم أنّه مات بسبب عضّة ثعبان وأنّ روحه دخلت في جسم كلب صغير هزيل أصفر، كان يتجوّل في المطبخ بينما كانت العمّة باكيسيا تبحث عن عظمة. كان كوستانتينو جالساً قرب الموقد، كان يرتدي ثوباً أحمر وهناك قيد كبير على رسغيه. ثمّ رأى الكلب فجأة فرمى له بسلسة القيد، وأحاطت حلقة حديد من القيد برأس الحيوان، غزا الرعب قلب جاكوبّه، وحاول جاهداً أن يتكلّم ليعلم عن نفسه، لكنّه استيقظ وهو يتعرّق ويصرخ:

- يا عصفور الربيع الصغير!

خيّم الليل. تحت السماء الصافية المليئة بنجوم صفراء كبيرة، احمرّت الحقول المقفرة في وضوح الشجيرات المحروقة.

جلس جاكوبّه لفترة طويلة ولم يتمكّن من العودة إلى نومه، ثمّ تقلّب وعاد وتقلّب. لقد تلاشت سكرته لكنّها جفّفت حلقه بطعم الملح. فنهض وشرب. ثمّ تذكّر أنّه لم يأكل في الليلة السابقة، فبقي جالساً منتصباً وهو يفكّر وينظر إلى فتحة الكوخ، فأخذت نيران الحريق تنير وجهه.

أخذ يتساءل من غير أن ينتبه إلى تساؤلاته: - هل أكل أم لم يأكل؟ نظر إلى النجوم. لقد اقترب منتصف الليل. لكن، في نهاية الأمر، ما الذي فعله سيّده، ذلك الوحش؟ وهنا ألّمت به نوبة غضب على العمّة باكيسيا على وجه الخصوص، فهي التي قطعت تلك المسافة وجاءت بلا حياء لتسرع بتنفيذ خطّة ذلك الملّاك الشابّ الجنونيّة. إذ إنّه من المفهوم أنّ أمر القرض لم يكن إلّا حيلة حاكتها تلك الساحرة العجوز كي تستهوي برونتوو، كي تقنعه وتحمله على أن يحزم أمره. آه، إنّها بغيضة تلك المرأة.

أليس لديها ضمير؟ ألا تؤمن بالله؟ تأمّل جاكوبّه ديغاز في هذه الأسئلة، ثمّ عاد واستلقى على مهجعه وهو يتساءل فيما إذا كان جائعاً، وإذا كان عليه أن يأكل.

لا، ليس به جوع، ولا عطش، وهو ليس نعسان. لكنّ نفسه لا تهدأ لا مستلقياً ولا جالساً ولا واقفاً، فحاول أن يشتّت انتباهه وأخذ يجبر نفسه على التثاؤب وقال لها بصوت مرتفع أشياء لا معنى لها. لكنّه بقي مصمّماً على التفكير بذلك الأمر. ما أفظعه! ما أفظعه! تزويج امرأة متزوّجة! وإذا عاد كوستانتينو؟ من يدري: كلّ شيء ممكن في هذه الحياة. ثمّ حتّى لو لم يعد المحكوم، فماذا عن ابنها؟ ماذا سيقول ابنها عندما يبلغ رشده ويعرف أنّه كان لأمّه زوجان؟ من هو الذي سنّ ذلك القانون؟ آه! أوه! لابدّ أنّ أولئك المشرّعين أغبياء بالفعل! ضحك جاكوبّه بصوت مرتفع، لكن كان هناك في داخله، في أعماق قلبه رغبة مختلفة تماماً عن الضحك.

عاد ونهض، واستعاد بطحة الغرابّا وفكّر:

- إذا سأل برونتوو من شرب الغرابّا، فهذا أسوأ له، لأنّي سأقول له إنّ الجرذان هي التي كرعتها. آه! أوه! آه!

ضحك من جديد، شرب، عاد واستلقى. استأنف النوم فحلم أنّه عند أخته، وكان يروي لها عن حلمه بشأن الكلب، بشأن كوستانتينو وذلك القيد.

عندما استيقظ كانت الشمس قد بلغت حدود التلال وراء خطّ الأبخرة الزرقاء. كان الصباح بارداً نوعاً ما وضبابيّاً، بينما كانت جميع الشجيرات والأسيجة والسهول والأعشاب الطريّة البرّاقة تلمع بقطرات الندى تحت أشعّة الشمس المائلة، كما سمع تغريد العصافير وحفيف أجنحتها وهي تنطلق أسراباً أسراباً وتطير متمايلة بأناقة عبر أبخرة الجوّ. لكنّ تغريدها كان يشتدّ في بعض الأحيان فيبدو كأنّه سيل بلّوريّ من أمطار معدنيّة. بينما كان يعلو أحياناً صراخ حادّ، أو نعيق غربان أجشّ، فيغطّي على أصوات تلك الجوقة المعدنيّة المرتعشة، يغطيّها كأنّه خمار من فضّة، هذا قبل أن يتلاشى كلّ صوت ويختفي وسط صمت عميق يسود السهل.

خرج جاكوبّه وهو يزحف ويتثاءب. تثاءب بشكل سمعت معه طقطقة فكّيه، وتجعّد وجهه العاري حول دائرة فمه المفتوح، بينما دمعت عيناه المائلتان، الصفراوان تحت ضوء الشمس، وكأنّهما عينا كلب.

قال وهو يضغط بيديه على بطنه: - حسناً، إنّي أسمع هنا صوت التشنّج، فماذا فعلت مساء أمس؟

ذهب وفتح الحظيرة، فخرج كبش ذو قرون ملتوية وهو يشمّ الأرض، وتبعته مجموعة من النعاج مصفرّة اللون، وهي تتلاحق وتشمّ الأرض. ثمّ تبعتها

مجموعات أخرى حتّى فرغت الحظيرة، لكنّ جاكوبّه بقي بلا حراك، وهو يفكّر منتظراً بالقرب من السياج.

اهتزّ بجسمه وهو يفكّر ويقول في نفسه: - أجل، لم آكل شيئاً مساء البارحة. بل شربت غرابّا السيّد ورأيت أحلاماً. آه، بلى! بلىّ! رأيت كوستانتينو، والكلب، وأختي آنّا روزا. حسناً، عليه اللعنة، لماذا لا يعود، هذا الضفدع العلجوم؟ لقد شربت مثل الوحوش. ثمّ قال في طريقه نحو الكوخ وهو يفكّر: - إنّ الإنسان السكران كالوحش، لا ينتبه إلى أيّ شيء، ويفصح عن أفكاره بصوت مرتفع. هذا ضارّ يا جاكوبّه ديغاز، أيّها الرأس الأصلع، فخذ الأمر بعين الاعتبار. آه لا، لا، لن أشرب من جديد أبداً وليعاقبني الربّ إذا فعلت.

بعد قليل عاد السيّد. نظر إليه جاكوبّه بثبات وابتسم. ثمّ قال وهو يتوجّه ليرحّب به: - آه، عليك أمارات رجل مضروب بالعصا، فماذا جرى لك يا عصفور الربيع الصغير؟

- لا شيء. انقلع من هنا.

لكنّ الآخر لم ير الأمر على هذا النحو، بل أخذ يحوم حول برونتوو، يتواثب بدعة مثل الكلاب، ويسأل، ويصرّ على أن يعرف. لذلك فقد بدأ الفتى ينفّس عمّا في نفسه، خاصّة وأنّه كان في أمسّ الحاجة إلى ذلك. حسناً، أجل، لقد طردته جوفانّا كأنّه شحّاذ لجوج، قالت له ألا تعرف أنّ عندها ابن يمكن أن يبصق في وجهها ذات يوم ويقول لها: «لماذا لك زوجان؟»

فصرخ جاكوبّه وهو يقفز من شدّة الفرح: - كنت أعرف هذا يا روحي!

- وماذا كنت تعرف أنت؟

- لا، لا شيء، أنّ لها ابناً.

- وأنا كنت أعرف هذا أيضاً. لكنّها طردتني، هذا كلّ شيء. سمعت بعد ذلك وأنا في الطريق صوت الأمّ وابنتها وهما تتشاجران بحدّة.

بحث برونتوو بعد ذلك عن قارورة الغرابّا. فشعر جاكوبّه بالسرور، بل أراد أيضاً أن يضحك.

قال: - حسناً، لقد شربت الجرذان الغرابّا هذه الليلة: آه! آه! آه! ولكن قد يكون قد بقي شيء منها، أجل، لقد بقي شيء منها.

شرب برونتوو بشراهة، دون أن يجيب، ثمّ رمى القارورة بغضب على الخادم فتناولها هذا بسرعة فائقة. لقد شرب برونتوو منها وهو في أشدّ الألم، بينما شرب جاكوبّه وهو في أشدّ السرور.

الهيئة العامة السورية للكتاب

- VIII -

بعد مرور حوالي ثلاث سنين على صدور الحكم، استيقظ كوستانتينو ذات صباح في نهاية الصيف، وهو سيّء المزاج. كان الحرّ قاتلاً وتسود في المهجع رائحة مقزّزة. بينما كان أحد المحكومين يشخر وينفخ مثل قدر يغلي.

كان كوستانتينو قد أخلد إلى النوم ورسالة جوفانّا الأخيرة تحت رأسه، كانت رسالة مقتضبة وحزينة إلى أبعد درجة: جاء فيها أنّ جوفانّا وأمّها في فقر مدقع وأنّ الطفل مريض بشدّة.

لم ير كوستانتينو أنّه من القسوة بمكان أن تكتب إليه بتلك الطريقة، لأنّه يريد معرفة الحقيقة، حتّى لو كانت مؤلمة، وظنّ أنّ من واجبه التفريق بين أوجاع جوفانّا وتألّمه من شدّة إلياس لأنّه لا يستطيع أن يمدّ لها يد العون. يا له للأسف من واجب عقيم، وكان يشعر بهذا، فكانت أحزانه تزداد.

كان قد أصبح ماهراً في عمل الأحذية، وكان يعمل بهمّة ونشاط وإن كانت أرباحه قليلة، وكان يرسلها على قلّتها إلى جوفانّا بعد أن يقتطع منها الذي يفرضه عليه ملك المجارف ثمناً لخدماته الكثيرة.

كان الضابط السابق يقول له: - كلمة شرف، لست إلّا سعداناً، كلها أنت، لأنّ من واجبهما هما أن يرسلا النقود إليك.

- لكنّهما فقيرتان معدمتان.

فقال الثاني: - لا، أبداً! عندهما الشمس. ماذا تريدان أكثر من ذلك! إذا أنت أكلت وشربت فإنّك تفعل عمل خير. لكنّك نحيل مثل العصا، كما ترى

يا صديقي العزيز. أنا لست كذلك. إيه، فأنا أسمن يا عزيزي، أنا سمين. لكنّ شحمي من هواء. لا يهمّ، فأنا أزداد سُمناً.

ففكّر بمرارة: - الشمس! - آه، أجل، عندهما الشمس! لكن ما فائدة الشمس عندما لا تأكل، أو وأنت مريض وتعاني بكلّ الطرق؟

هذا مجرّد حماقة، أجل، لكنّه كان يبكي مثل الأطفال عندما كان يفكّر أحيانا بمثل هذا.

مع أنّه كان يأمل على الدوام. بينما كانت السنون تنقضي، وتتساقط الأيّام متشابهة ببطء شديد، يوماً بعد يوم، مثل قطرات ماء في مغارة تقطر من حجر وتسقط على حجر. وكان جميع المدانين تقريباً، وخاصّة أولئك الذين يقضون عقوبة غير طويلة جدّاً، كانوا يأملون بالعفو، وكانوا يتسلّون بتعداد الأيّام التي قضوها والأيّام التي سيقضونها، يعدّونها بوضوح يثير الدهشة، من غير أن يخطئوا ولا يوماً واحداً.

بل كان بعضهم يندفع بمهارته إلى حدّ تعداد الساعات. لكنّ كوستانتينو كان يقول إنّ هذا غباء، وكان يبتسم عندما يفكّر أنّه من الممكن أن يموت المرء أو أن يطلق سراحه قبل تلك الساعة. كلّ شيء بيد الله. كما أنّه كان هو أيضاً يرجو الإفراج عنه قبل الساعة المحدّدة، لكنّ تلك الساعة كانت بطيئة جدّاً ولا تأتي إلّا رويدا رويداً! وهذا ما شعر به عمليّاً ذلك الصباح، عندما استيقظ ولمس تلك الورقة الدافئة التي كتبت عليها رسالة جوفانّا.

نهض وارتدى ملابسه وهو يتنهّد. عن يمينه توقّف رفيقه عن الشخير، ففتح عيناً مغبّشة وجلس لينظر إلى كوستانتينو كما لو أنّه لا يعرفه. ثمّ عاد وأغمض عينه.

- هل تشعر بألم؟ سأله بعد أن سمع تنهّدات كوستانتينو. آه، صحيح، فابنك مريض. لماذا لا تخبر المدير؟

- ولماذا يجب أن أخبر المدير؟ لابدّ أن يضعني في زنزانة إذا عرف أنّي أستلم مثل هذه الأخبار.

فجاء صوت يقول بسخرية: - وعلى حمية الخبز والدجاج. يعني الخبز والماء.

فضحك شخص آخر. شعر كوستانتينو بلا مبالاة أولئك الأشخاص الذين يعيش بينهم، فبدا له أنّه وحيد، تائه وسط صحراء حارقة، يثير هواؤها الغثيان.

ذهب إلى العمل وهو ينتظر بقلق ساعة التنفّس ليتمكّن من محادثة ملك المجارف. فمع أنّه لا يحترم البتّة ذلك الرجل البدين الأصفر، فقد كان يشعر أنّ هذا ضروريّ له بالفعل. كان هو السلوان الوحيد بالنسبة إليه. لأنّه هو الوحيد الذي يفهمه، ويعطف عليه، ويساعده. صحيح أنّه يأخذ ثمن هذا، لكن ماذا يهمّ؟ هذا لا يعني أنّه غير ضروريّ لكثير من المدانين، وخاصّة بالنسبة إلى ابن منطقته، الذي كان قد بدأ ينظر بألم أناني إلى الساعة التي قد يخرج فيها ملك المجارف بعد أن ينهي محكوميّته.

في ذلك اليوم أدخلوا إلى مهجع الحذّائين مداناً جديداً، شخصاً من الشمال، نحيفاً وطويلاً، وجهه رماديّ مجعّد وله عينان صغيرتان بيضاوان. من الصعب تخمين عمره، لكنّ الرفاق ضحكوا عندما قال إنّ عمره اثنتان وعشرين سنة، وقد بدأ يتذمّر مباشرة من الحرّ ومن روائح النتن التي تملأ الهواء.

آه، لم يكن هذا إسكافيّاً، لا. كان الابن الوحيد لبائع أحذية بالجملة ثريّ، أي أنّه كان سيّداً هو الآخر. ثمّ أخذ يقصّ في الحال قصّته الحزينة: فقد قتل منافسه في الغرام وصوّب عليه الرصاص بعد أن استثاره، ولا شيء غير هذا. وكانت المرأة،

سبب هذه الجريمة، مريضة في صدرها، وهي الآن تموت من الحزن. تموت ولا شيء آخر. لكن هناك أمراً آخر. وهو أنّ المدان ترك وراءه ولداً، طفلاً بعمر صغير، ابنه وابن المرأة المريضة، وإذا ماتت هذه فإنّ الطفل سيبقى يتيماً ومشرّداً.

جفل كوستانتينو، ليس لأنّ قصّة الرجل المدان حرّكت مشاعره، ولكن لأنّ ذلك الطفل وتلك المرأة ذكّراه بجوفانّا ومالثينيدو المريض.

بدأ الوافد الجديد يعمل على الفور فقصّ نعلاً بكلّ براعة، والتزم الصمت أخيراً ورأسه محنّي إلى الأسفل وهو منهمك في عمله، بينما بدت شفته السفليّة كأنّها تهتزّ بالرعاش، مثل طفل على وشك البكاء. نظر إليه كوستانتينو، ورأى أنّ هذا الرجل لا بدّ أنّه يعاني الكثير. لكن كما كان الآخرون لا يبالون بآلامه، فكذلك هو لم يتمكّن من مشاركة غيره في أحزانهم. غير أنّه شعر أنّ حزنه يزداد وكذلك رغبته في الخروج.

عندما رأى ملك المجارف جذبه إلى زاوية في الظلّ قرب جدار حارّ، لكنّه لم يعرف أن يخبره بشيء من آلامه. وما الفائدة من ذلك؟

لكنّه قصّ عليه قصّة المدان الجديد، فرفع الثاني كتفيه ثمّ التفت وبصق على الجدار وقال:

- يمكن له إذا أراد أن يكتب هو أيضاً، لكنّي أوصي بالحذر، فهناك من يشتمّ الروائح في الهواء.

فسأله كوستانتينو مغتمّاً: - وماذا سنفعل؟ ماذا سنفعل عندما لن تكون هنا بيننا؟

فقال الآخر مازحاً: - وهل تريد لي أنت البقاء هنا على الدوام؟

- العياذ بالله! لا، بل إنّي أتمنّى لك الخروج بأقصى سرعة، غداً...

فتنهّد ملك المجارف: واحسرتاه! إنّ الأعداء يجدون دائماً فنوناً شيطانيّة جديدة لإبقائه في السجن. وأنّه لم يعد يأمل في العفو، لكنّ وقت الخلاص على أيّة حال أصبح قريباً. ثمّ أردف قائلاً إنّه سيذهب بعد ذلك إلى الملك ليخبره كيف تسير الأمور. وسيأمر الملك على الفور بمراجعة القضيّة وستثبت براءة ملك المجارف وسيعاد مباشرة إلى منصبه. بل ومن يدري، فلربّما قلّدوه وساماً أيضاً يضعه إلى جانب الأوسمة الأخرى.

كما أنّه كان يعد الجميع، ولاسيّما كوستانتينو، بأن يعفى عنهم مباشرة بعد إطلاق سراحه.

حسناً إذاً! بهذا كان يصادق بنفسه على أقواله، بل إنّه بدأ يعتقد أنّ عليه الوفاء بكلّ هذه الوعود التي أغدق في تقديمها.

- غداً! ليت ذلك غداً! سيكون هذا جيّداً للجميع.

- فأجاب كوستانتينو: - جيّداً أو سيّئاً!

فأردف الثاني: - من ناحية أخرى أنت لن تكون بحاجتي عندما أصبح أنا في الخارج.

لكنّه سرعان ما ندم على هذه الكلام، فعندما رأى أنّ كوستانتينو يهزّ رأسه متشكّكاً، فكّر: - ربّما ظنّ أنّني أشير إلى العفو عنه، لذلك فقد نظر إليه نظرة شفقة صادقة.

وسأله: - لكنّك بريء، هل أنت حقّا بريء؟ بإمكانك الآن أن تخبرني بكلّ شيء يا صديقي العزيز. تذكّر أنّك قلت لي عندما سألتك هذا السؤال لأوّل مرّة: إنّي لن أستطيع أن أنظر في وجه ابني إذا كنت مذنباً!

- هذا صحيح! وهل تريد الآن أن تقول إنّي ربّما لن أرى ابني ثانية؟ فليفعل الله ما يشاء، لكنّي أنا بريء.

التقت ملك المجارف ثانية نحو الجدار وبصق مرّة أخرى.

- تحلّ بالصبر يا عزيزي، تحلّ بالصبر. قال لكوستانينو: - تحلّ بالصبر. وكان صوته دافئاً وصادقاً.

كان ملك المجارف يظنّ أنّه رجل متفوّق، وكان يقدّر نفسه تقديراً كبيراً لأنّه كان يحترم الأشخاص الصادقين: لهذا السبب بدأ يحبّ كوستانتينو على طريقته الخاصّة، وبعدما عرفه حقّ المعرفة، وعرف روحه البسيطة، وأنّها قدّت من معدن نقيّ لم يتمكّن حتّى الفساد الكبير المنتشر في السجن أن يؤثّر عليه.

إذاً لقد سمح الضابط السابق لنفسه أن يقرأ الرسائل التي كانت تصله قبل أن يعطيها إلى ذلك المحكوم. وكانت قد جاءت مؤخّراً رسالة من مصدر مجهول ومكتوبة بشكل سيّئ، بحروف كبيرة تشبه الحشرات أو الوحوش الصغيرة. لكنّ تلك الحشرات السامّة وتلك الوحوش الصغيرة كانت تبثّ الرعب، وتقول إنّ جوفانّا، زوجة المحكوم، قد سمحت لبرونتوو ديغاز أن يغازلها، وإنّ العمّة باكيسيا تريد أن تسافر إلى نوّرو لتعرض على محام هناك استلام قضيّة تطليق ابنتها.

غضب الضابط السابق غضب الكلاب، فسمعه صديقه المندوب، الذي كان يجتهد حول عمله الرائع، وهو يئنّ وتنتفخ لهذا وجتاه المصفرّتان انتفاخاً شديداً.

فكّر ملك المجارف في نفسه: - يا لهم من أغبياء، حمير أهالي سردينيا أولئك! لماذا يخبرونه بالأمر؟ وماذا بوسعه أن يفعل سوى ضرب رأسه بالحائط؟

لذلك فلم يعطه الرسالة، بل كان ينظر إلى المدان كلّما رآه بشفقة عارمة، بينما هو سعيد في قرارة نفسه لأنّه على طيبة النفس تلك.

مات الطفل بعد ثلاثة أيّام، وقد عرف كوستانتينو بالخبر بطريقة مباشرة. بكى في صمت، وهو يختبئ بينما أراد أن يظهر قويّاً أمام رفاق عمله ومصيبته. أمّا أرنولفو بيلّيني، ذلك الذي كانت عشيقته مريضة، فقد بدأ يبكي عندما عرف بمصيبة ذلك المدان من أهالي سردينيا، بكى بطريقة غريبة وهو يطلق صراخاً مثل صراخ الدجاج، وظهر مضحكاً وهو يبكي بذلك الثوب الرماديّ الذي يذكّر بثياب طفل عجوز، حتّى أنّ السجين من منطقة أبروتسو، ذلك الذي كان في خصام دائم مع أخيه، أخذ يضحك منه، لكنّ مداناً آخر وخز بطرف المخرز فخذ سجين الأبروتسو، فجفل هذا وتوقّف عن الضحك قائلاً: - أي. من غير أن يحتجّ أهالي سردينيا.

نظر كوستانتينو بدهشة إلى بيلّيني وهزّ رأسه ثمّ عاد ليستأنف عمله. صمت الجميع وهدأ ذلك الشماليّ كلّ الهدوء. بينما كان يضيئ في أسفل القوس المنخفض ضوء فجّ يصل من الرواق المظلّل. وكان الحرّ الشديد يستمدّ روائح واخزة من جلود الإسكافيّين وأيدي المساجين المتعرّقة وأرجلهم.

كان عدد هؤلاء المساجين ثلاثة عشر، موضوعين على الدوام تحت حراسة رجل طويل القامة شاربه أحمر ولا يتكلّم أبداً. وكانوا جميعاً متشابهين، بل إنّ أثوابهم الموحّدة والشعر الحليق على رؤوسهم ولحاهم وتعابير الاضطراب التي تعلو وجوههم تجعلهم يظهرون جميعاً كأنّهم إخوة، أو أقارب على أقلّ تقدير. ومع ذلك فإنّ كوستانتينو لم يشعر البتّة كما شعر في ذلك اليوم أنّه غريب وبعيد عن رفاقه في العذاب. كان يرتدي مئزراً من جلد ويجلس منحني القامة، وكان يخيط، ويخيط حذاء موضوعاً بين ساقيه. ثمّ ينظر باهتمام بين الحين والآخر إلى الحذاء قبل أن يعود ثانية للخياطة فيسحب الخيط بكلتا يديه وهو يكاد أن يكون على أشدّ الغضب. آه، لقد مات الطفل ويجب عليه الآن أن يعمل. فهل كان يحبّه كثيراً؟ لم يكن يعرف. فهو لم يره إلّا مرّة واحدة في نوّرو، وعبر الشبكة المعدنيّة في

صالة اللقاءات، وكان على ذراع جوفانّا الباكية. كان وجه الطفل أحمر، شبيهاً بما لا يعرف، مثل بعض ثمار المشمش الناضجة، وكانت عيناه مشرقتين تبرقان بلون أرجوانيّ مثل حبّتين من عنب، مخفيّتين خلف الغطاء الأحمر على رأسه. كان يبكي ويصرخ خلال ذلك اللقاء، وكأنّه خائف من الحرس الواقفين متصلّبين بثبات، ومن تلك الشبكة المعدنيّة التي تشبّثت بها يداه الصغيرتان الورديّتان المتشنّجتان.

لا يحتفظ كوستانتينو بذكرى ثانية عن ابنه الصغير. فهو رغم مرور السنين، بقي يتذكّره باكياً، أحمر الوجه، بعينين صغيرتين قرمزّيتين مخفيّتين خلف الغطاء الأحمر على رأسه. لكنّه كان يفكّر دائماً بمستقبله، بالوقت الذي سيكون فيه مالثينيدّو رجلاً كبيراً قادراً على قيادة عربته، وعلى ركوب الحصان، وعلى الزراعة والحصاد، عندما سيكون قرّة عين لأمّه وعوناً لها. آه! كان السجين يأمل دائماً في عودة سريعة إلى بلده، ولكن ما إن يشعر أحياناً أنّ هذا أمل لا جدوى من ورائه، فإنّه كان سرعان ما يفكّر بابنه. وقد أحبّه من أجل جوفانّا وليس بسبب تلك المشاعر الأنانيّة التي تتولّد بفعل العادة والقرب.

لكنّ الطفل مات الآن. وماتت معه الأحلام. فالحمد لله على ما شاء الله. لكنّ كوستانتينو كان يتألّم أشدّ الألم عندما يفكّر بأحزان زوجته.

عندما شاهد ملك المجارف في ذلك اليوم ابن منطقته الغالي وهو واقف في ظلال الجدار الدافئة، أدرك في الحال أنّ كوستانتينو كان يتعذّب من أجل زوجته بأشدّ من عذابه من أجل موت الطفل. لكنّه أخذ يواسيه بطريقة غريبة، وبدأ يقول له بسخرية ظاهرة:

- حسناً يا عزيزي، أنت مجنون إذ تتألّم بهذه الطريقة. عليك أن تفكّر بنفسك، عليك أن تفكّر أنّه إذا كان الله قد اختار إلى جنبه تلك الروح البريئة، فهو إنّما فعل ذلك على الأرجح لمصلحته.

فسأله كوستانتينو وقد حنى رأسه ودلّى ذراعيه وفتح يديه: - لماذا؟ هل لأنّه فقير؟

كان ملك المجارف يميل في ذلك اليوم إلى الفلسفة فقال إنّ الفقر ليس شرّاً، على العكس، لا بل إنّ الخير كلّه فيه.

- وهناك يا صديقي العزيز شرور أخرى. ففكّر في نفسك، أمّا زوجتك فتتسلّى وترتاح.

فقال كوستانتينو وهو يضمّ يديه: - آه، حسناً، نسيت أنّ لديها الشمس! هذه الشمس الحارقة! آه، وماذا ستفعل الآن هي بالشمس؟

- بوف! بوف! بوف! أنشد الآخر وهو ينفخ ثلاث مرّات وجنتيه السمينتين المصفرّتين. ثمّ إنّ ذهنه تشتّت وهو ينظر مطوّلاً إلى ظفر خنصره اليمنى، ثمّ قال بصوت مرتفع:

- أخبرني يا صديقي العزيز، ماذا لو تزوّجت زوجتك برجل آخر؟

لم يفهم كوستانتينو العبارة تماماً، ومع ذلك فقد تصلّبت ذراعاه.

قال بصوت حزين: - من الأفضل ألّا تخبرني الآن بهذه الأمور.

- بوف! بوف! بوف! عاد الضابط السابق لينفخ وينشد.

ساد صمت قصير، ثمّ:

- هاك يا بن منطقتي العزيز، إنّك لم تفهمني كما يجب. إنّ زوجتك صادقة شريفة، لا أشكّ في هذا أبداً. لكنّي أتساءل ماذا لو تزوّجت برجل آخر؟

- هل حقّاً أنّك لم تفهمني بعد؟ لا بدّ أنّ هذا الرجل بسيط إلى درجة لا تصدّق! أقسم بشرفي أنّك تبدو انساناً طليق القلب لأنّك ما زلت بريئاً. ثمّ صرخ:

- هل من الممكن أنّك لا تعرف أنّه يوجد الآن الطلاق؟ أي أنّ بوسع امرأة لها زوج مدان بأكثر من عشر سنوات أن تطلب الطلاق وتتزوّج برجل آخر.

رفع كوستانتينو رأسه، وانفتحت عيناه الغائرتان فظهرتا مستديرتين، واسعتين، لكنّهما عادتا مباشرة لتنغلقا.

قال: - لن تفعل جوفانّا هذا.

وساد صمت آخر قصير.

- لن تفعل جوفانّا هذا. كرّر السجين هذا في نفسه، هذا بينما شعر بشيء غريب، كأنّ سكّيناً باردة شطرت قلبه إلى نصفين. كان النصف الأوّل يشعر بألم عنيف بينما كان الثاني يصرخ: - لن تفعل هذا! بعد ذلك نسي كلا النصفين الطفل الميّت.

- لن تفعل هذا! بقي يصرخ واحد من نصفي القلب. بينما استسلم النصف الثاني وانضمّ للنصف الآخر، وعادا سويّة ليذكّرا الألم السابق.

قال ملك المجارف: - حسناً، أظنّ أنا أيضاً أنّها لن تفعل ذلك. لكن قل لي شيئاً يا صديقي العزيز، أفلا تحسن أمّه عملاً إذا أقدمت الآن على تلك الفعلة، خاصّة وأنّ الطفل قد مات، وأنّه لم يبق لها أمل لا به ولا بك؟ حسناً، أنا أرى أنّها ستكون حمقاء إذا لم تفعل ذلك إذا حانت لها الفرصة.

ففكّر كوستانتينو: - برونتوو ديغاز! لكنّه كرّر ثانية: - لا، إنّها لن تفعل.

- لكنّك أحمق يا صديقي العزيز. أليس من العدل أن تفعل هي ذلك؟

- لكنّي أنا سأعود.

- وماذا يدريك عن الأمر؟

- لكنّي أكتب لها وسأبقى أكتب لها.

رغبة في الضحك عادت ملك المجارف، لكنّه غضب من نفسه بسبب هذه الرغبة، وبقي يفكّر إلى أن قال كأنّما ليجيب على تساؤل في نفسه:

- هذه حماقة.

- حقّاً! أجاب كوستانتينو مباشرة. هذا بينما كان يفكّر في برونتوو ديغاز، في بيته ذي الرواق، في مراعيه وقطعانه، في بؤس جوفانّا، ويا لحسرته إذ أخذ نصفا قلبه يشعران الآن بآلام جرحه.

في تلك الليلة نفسها كتب إلى جوفانّا ليواسيها، وكرّر وقال إنّه كان يرجو على الدوام رحمة الله. وأضاف قائلاً بمشاعره الطيّبة: - ربّما أراد الله أن يمتحننا من جديد فأخذ منّا ثمرة خطيئتنا. فلتكن مشيئته. لكنّي أشعر الآن باقتراب ساعة الإفراج عنّي.

ثمّ فكّر لفترة طويلة، وتساءل عمّا إذا كان عليه أن يكتب عن ذلك الشيء الرهيب الذي ذكره الضابط السابق. لكن لا. كان يعتقد أنّه فطين بما يكفي فلا يشير حتّى إلى ذلك، ولو مجرّد إشارة. كما على جوفانّا أن تظنّ أنّه يجهل حتّى وجود مثل هذا القانون الجهنميّ.

اطمأنّت نفسه بعد أن كتب رسالته، رغم أنّ سوسة صغيرة مماحكة لم تفتأ تحقن دمه بذلك السمّ الرهيب.

ففكّر الضابط السابق أنّ عليه أن يتعوّد، وإلّا فإنّ هذه النفس البسيطة ستموت حسرة.

كان يعتقد أحياناً أنّه ربّما من الأفضل تركه يموت، لكنّه ما يلبث أن يتذكّر أنّه وعده بالعفو، وعندما يتهيّأ له أنّه قادر على ذلك، فإنّه كان يعود لتعذيبه

ليحول دون موته إذا طلبت جوفانّا الطلاق. كان على يقين من أنّها كانت تفكر بهذا بالفعل، لذلك فإنّه كان يغضب عندما يتحدّث كوستانتينو عنها بمحبّة.

قال له، وهو ينفخ كالعادة، ذات يوم من أيّام تشرين أوّل: «عزيزي يا عزيزي العزيز، أنت لا تعرف النساء. جرار فارغة، هاك، لسن إلّا جراراً. كنت مخطوباً ذات مرّة. هل يبدو لك ذلك مستحيلاً؟ أجل، يبدو الأمر مستحيلاً حتّى بالنسبة إليّ، فكّر! بعد ذلك؟ كلّ ما في الأمر أنّها كانت تخونني بالفعل، حتّى قبل أن أتزوّجها. هذا كلّ شيء. لذلك فإنّك تثير غضبي، أنت تغضبني، فبغضّ النظر عن كلّ شيء، فإنّ زوجتك هي الآن في حالة مختلفة، إنّها فقيرة، وهي شابّة صغيرة، تجري الدماء في عروقها. هل تجري أو لا تجري الدماء في عروقها؟ فإذا أراد ديغاز هذا أن يتزوّجها، فستكون مجرّد إوزّة إن لم تقبل.

فسأله كوستانتينو بدهشة: - من، ديغاز؟ من أخبرك بهذا؟

- أوه، ألم تقل لي أنت هذا؟

لم يبد لكوستانتينو أنّه تكلّم معه أبداً بهذا الأمر. لكنّ أفكاره كانت مضطربة منذ بعض الوقت! آه، يا إلهي الرحيم، أيّها القدّيس قسطنطين البديع! كيف كان له أن يتكلّم عن ذلك الشخص؟

ثمّ واصلا الحديث بأمور أخرى وبلهجة سردينيا كيلا يفهمهم بقيّة المساجين. تكلّما عن الطالب المصاب بالسلّ الذي كان يزداد اقتراباً من أبواب العالم الآخر، وعن آرنولفو بيلّيني الذي كان يبكي بغباء كلّما رأى ذلك الطالب، وعن المندوب الذي كان يتجوّل حول النافورة، وعن الطائر الذي كان ينحف ويفقد ريشه بسبب الهرم.

ثرثرة وبغضاء وضغائن وأهواء وجبن ومساخر، كانت كلّها تجمع أو تفرّق بعض المساجين عن بعض، ومع الحرس، ومع الرؤساء. لكنّ كوستانتينو بقي معزولاً عن كلّ تلك الأمور.

فقد بدا أنّه هو والطالب والمندوب يعيشون منعزلين عن الآخرين، ولا يقتربون إلّا من الضابط السابق، الذي بقي محرّك كلّ ما خفي من أحداث في السجن، والذي بقي أعلى من الجميع، وضروريّاً للجميع.

كان كثيرون ينظرون بعين الحسد إلى تقريب كوستانتينو منه، فكانوا يرجونه أن يتوسّط لهم لدى ملك المجارف لينالوا بعض الخدمات. فكان السجين يرفع كتفيه، وعندما كان البعض يعرضون عليه المال كانت تراوده الرغبة في أخذه وهو يستسلم لنزوة مؤلمة تدعوه إلى مساعدة جوفانّا بأكثر ما يستطيع: ولم يكن يفكّر في أيّ شيء آخر.

بدأ يكره ملك المجارف أكثر فأكثر بسبب تلميحاته المستمرّة التي كانت تخزه مثل الدبابيس: بل إنّهما تشاجرا ذات يوم شجاراً حادّاً، وبقيا لبعض الوقت لا يتبادلان التحيّة. لكنّ كوستانتينو شعر بالاختناق. بدا له وكأنّه عاد إلى زنزانته، وانفصل إلى الأبد عن العالم الخارجيّ، لذلك فقد بدأ بنفسه فأذلّها طلباً للمصالحة.

تقدّم الخريف، وبرد الجوّ، وبدت السماء كأنّها مخمل أزرق رقيق بعيد وحلو كالأحلام. وكان الهواء يحمل معه أحياناً روائح ثمار ناضجة.

شعر كوستانتينو أنّ عذابه قد خفّ وإن بقيت أحزانه تملأ قلبه، بدأ يهزل لأنّه كان يحرم نفسه من كلّ شيء ليرسل النقود إلى جوفانّا، وبينما كان بقيّة المساجين يتلقّون النقود قلّت أو كثرت، كان هو يحرم نفسه حتّى من النقود التي يكسبها.

قال له الضابط السابق: - لا أفهم كيف تزداد احمراراً ويبدو أنّك تصغر، بل إنّك أصبحت شفّافاً يا عزيزي.

كان كوستانتينو يشعر أحياناً بوجهه يحترق والدم يغلي في رأسه. ثمّ وهو يسقط من شدّة الوهن ويتألّم بسبب الحنين كما لم يتألّم حتّى في السنة الأولى. كان يرى المرتفعات كأنّها نائمة في سكون الخريف، صفراء تحت السماء الصافية. بينما الشمس الدافئة تضرب الجبال. وكان يشمّ رائحة الثمار القليلة والكروم التي تأخّر نضجها في أرض الرعاة والنحل تلك. كان يرى الثعالب والأرانب البرّيّة وخلايا النحل والطيور البرّيّة والخيول والأسيجة المغطّاة بالتوت الأسود، وكلّ الأشياء التي أثّرت في طفولته البائسة والمتمرّدة والسعيدة وملأتها بأفراح جامحة. تذكّر عمّه، ذلك العقاب الهرم القاسي، الذي عذّبه في حياته، وعذّبه بهذه الطريقة حتّى بعد الموت، فشعر بموجة من الكراهية ضدّ ذلك الميّت، ثمّ فكّر: - لم يبق منه شيء بعد الآن! - فندم وصلّى على روحه.

لم يكنّ بغضاء لمخلوق غيره، لا أحد، لا أحد. ولا حتّى القاتل الحقيقيّ، ولا حتّى برونتوو ديغاز الذي لم يكن لديه حتّى الآن ما يوبّخه عليه، ولا حتّى ملك المجارف الذي كان يعذّبه باستمرار. لم تكن لديه قوّة على البغضاء. كان يشعر بحلاوة حزينة في دمه، تشبه ما يشعر به شخص على وشك أن ينام. من هذه الحلاوة الحزينة الواهنة كان لا ينبثق إلّا شعور بالحبّ، لطيف وحلو ورقيق وحزين مثل سماء الخريف. كان ذلك الشعور يخصّها وحدها، لها فقط، كان هي بالذات. وكان يفكّر فيها على الدوام، بها دائماً، دائماً بها.

كلّما انقضى الوقت كان يشعر بازدياد حبّه لها، كانت هي وطنه البعيد، وهي العائلة والحرّيّة والحياة: كانت كلّ شيء، وكلّ شيء كان فيها. كان فيها الأمل والإيمان والقوّة والصفاء وفرحة الحياة، وكانت هي روحه.

عندما كان ملك المجارف يهدّده بذلك الأمر المرعب، فكأنّما كان يهدّده بالموت. كان بوسعه أن يقبل المكوث في السجن لأربعين سنة مسروراً، كيلا يفقد جوفانّا، وكان في الوقت نفسه يرنو نحو الحرّيّة كيلا يفقد جوفانّا.

عانى في ذلك الشتاء أشدّ المعاناة بسبب البرد، كان وجهه أزرق مكدوماً وأظافره قاتمة اللون، فكان يقف خلال ساعات التنفّس في الشمس بينما تصطكّ أسنانه كأنّه رجل عجوز. وكان كثيراً ما يطلب الذهاب للاعتراف، وكان يبوح للكاهن الشابّ بكلّ المآسي التي كانت تقلقه.

فسأله الكاهن بينما كانت عيناه السوداوان تبرقان: - ومن الذي أدخل إلى رأسك هذه الأفكار يا بنيّ العزيز؟

- شخص من منطقتي، الضابط السابق مورّاري، أي ملك المجارف.

فتمتم الكاهن وقد اغتمّ وجهه قلقاً: - باركك الله بأفضل بركاته. ذلك أنّه كان يعرف ملك المجارف حقّ المعرفة.

حاول تسلية السجين، ثمّ سأله فيما إذا كانت جوفانّا تراسله وماذا كانت تقول في رسائلها. وللأسف، فهي كانت قلّما تكتب له في الآونة الأخير، وبضعة سطور فقط. فهي لم يكن لديها الكثير لتقوله بعد أن مات الطفل. وقالت مؤخّراً إنّ البرد قد اشتدّ كثيراً في البلدة، وقد سقط الثلج مرّتين فمات في المرّة الأخيرة رجل بين الجبال من شدّة الصقيع. كما أضافت جوفانّا قائلة إنّ مجاعة كبيرة تجتاح البلد.

أغرق هذا كلّه قلب كوستانتينو بكرب لا يطاق. وكان يحلم في كثير من الأحيان بأنّه يقاد إلى نوّرو ليطلق سراحه: فكان عليه أن يسير على قدميه من هناك ليصل إلى قريته، وكان يشعر بالبرد، فلا يستطيع أن يتقدّم إلى أبعد ممّا وصل، فمات، أجل مات... وهنا كان يستيقظ وقد تجمّد من شدّة البرد، تملؤ قلبه الحسرة من كرب شديد.

قال له الكاهن:

- إنّك ضعيف للغاية يا أخي العزيز، والوهن هو الذي يسبّب لك كلّ هذه الأفكار التعيسة. زوجتك مسيحيّة صالحة، ولن تسيء إليك أبداً، هيّا، أبعد عن خيالك هذه الأفكار القبيحة. إنّك بحاجة لأن تتقوّى، فكل واشرب المزيد، هل تربح شيئاً ما؟

- القليل، لكنّي أرسل كلّ شيء إلى زوجتي، فهي فقيرة بالفعل. لكنّي آكل بما فيه الكفاية، ولست ضعيفاً، أمّا الشراب، فلا أحبّه، بل إنّي أشمئزّ منه.

- حسناً، طمأن نفسك، سأتكلّم أنا مع بورّاري... كي يتركك في أمان وسلام.

وفي الواقع فقد تحدّث مع ملك المجارف وأنّبه على تلك الأفكار الحزينة التي كان يزرعها في رأس ليدّا.

- إنّه فتى بائس، مريض، دعه بسلام وإلّا فإنّه سيصاب بآفة.

نظر ملك المجارف إليه مطمئنّاً بعينيّ الخنازير الصغيرتين المطبقتين من شدّة الخبث، ثمّ نفخ، وهزّ رأسه في النهاية وهو يقول:

-إنّما أفعل ذلك لمصلحته.

- أيّ مصلحة ومصلحة! أنت يا هذا...

- إنّي أقول يا صديقي العزيز، هاك، معذرة. هناك القليل ممّا يمكن أن نخشاه في هذا الشتاء فيما يتعلّق بالفتاة، لأنّ الطقس بارد جدّاً. لكنّي أظنّ أنّ العجوز، أي حماة كوستانتينو، هي في الوقت الحالي الوحيدة التي ستصرخ بصوت مرتفع، وتنصح ابنتها، لا بل تطلب منها أن تستفيد من هذه الفرصة. ولكن بعد ذلك سيأتي الربيع، هذا كلّ شيء.

استطال وجه الكاهن، وارتجّ كلّ جسمه، ولم يفهم شيئاً، بينما استمرّ الآخر في النظر إليه بعينيّ الخنازير المليئتين بالخبث، وظنّ أنّه من المناسب أن يشرح له الأمر بعبارات أوضح، وأن يفصّل له أمور جشع الحماة وصبا الزوجة ومخاطر الربيع... فغضب الكاهن غضباً شديداً.

قال له وهو يتواثب هنا وهناك ويضرب يديه وتتقدّ عيناه: - إنّك شخص لا يطاق! لماذا لا تني عن تخيّل هذه الأشياء؟ لماذا تعذّب ذلك الفتى البائس؟ هل يعني وجود خطيب حول الفتاة يعني أنّ...

قال له ملك المجارف: - لا تتسرّع وتغضب أيّها الصديق العزيز! ثمّ عرض عليه الرسالة التي جاءت من مجهول في بلدة كوستانتينو. – هاك اقرأ!

تجهّم وجه الكاهن ورجا الضابط السابق أن يترك له الرسالة، ثمّ سأله:

- هل تتقاضى مالاً من ليدّا؟

- طبعاً، الشيء القليل، هل في هذا إجحاف؟ ألا أجازف أنا بدخول السجن عندما أساعده.

- وهل تظنّ أنّك تقوم بواجبك عندما تقوم بما تقوم به؟

- وما هو الواجب؟ إذا كان واجبنا هو فعل الخير للغير، فأنا أقوم بواجبي.

استرسل الثاني في قراءة الرسالة.

- أنا أقوم بواجبي، وهذا لا شيء. عندما سأصبح حرّاً طليقاً، وأجد أنّ أصحاب النفوذ الذين أعرفهم لا يعيدونني إلى عملي، فإنّي أنوي أن أشتغل بالمراسلات السرّيّة لجميع سجناء إيطاليا، أي سأقيم نوعاً من الوكالة...

- لن تتأخّر إذاً عن العودة إلى هذا المكان...

- إيه! إيه! فعل الأشياء كما يجب: وكالة سريّة، يا صديقي العزيز. ثمّ...

- الحصول على العفو أيضاً! قال الثاني وهو يطوي الرسالة. – لماذا توهم هؤلاء الفقراء البائسون؟

- والحصول على العفو أيضاً! أجاب بورّاي ببرودة، - حسناً، أليس من فعل الخير أن أريحهم، حتّى لو بمجرّد الوهم؟ وماذا نملك نحن إن لم يكن الأمل؟

فقال الثاني بعد أن حلّى صوته: - حسناً، اصنع لي معروفاً بألّا تعذّب ثانية ذلك الفتى البائس، بل ساعده على التمسّك بشيء من الأمل، وإلّا انتهى به الأمر إلى المرض.

وعد الضابط السابق بذلك، لكن ليس عن طيب خاطر. آه، فتلك الطريقة لا تبدو له ناجعة.

وفكّر في قرارة نفسه: - أقسم أنّه سيموت غمّاً! آه، سيأتي الربيع! آه، عندها سنرى إن لم يكن على حقّ من يعرف أمور الدنيا. قال ذلك وهو يضع يده على صدره.

عندما التقيا سأله كوستانتينو والابتسامة على وجهه فيما إذا كان قد رأى الخوريّ كما كانا يسمّيان الكاهن، وماذا قال له. لكنّ الضابط السابق كان مستنداً إلى جدار داكن ورطب، ويداه على ظهره، وهو يشتم بلهجة سردينيا بصوت منخفض ولا يعرف من كان يشتم.

- فلتخترق جيبك طلقة أيّها الثعلب...

- ماذا بك؟ من تشتم؟

- حسناً، لا شيء، لقد اجتمعت بالكاهن ووبّخني كأنّني طفل. وأيّ طفل بدين! بل حلّوف خنزير، حلّوف خنزير بالفعل. لكنّ الدهن أصفر، زنخ. هل تعلم أنّي قرأت أنّ الدهن الزنخ له قيمة في روسيا؟

- بماذا أجابك، أخبرني...

- ماذا قال لي؟ قال لي... ومن يتذكّر ماذا قال لي! آه، أجل، قال لي إنّ ذلك الأمر وهم من صنع خيالي. بالفعل، فخيالي واسع جدّاً... أجل، يا صديقي العزيز، وزوجتك لن تخونك أبداً، هذا حقيقيّ كما هو حقيقيّ أنّنا هنا سويّة.

كان كوستانتينو يحدّق فيه بشراهة. لا، ذلك الرجل لا يسخر منه، لا، لا يسخر منه على الإطلاق. كان يقول الحقيقة.

- آه، لقد وبّخك إذاً!، هه، يا للغرابة!

قال ملك المجارف وهو يتنحّى وينظر في يديه المحمرّتين اللتين تجعّدت بشرتهما بسبب ضغط ظهره: - هذا الجدار، كما ترى يا عزيزي، إنّ هذا الجدار يشبه الشوكولاته. إنّه رطب وساخن. لو كان كذلك على الأقل! عندها كنّا ستمتّع بمنفعتين: أن نقضمه وأن نهرب. آه، هل سبق لك أن أكلت الشوكولاته؟

- وكيف لا؟ أجل، كانت جوفانّا تحبّها كثيراً، لكنّ ثمنها مرتفع، إنّها غالية جدّاً. حسناً، ماذا تعني؟...

فصرخ الثاني: - حسناً، أنت تثير غضبي. أجل، ستنتظرك لأكثر من ثلاث وعشرين سنة، لا تشكنّ في هذا!...

- لا، سأخرج قبل هذا. ثمّ، على فرض (وأضاف ساخراً)... ألن تذهب أنت إلى الملك، أنت، ألن تطلب العفو لي؟

- أجل، الملك. الملك بالذات! ألا تصدّق؟ سأذهب إلى الملك، إنّه يستقبل جميع الضبّاط، وأنا، ألست ضابطاً؟ إنّه يحبّ الجيش، إنّه شابّ، قرأت أنّه قد سمن. آه، لكنّه لن يسمن مثلي... ثمّ ضحك.

بينما كان كوستانتينو يعود دائماً إلى موضوعه، كان الثاني يتهرّب من الموضوع، على كلّ فقد انقطع عن تعذيبه.

في تلك الأيّام وضِعت خمس ليرات في حساب كوستانتينو.

قال السجين: - إنّه هو، هو! إنّه الكاهن. يا له من رجل طيّب! لكني لن أقبلها، لا، لن أقبلها.

أجابه ملك المجارف: - أنت غبيّ كالتيس، خذها، وإلّا فإنّه سيستاء. لن أقبلها! هل تجيب بهذه الطريقة على المعروف؟

- لكنّني أخجل. ثمّ ماذا يجب أن أفعل بها؟

- اشرب، كل. أنت في حاجة إليها، عليك أن تصدّق ذلك. لكنّك تودّ أن ترسلها إلى هناك، إليها، عسى أن تتخلّص من شياطينك. إذا فعلت فعلة البهائم تلك، فإنّي سأبصق في وجهك. ألا ترى، أنّها لم تعد تكتب لك، ولا حتّى...

قال كوستانتينو ليطمئن نفسه: - وماذا يمكن لها أن تكتب لي؟ لديها الآن أعمالها، وسينتهي الشتاء.

فصرخ الثاني بنوع من التهديد: - آه، أجل، سينتهي! وسيأتي الربيع!

- سيأتي.

- أجل سيأتي!

- متى يبدأ الحرّ في بلدتك؟ عندنا يصبح الطقس حارّاً اعتباراً من شهر آذار.

- آه، عندنا في حزيران. يكون الطقس عندها جميلاً جدّاً عندنا. تستطيل الأعشاب، وتستطيل. نجزّ الغنم ويصنع النحل العسل.

- يا له من مشهد شاعريّ! آه، لكن ألا تعرف ماذا يعني مشهد شاعريّ؟ حسناً، إنّه يعني... لا شيء! فلننتظر الربيع إذاً! ألم تعترف منذ وقت طويل؟

- أجل. منذ خمسة عشر يوماً.

- لقد مرّ وقت طويل بالفعل! آه، كم أنت غبيّ يا عزيزي! أمّا أنا فلم أعترف البتّة: لأنّ ضميري نقيّ كالمرآة. ثمّ أضاف وهو يشير إلى الطالب الذي أصبح وجهه كالشمع وابيضّ شعره الحليق بحيث بدا وكأنّه مرشوش بالبودرة:

- لكنّ هذا يحتاج حقّاً إلى الاعتراف. فهو يقرع الآن باب الأبديّة.

وفي الواقع فقد نُقل الطالب بعد وقت قصير إلى المستوصف ومات في نهاية شهر آذار. كان بيلّيني، ذلك ذو العشيقة المسلولة، يسأل دائماً بقلق عن حالة ذلك الرجل المريض، وعندما مات الطالب، بكى هذا طيلة اليوم بكاء الأطفال. ولم يكن يبكي على ذلك الميّت البائس بل على حبيبته المريضة. لكنّه عندما لم يعد يرى الطالب ولم يعد يسمع عنه، ارتاح ولم يعد يفكّر في مرض المرأة التي يحبّها. غير أنّ موت الطالب أدخل حزناً غريباً في نفس ملك المجارف، فبدأ يتفلسف حول أمور الحياة والموت، ودخل في نقاشات مطوّلة مع المندوب، كان الأخير يجيب خلالها بصوت منخفض وهو يقلب عينيه. أمّا مع كوستانتينو فكان بورّاي يهوم في الذكريات والحنين إلى وطنه البعيد.

قال: - أجل، مررت ذات يوم بالقرب من بلدتك، أو في محيطها، لا أذكر. كانت هناك غابة من أشجار بألوان مختلفة. بدا وكأنّها أُمطرت دماً أحمر، وكانت تفوح منها روائح، يا عزيزي، روائح قويّة أقوى من روائح التبغ. وانتبه، كان هناك صليب موضوع فوق صخرة، وكان البحر يظهر من بعيد.

- آه، عرفتها، غابة الرجل الغزال! أنا الذي أعرفها!

ذات مرّة رأى صيّاد هناك في داخلها غزالاً بقرون ذهبيّة، فأطلق النار عليه وأرداه قتيلاً. لكنّ الغزال أطلق وهو يحتضر صرخة مثل البشر وقال: لقد انتهى وقت التوبة. – ويعتقد أنّ روحاً بشريّة كانت تسكن في جسده، وقد دفعت بعد الموت ثمن جرائم عظيمة. فوضعوا هناك الصليب.

- والقرون يا عزيزي؟

- يقال إنّه عندما اقترب الصيّاد رأى أنّ القرنين انصبغا بلون أسود.

- بوف! بوف! كم أنتم حمقى يا أولاد منطقتي! ثمّ أردف ملك المجارف قائلاً وهو ينظر إلى السماء: - آه، هاك الربيع قد أتى! إنّ الربيع يثير أعصابي، أجل، فأنا أيضاً كنت صيّاداً.

- أوه!

- كنت أصطاد في البرك، بالقرب من مدينة كالياري: آه، البرك! كانت تبدو مثل شظايا مرآة رميت من فوق، هنا وهناك. وكان هناك حولها كثير من الزنابق البنفسجيّة. بينما كانت طيور النحام تحلّق في أسراب كبيرة عبر سماء ساطعة لدرجة أنّك لا تستطيع النظر فيها. لذلك فقد كنت أغمض عيني. بوم! بوم! فيسقط أحد الطيور. بينما تواصل الطيور الأخرى تحليقها، بصمت، في السرب. عندها كنت ألقي بنفسي في وسط البركة لألتقط ذلك الطائر. واعلم أنّي كنت وقتها رشيقاً سريع الحركة، رشيقاً مثل السمك: كنت وقتها في الثامنة عشرة من عمري.

-وما هي فائدة طير النحام؟

- لا شيء. يمكن تحنيطها، سيقانها طويلة ويبدو كأنّها من مخمل. هل سبق لك أنت أن رأيت تلك البلدان؟ آه، صحيح، لقد كنت تعمل في المناجم، ولا بدّ أنّك مررت بكالياري. سأعود أنا إلى هناك لأموت بسلام.

- أنت حزين في هذه الأيّام.

- ماذا تريد يا صديقي العزيز؟ إنّه الربيع، ما أحزن قضاء عيد الفصح في السجن! سأتناول هذا العام القربان المقدّس للقيام بواجبات الفصح.

- لقد سبق لي وأن فعلت.

- آه، لقد تناولته إذاً!

صمت السجينان بعد ذلك وغرقا في الذكريات.

مرّ نيسان وأيّار وحزيران، وعادت جدران السجن الحزينة لتشتعل من جديد، واستيقظت الحشرات القذرة والمقلقة، واستعادت نشاطها في تعذيب المساجين بأقسى ما تستطيع، كما بدأت الروائح المقززة تلوّث الهواء مرّة أخرى، وخاصّة في عنبر الإسكافيّين، الذي كان يراقبه على الدوام ذلك الحارس الأحمر الصامت، حيث تختلط هناك بروائح أخرى حادّة تنبعث من الجلد والقار والعرق.

اشتدّ وهن كوستانتينو بشكل متزايد وأخذ يعاني لدغ الحشرات: وبينما كان في السنوات الماضية ينام نوماً عميقاً من غير أن يشعر باللدغات، فإنّه بدأ الآن لا ينام إلّا قليلاً وتوقظه فجأة أقلّ وخزة، فترتجف كلّ أوصاله، ليبدأ الأرق، أو نوم اليقظة وهو أسوأ من الأرق، لأنّه يتّخذ في بعض الأحيان سمات الكوابيس. كان يشعر بلسعات حادّة، وليس دائماً من الحشرات، وكانت تخترق كامل جسده. فكان يتقلّب ويستدير، ويشعر بالاختناق، فيتأوّه. كان ذلك عذاباً رهيباً. في كثير من الأحيان كان يبزغ ضوء الفجر البرتقالي قبل أن تغمض له عين. كان يستولي عليه عندها إرهاق شديد، ويغلبه نعاس قاهر، لكن كان عليه أن ينهض!

لم تعد جوفانّا تكتب له، وإن كانت قد كتبت له في أواخر أيّار لترجوه ألّا يرسل إليها مزيداً من النقود، لأنّها أصبحت تكسب بما يكفي لعيش كريم. ثمّ لا شيء.

لكنّه اطمأنّ الآن وأصبح واثقاً من إخلاصها: بل بدا له أنّ رسالتها الأخيرة كانت برهاناً على مودّتها.

كان ملك المجارف ينتظره بقلق كلّ يوم في ساعة التنفّس، فكان يحدّق فيه بعينيه الصغيرتين الشيطانيّتين اللامعتين في ذلك الرأس الضخم الحليق الأصفر في جميع أنحائه، وكان يحرص على أن يسأله: - هل من جديد؟ وبما أنّ كوستانتينو كان يشعر بالدهشة من هذا السؤال، فإنّ الضابط السابق كان يعبّر أيضاً عن دهشته، ولا يقول أيّ شيء. وإن كان يقول:

- الجوّ حارّ.

- أجل، الجوّ حار.

- لقد انتهى الربيع.

- انتهى وانقضى!

- لابدّ أنّ المجاعة قد انتهت أيضاً في بلدتك.

- انتهت من كلّ بدّ. زوجتي لا تريد أن أرسل لها نقوداً.

- آه، إنّي متأكدّ من هذا، يا صديقي العزيز.

ولم يكن الضابط السابق يعرف بماذا يفكّر، بل كان يخشى إلى حدّ كبير عدم تحقّق نبوءته.

لكنّ كوستانتينو لم يأت ذات يوم إلى ساعة التنفّس. عندما عرف الضابط السابق أنّ ابن منطقته موجود في المستوصف، شعر بضيق غريب في قلبه، وبما أنّ الطائر العجوز كان يتطاير حوله وعندما يحطّ كان يهزّ رأسه الأصلع بالنصف والأجعد بالنصف الآخر لينادي بصوت من أنفه: كوستا- نت- ينو... كوستا- نت- ينو، فإنّ ملك المجارف كان يجيبه بصوت مرتفع:

- سقطت صاعقة على كوستانتينو.

لذلك فقد تحلّق جميع السجناء حوله وملؤهم فضول لمعرفة ما حدث، لكنّه مدّ يديه إلى الأمام وكأنّما ليدفعهم عنه وقال:

- أنا لا أعرف شيئاً، دعوني وشأني.

قال بيلّيني إنّه كان يعمل مع كوستانتينو حتّى الساعة التاسعة، ثمّ جاء حارس ليأخذه، ولم يُعرف السبب. فنهض هو بسرعة وعيناه جاحظتان، شاحب الوجه، وتبع الحارس ولم يعد بعد ذلك.

بقي كوستانتينو يتذكّر ذلك اليوم طيلة حياته. كان ذلك الصباح دافئاً وغائماً، وبدا أنّ الغيوم تظلّل المهجع، وتلقي على جدرانه حتّى منتصفها ضوءاً داكناً، حتّى ليظنّ أنّ المساجين، بمآزرهم الجلديّة، يظهرون كأنّهم مكدومين بفعل ذلك الضوء الذي يتراوح بين الظلّ والنور. وكانوا جميعاً في مزاج سيّئ.

كان أحدهم يخاف من الموتى، وقد أخذ يروي أنّه خلال الليالي المظلمة كانت ترى في بلده أشباح تجري في مياه النهر، وكانت هذه الأشباح طويلة مائعة ومبيضّة، وقد سأل هذا بيلّيني فيما إذا كان قد رأى مثل تلك الأشباح.

- لا أبداً! فأنا لا أعتقد بمثل هذه الحماقات!

قال الثاني بصوت رتيب وهو ينظر في داخل الحذاء الذي كان يعمل عليه:

- آه، أو تسمّيها أنت حماقات؟

فقال واحد آخر بهدوء وهو يعمل:

- يا رأس التيس...

عندها رفع رأسه ذلك الذي كان يعتقد بالموتى، وعبّر عن غضبه واستيائه. لكنّ الآخر احتجّ.

- اوه ألا يمكن لي أن أتكلّم مع نفسي؟ أن أقول رأس تيس، رأس ثور، رأس كلب... من يتكلّم معك؟ ألا أستطيع أن أتكلّم مع الحذاء؟

في تلك اللحظة بالذات جاء الحارس ونادى على كوستانتينو. فحملق هذا بعينيه ونهض بسرعة وشحب وجهه، بعدما كان قد قضى ليلة مزعجة دون نوم.

سأل: - من الذي يطلبني؟ ثمّ تبع الحارس.

اقتيد إلى غرفة مغبرّة مليئة برفوف عليها أوراق قديمة، نوافذها المتّسخة مغلقة، وهناك قضبان من حديد أحمر خلف زجاجها، ويمكن من ورائه رؤية سماء ملبّدة بالغيوم، تحسبها مغطّاة بالغبار أيضاً. كان هناك في الغرفة رجل جالس أمام طاولة مرتفعة مغطّاة بالغبار. وكانت أمامه أوراق كثيرة جدّاً، بحيث كاد يختفي بين الأوراق والغبار.

رفع هذا رأسه عندما رأى السجين. رأس صغير محمرّ، وذقن تدلّى فوقها شارب أشقر غطّاها بكاملها. حدّق بكوستانتينو بعينين واسعتين لونهما أزرق حليبيّ، مستديرتين وثابتتين. لكنّه بدا أنّه لم ير السجين لأنّه عاد مباشرة ليكتب بسرعة.

كان كوستانتينو يعرف سابقاً ذلك الرجل، فبقي واقفاً على قدميه، بينما كان قلبه يخفق أقوى فأقوى. تذكّر وسط اضطراب نفسه قصّة الأشباح في النهر، وصوت السجين وهو يقول: رأس التيس، وتساءل فيما إذا كان الرجل محقّاً عندما استاء أم غير محقّ. ولم يكن يسمع في الغرفة إلّا صرير القلم فوق الورق الحادّ.

عادت العينان المستديرتان الفاتحتان لتحدّقا بالسجين، ثمّ عادتا وانخفضتا، فخاف كوستانتينو ونظر حوله وبقي ينتظر بقلق.

كما بقي الرجل يكتب. شعر السجين أنّ قلبه يخفق بقوّة، وعادته آلاف الأفكار المظلمة، بل يمكن تسميتها صامتة ومشوّهة، فمرّت في ذهنه كما تمرّ الغيوم المتلاحقة. وبقي الرجل يكتب ويكتب. على حين غرّة، تلاشت فجأة من ذهن كوستانتينو تلك الآلاف من الأفكار القاتمة المشوّهة، كما تتلاشى الغيوم فيحلّ محلّها ضياء رائع، مؤلمة روعته.

- هل توصّلوا إلى براءتي؟

كان هذا هو الضياء، مرّ الضياء وحلّ محلّه نور خافت. وبقي الرجل يكتب ويكتب، لكنّه سأل وهو ما زال يكتب وبصوت غليظ مرتفع:

- اسمك؟...

- كوستانتينو ليدّا.

- من أين؟

- من أورلي في سردينيا، منطقة ساسّاري.

- جيّد جدّاً.

صمت. بقي الرجل يكتب. نحنح صوته فجأة، ورفع رأسه الأحمر، وحدّق بالسجين بعينيه الواسعتين المستديرتين الفاتحتين الثابتتين. فخفض كوستانتينو نظره.

- حسناً، هل لديك زوجة؟

- نعم.

- أولاد؟

- كان لنا ولد ومات. – هل تحبّ زوجتك؟

- أجل. أجاب كوستانتينو ثمّ رفع عينيه الخائفتين. رأى في يد السيّد الحمراء الضخمة خاتماً عليه حجر قرمزيّ اللون، ورأى بين السبّابة والإبهام رأس القلم الأسود يدور وهو مستقيم. لم يعرف أين يثبّت نظره، فثبّته على حركة القلم فشعر بشيء مؤلم بشكل كبير جدّاً، كما انتظار مصيبة في الأحلام. أخذ الصوت الضخم يتكلّم منخفضاً، ببطء.

- أنت تعرف أنّ زوجتك قد تدمّرت بسببك. صبيّة، جميلة، لكن عليها أن تقضي حياتها في حزن مستمرّ، وهي تبكي. لم يعد أيّ شيء يبتسم لها في الحياة، رغم أنّها لم ترتكب أيّ إساءة. صبرت عندما كان لها ولد. كانت تأمل فيه. ولكن ماذا بقي لها الآن وقد مات الطفل؟ عندما تعود، إن منحك الله هذه النعمة، فستكون قد أصبحت هرماً، محطّماً، عاجزاً. وستكون هي أيضاً كذلك. وبهذا فهي ترى مستقبلاً رهيباً أمامها: مستقبلاً من ألم وخزي وبؤس. شيخوخة مروّعة. وسيكون عليها أن تتسوّل: أيّ إنّ حياتها ستكون بهذه الطريقة أسوأ من حياتك أنت السجين المدان...

شحب وجه كوستانتينو مثل رجل ميّت، وأخذ يلهث وهو يتألّم، أراد أن يحتجّ وأن يقول إنّه يأمل في العودة قريباً، لكنّه لم يتمكّن من الكلام. بينما واصل الآخر، من ناحية أخرى، وهو يخيفه بتين العينين المستديرتين الصافيتين الثابتتين:

- ... أسوأ من مصيرك. عليك أن تفكّر في الأمر وأن تيأس وأن تندم مرّتين على جريمتك. أنت هناك! (تنهّد الرجل، ونحنح صوته مرّة أخرى، وغيّر من نبرته). لكنّ القانون ينصّ الآن على ما يمكنه أن يتصدّى لهذا الظلم الكبير. أنت تعلم جيّداً أنّ هناك الآن إمكانيّة طلاق يحرّر المرأة التي يخضع زوجها إلى حكم معيّن. فإذا كانت زوجتك... اجلس، استرح... إذا تقدّمت زوجتك بطلب الطلاق، فسيكون من واجبك الموافقة على ذلك. وأنا أعلم أنّك، رغم كلّ شيء، مسيحيّ صالح أو يبدو أنّك مسيحيّ صالح...

كان كوستانتينو قد استند إلى الطاولة، وكان يرتجف ولا يحاول أن يهدأ.

سأل: - وهل طلبت هي ذلك؟

- أنت هناك، اجلس، اجلس! هتف الثاني وهو يشير إليه بالقلم بأن يجلس. كان يريد مواصلة عظته، لكنّ كوستانتينو قال بصوت ثابت يتناقض مع الرجفة التي ألّمت بكلّ جسمه.

- أعرف واجبي، لن أوافق أبداً، لأنّي لا بدّ أن أعود بعد قليل إلى حرّيتي، ويمكن لزوجتي عندها أن تندم...

رفعت أخاديد عميقة وجنتي الرجل الورديّتين. علت ابتسامة رهيبة عينيه الثابتتين: ثمّ استغرق في أفكاره.

اعلم أنّ موافقة المدان تطلب كإجراء شكليّ فقط. ومن واجبه أن يعطيها، وتراعى حسن نيّته. لكنّ هذا لا يهمّ في شيء، حتّى لو لم يعطها...ماذا هناك! ماذا... ماذا... ماذا... ألمّ بك؟...

لقد أغمي على كوستانتينو، وسقط على الأرض كأنّه ممسحة من قماش.

نهاية القسم الأول.

الهيئة العامة السورية للكتاب

القسم الثاني

- IX -

١٩٠٨م، في بيت بورّو، في «غرفة الغرباء»، كانت جوفانّا ترتّب بعض قطع القماش المشتراة في ذلك اليوم في نوّرو. كانت قد سمنت أكثر من ذي قبل وفقدت شيئاً من مظاهر الصبا، مع أنّها بقيت جميلة نضرة.

كانت تراقب الأقمشة بكلّ عناية فتقلّبها وتعاينها بشيء من القلق كما لو أنّها غير راضية عن ما قد اختير، ثمّ كانت تطويها بعناية وتغلّفها بورق الصحف وتضعها في الحقيبة.

كانت تلك تحضيرات جهازها، فبعد أن حصلت على الطلاق كان يجب أن تتزوّج قريباً من ديغاز.

جاءت هي وأمّها خصّيصاً إلى نوّرو من أجل هذه المشتريات. وكانتا قد استدانتا المال بسرّيّة تامّة من العمّة آنّا- روزا ديغاز أخت جاكوبّه، وهي امرأة كانت تحبّ جوفانّا كثيراً لأنّها ساعدت العمّة باكيسيا في إرضاعها.

حدث هذا في قلب الشتاء، لكنّ المرأتين تحدّيتا بشجاعة مصاعب السفر وتعبه، وذلك كي تذهبا إلى نوّرو للحصول على المنسوجات والأقمشة والمناديل.

كان يجب أن تتزوّج زواجاً مدنيّاً بشكل كامل وبسريّة تامّة، أي بما هو أسوأ من زواج الأرملة. لكنّ هذا لا يهمّ كثيراً. لكنّ العمة باكيسيا أرادت أن تدخل ابنتها إلى البيت الجديد وهي مجهّزة تجهيزاً كاملاً، أي كعروس صبيّة من عائلة جيّدة.

غير أنّهم لم ينتهوا في البلدة من الثرثرة حول هذه الفضيحة التي حدثت، رغم ما قيل إنّ عروسين آخرين أخذا يفكّران بأن يطلبا من البلديّة السماح لهما بالطلاق. لكنّ كثيراً من الأشخاص أخذوا ينظرون بعين الغضب إلى آل إيرا، بل كان البعض يدعي أنّ برونتوو يبيّت الشرّ لجوفانّا، كما أنّ جاكوبّه ديغاز وإيزيدورو بانه وأصدقاء آخرين لم يعودوا يزورون آل إيرا بعد أن قاموا بمشاهد عنيفة تقريباً أمامهم. بل إن جاكوبّه صرخ مثل الكلاب وهدّد وترجّى، لكنّ العمّة باكيسيا وضعته خلف الباب.

حتّى العمّة بورّيدّا، في نوّرو، وعلى الرغم من أنّ ابنها هو الذي رعى قضيّة طلاق جوفانّا، فإنّها لم ترحّب بأصدقائها إلّا ببرودة. أمّا «الدكتور»، كما كانت تسمّي ابنها، فقد أظهر كلّ ترحيب، وكان شديد التهذيب مع الضيوف.

بقيت جوفانّا ترتّب أشياءها ببطء وهي مستغرقة في التفكير. لكنّ كلّ أفكارها وكلّ انشغال بالها كان على تلك الخرق، فها كم أنّه بدا لها أنّهم غشّوها نوعاً ما بالقماش، وأنّه لا يوجد إلّا حوافّ قصيرة جدّاً حول المنديل الأسود من صنف التيبت المزيّن بورود حمراء ذات لون فاقع، وأنّ هناك بقعة على أحد الشرائط. آه، كان كلّ شيء مزعجاً بالفعل.

حلّ المساء، مثل المرّة الماضية، لكنّ الأمور في تلك الأنحاء، تغيّرت كلّها، كما تغيّر الزمن وتغيّر القلب. وكان كلّ شيء صامتاً.

أصبح لـ«غرفة الغرباء» الآن نافذة يدخل عبر زجاجها الضوء البارد لكن الحيّ، ضوء الغسق الشتويّ. كانت قطع الأثاث الجديد، التي ما زالت تفوح منها روائح الخشب المدهون، تلمع برقّة ببياضها الرائع، وكأنّها مغطّاة بالجليد. وكان الباب يفضي إلى رواق مسقوف ينحدر منه درج جديد مصنوع من رخام

الجرانيت يؤدّي إلى الرواق القديم. لقد جدّد البيت بأكمله. فأعمال الـ «دكتور» مزدهرة وله مكتب في منطقة مأهولة من المدينة، وكان يُطلب لقضايا مدنيّة أو جزائيّة، ولأشدّ القضايا شيطانيّة، وكان يلجأ إليه أشرس المجرمين، بل كلّ الناس الذين يخشون القوانين.

انتهت جوفانّا من طيّ ولفّ وتوضيب المنسوجات والأقمشة والمناديل: كانت الحقيبة ممتلئة من طرفيها، فرفعتها الصبيّة وهزّتها حتى تسقط الأشياء إلى الأسفل بشكل أفضل. ثمّ تحرّكت بكلّ جدّيّة وهي معقّدة الحاجبين. خرجت ونزلت على الدرج ببطء، وسلكت يديها في الفتحتين الصغيرتين الموجودتين في مقدّمة تنّورتها الصوفيّة، وهذه الفتحات موجودة في مقدّمة جميع تنانير أزياء سردينيا، من الخصر إلى الأسفل.

كان ذلك المساء من شهر كانون ثاني مساء صافياً، لكنّه شديد البرودة: ظهرت في السماء الزرقاء الزجاجيّة بعض النجوم الفضيّة وكأنّها ترتجف من البرد. رأت جوفانّا، خلف نوافذ غرفة الطعام المضيئة، وجه غراتسيا الأبيض بعينيها البرّاقتين وهي تعبر الرواق، حاملة في يدها مجلّة أزياء. لقد أصبحت الفتاة طويلة وجميلة: كانت ترتدي أحدث صيحات الموضة، بأجنحة الدانتيل الكبيرة تلك، التي كانت شائعة في تلك الأيّام، والتي كانت تبدأ خلف الأكمام من أعلى الكتفين، ممّا يجبر النساء على المرور بشكل جانبيّ عند عبور باب موارب، لكنّها كانت تجعل المرأة التي ترتديها تظهر في المقابل مثل ملاك يحلّق في السماء.

رأت غراتسيا الضيفة وحيّتها بابتسامة دون أن تتحرّك من مكانها. دخلت الضيفة إلى المطبخ، وكان هذا المكان قد جُدّد أيضاً، فجُعلت الجدران بيضاء وزُيّن الفرن بآجرّ برّاق ووضع سراج زيت تدلّى من قوس السقف.

لم ترتوي العمّة باكيسيا من مشاهدة المكان حولها بتين النقطتين الخضراوين المحاطتين بهالتين سوداوين واللتين كانتا تبرقان في وجهها الأصفر الشبيه بوجه طير كاسر. آه، لا، إنّها لم تتغيّر تلك الساحرة العجوز! جلست قرب النار إلى جانب الخادمة، وهي فتاة صغيرة قليلة النظافة شعرها أشعث وتضحك قهقهةً فتظهر أسنانها البارزة. بينما كانت العمّة بورّيدّا تطبخ وهي تنهر الخادمة على طريقة ضحكها تلك. ها كم السيّدة تطبخ بينما الخادمة تجلس قرب النار وتقهقه. ما العمل؟ هذا من بؤس الدنيا. كما أنّ تلك المرأة البارعة لا تستطيع أن تجلس لدقيقة واحدة خاملة بلا عمل، رغم أنّها أصبحت الآن أمّاً لمحام شهير.

جلست جوفانّا بعيداً عن النار، منحنية القامة إلى حدّ ما، ويداها ما زالتا في فتحتي التنّورة.

قالت العمّة باكيسيا بلهجة حسد: - هاك، هذا المطبخ يبدو كأنّه صالون. وعليك أن تجعلي مطبخك على هذا الشكل.

فأجابت وهي شاردة الذهن: - آه، أجل.

- بلى يا روحي، أكيد! لا تنسيّ أنّ الأخت مالثينا بخيلة، لكن عليك أن تجعليها تفهم أنّ الدراهم خلقت لتصرف. هاك، مطبخاً كهذا! إنّه جنّة يا روحي، هكذا يجب أن تكون الحياة!

- لماذا تردّدين عبارة يا روحي؟ سألتها الخادمة الحمقاء.

قالت جوفانّا: - إذا هي لم ترغب في الإنفاق، فهي حرّة! النقود نقودها. ثمّ تنهّدت.

ضحكت الخادمة من جديد، لكنّ العمّة بورّيدّا لم ترغب في التدخّل في حديث الضيفتين، لذلك فقد التفتت نحو الخادمة وأمرتها ببشر الجبن لوضعه فوق المعكرونة. فأطاعت الخادمة.

قالت العمّة باكيسيا لابنتها التي كانت تتنهّد: - ماذا بك؟

ففكّرت العمّة بورّيدّا في نفسها: - آه، إنّها تتذكّر! ليس من الممكن ألّا تتذكّر. فهي بعد كلّ شيء بشر ومسيحيّة، وليست حيواناً!

قالت جوفانّا بغضب:

- حسناً، لقد خدعونا وغشّونا. القماش غير جيّد، هناك بقعة على القماش. آه، تلك البقعة!

- يا روحي! هتفت الخادمة وهي تقلّد صوت العمّة باكيسيا بينما واصلت بشر الجبن، فبشرت وبشرت.

صبّت العمّة بورّيدّا جام غضبها على الفتاة الغبيّة، وصبّت عليها كذلك كلّ الغيظ الذي بعثته الضيفتان في نفسها، بل وسمّتها بالأسماء التي كانت ترغب لصقها بجوفانّا، فقالت لها إنّها وقحة، جبانة، بائسة، ناكرة للجميل، ثمّ هدّدتها بضربها بالمغرفة. خافت الخادمة فجرحت إصبعها بالمبشرة ورفعت يدها والدم ينزف منها. في تلك اللحظة عاد المحامي الشابّ وهو يعرج بعض الشيء، وكان ملفوفاً بمعطف أسود طويل وواسع جدّاً، بدا وكأنّه عباءة ذات أكمام. وكان وجهه الصغير المستدير الورديّ، وعليه شاربه الأشقر، يعبّر عن رضا أنانيّ كالطفل الرضيع.

سأل مباشرة ماذا يوجد للطعام، ثمّ تواضع وجلس قرب العمّة باكيسيا وبقي يثرثر حتّى حلّ وقت العشاء.

دخلت بعده ابنة أخته منيّا متورّدة الوجه ولاهثة بشعرها الأشعث، وخلصت إلى التهالك جالسة قرب الخادمة (علماً أنّ الطفل الآخر قد مات منذ ثلاث سنوات)، كانت ترتدي ثياباً لا بأس بها، من فانيلا حمراء وسوداء، ويداها

متّسختان. فقد جاءت من حقل مجاور لعبت فيه طيلة النهار، ثمّ أخذت تثرثر مع الخادمة وتسرّ لها ببعض الأشياء بصوت منخفض لاهث.

فأجابت الخادمة باللهجة نفسها: - يا روحيّ!

ثمّ دخل العمّ إيفس ماريّا بوجهه الضخم الذي يظهر كالرخام العتيق وشفتيه الكبيرتين المفتوحتين، وأراد أن يذهب مباشرة إلى العشاء. تلألأت في غرفة الطعام خزانتان جانبيّتان طويلتان من خشب باللّون الأصفر: كان المكان أنيقاً بما يكفي، بوجود ممرّات من سجّاد ممدود على الأرض، ومدفأة، وما إلى ذلك. كانت العمّة بورّيدّا تتحرّك بضيق بقدميها الكبيرتين في حذاء غير مريح. بينما لم يشبع العمّ إيفس ماريّا من النظر حوله بسرور. أمّا غراتسيا، الطويلة، الأنيقة، فكانت تتضايق في كلّ مرّة يدخل عليها أهلها وهي تقرأ بنهم في مجلّة «الأزياء الفريدة»، ومجلّة «الباريسيّة الصغيرة»، وكذلك في الزوايا الاجتماعيّة من صحيفة للعائلات، بدلاً من أن تهوي في لا أخلاقيّة الأحلام السيّئة التي كانت تغذّيها. آه يا لتلك الفساتين التي تنحسر عن الأعناق، المطرّزة بالشعر، يا لتلك السترات المبطّنة بالذهب، وتلك البلوزات ذات الأجنحة الرائعة من الدانتيل الفضي والألماس الاصطناعيّ المركّب الشبيه بقطرات الندى، آه يا لتلك القبّعات المزيّنة بالفاكهة والثعابين والزهور، ودانتيل التنانير بثلاثين ليراً للمتر، والقفّازات المطليّة ومراوح الجلد البشريّ!... آه كم كان هذا كلّه جميلاً، جميلاً بشكل رهيب، جميلاً بشكل مروّع! حسناً، كانت تشعر بعد رؤية صور هذه الأشياء وكأنّها تعيش في أحلام العشّاق، لأنّها كانت أشياء جميلة جدّاً. أمّا بعد تلك القراءة، فكان كلّ شيء يبدو لها قبيحاً، بل إنّها ضجرت من مشاهدة جدّتها الطيّبة ذات الوجه الشبيه بوجه رجل عجوز بدين، وكذلك جدّها المهيب الذي كان يمعن النظر فيما حوله بجذل الفلّاحيّن.

وكما حدث خلال ليلة سابقة بعيدة، فقد دخلت العمّة بورّيدّا كالمتصرين وهي تحمل طبق المعكرونة الذي يتصاعد منه البخار. فجلس الجميع حول المائدة المضيافة.

جلست العمّة باكيسيا في ظلّ أجنحة غراتسيا وأخذت تعبّر عن دهشتها حقّاً من تلك الأجنحة.

- لا، لم نر مثلها أبداً في نواحينا، خاصّة وأنّه لا توجد سيّدات راقيات عندنا. أمّا هنا فجميعكنّ مثل الملائكة، فالسيّدات...

فعقّب العمّ إيفس ماريّا بالقول: - أو مثل الخفافيش... إيه، إنّها الموضة يا أصدقائي الأعزّاء! حسناً، أذكر عندما كنت طفلاً أنّ السيّدات كنّ ضخمات ومستديرات، بل كنّ يظهرن مثل الأكواخ. كان هناك القليل من السيّدات. مثل زوجة المراقب، السيّدات...

قاطعته العمّة بورّيدّا قائلة: - ثمّ ذلك الشيء في الخلف... آه، إنّي أذكر، كانت تبدو مثل السرج. حسناً، قد لا تصدّقون، لكنّي أقسم إنّ أحدهم جلس عليها مرّة...

قالت العمّة باكيسيا: - كانت هذه الأجنحة صغيرة عندما جئت في المرّة الأخيرة. أمّا الآن فهي تكبر... وتكبر...

بقيت غراتسيا تأكل، وبدا كأنّها لا تسمع شيئاً.

كان «الدكتور» يأكل هو أيضاً ويعلك بفكّيه وهو ينظر إلى قريبته، بذلك المظهر الذي يجعله مثل طفل يبتسم سعيداً، وقال:

- تكبر، وتكبر... وستحلّق بعد ذلك... – فرفعت غراتسيا كتفيها، أو بالأحرى جناحيها ولم تجب ولم ترفع عينيها. حسناً، فهي تجد أنّ قريبها الشابّ لا يطاق، وهو الذي كان أوّل وأقدم أحلامها، وأقلّ ما يقال فيه إنّه لا يطاق، لأنّها تجده مضحكاً في بعض الأحيان.

كانت المدينة بأكملها تؤكّد أنّ القريبين سيتزوّجان. أما هو، «الدكتور» فلم يؤكّد ولم ينف عندما سئل عن ذلك.

جرى الحديث لفترة طويلة عن أمور غير حاسمة. كانت العمّة بورّيدّا تنهض بين الحين والآخر من على الطاولة وتخرج وتعود: فكان الحديث يموت بين الفينة والأخرى، ويسود صمت فيه بعض الحرج. وكانت هناك محاولة، كما في المرّة السابقة، لتجنّب الموضوع الذي يهمّ الضيفتين أكثر من غيره، وهذا ما لم تكن الاثنتان غير راضيتين عنه في نهاية الأمر. لكنّ العمّة باكيسيا بالذات كانت هي التي فتحت، ولو عن غير قصد، ذلك الحديث المنكر، فتساءلت عمّا إذا كان ما يقوله الجميع صحيحاً: زواج «الدكتور» من قريبته.

نظر آل بورّو بعضهم إلى بعض، بينما حنت غراتسيا رأسها أكثر فأكثر فوق الصحن – ثمّ ضحكوا بهدوء ونعومة.

نظر باولو إلى الصبيّة، وقال بسخرية لم تكن مرحة على وجه الدقّة:

- إيه، لا، فهي ستتزوّج من صاحب السعادة نائب المحافظ.

رفعت هي رأسها ثم خفضته بسرعة، وفغرت شفتيها، وشوهدت عيناها تبرقان وجبهتها تحمرّ. فقالت منبّهة: - لكنّه عجوز! وأنا أعرفه، لأنّه يتمشّى دائماً قرب المحطّة. إيه! له لحية حمراء طويلة. ويضع قبّعة اسطوانيّة عالية.

- آه، القبّعة الأسطوانيّة أيضاً؟

- القبّعة الأسطوانيّة: وهو أرمل.

- من هو الأرمل، الأسطوانة؟

- أنت الزمي الصمت! قالت الصبيّة بحدّة وهي تتوجّه بالكلام إلى أختها.

- لا، لن ألتزم الصمت! ثمّ إنّه ماسونيّ ولا يعمّد أولاده ولا يتزوّج في الكنيسة. لا، هكذا! لن يتزوّج بك في الكنيسة.

فقال العمّ افيس ماريّا بطلاقته المعهودة: - يبدو أنّ الآنسة على علم بكلّ شيء.

كانت العمّة بورّيدّا تستمع بانتباه، لذلك فقد حاولت أن تكتم صرختها عندما سمعت كلمة «ماسونيّ»، لكنّها هزّت ذراعيها وقالت:

- أجل، ماسونيّ، من أولئك الذين يعبدون الشيطان. لكنّي، أجل، أراهن على أنّ قريبتي هذه مستعدّة لأخذه في كلّ الأحوال! لقد هلكنا جميعنا. فها هي غراتسيا تقرأ الكتب السيّئة والصحف الشيطانيّة وترفض أن تعترف بعد الآن. آه، تلك الكتب المحرّمة! إنّي أفقد النوم وأنا أفكّر في ذلك. حسناً، هذا ما كنت أعنيه، أنّ غراتسيا تقرأ كتباً سيّئة: أمّا باولو، فهو كما ترون، إنّه الدكتور بيدّيدو، ذلك الذي درس في القارّة، هناك حيث لم يعد أحد يؤمن بالله: حسناً، لا بل ليس حسناً، لكنّكم تفهمون، نوعاً ما لأنّ هذين المخلوقين لم يعودا يؤمنان بالله. لكنّنا نحن الذين لا نعرف شيئاً عن الكتب، نحن الذين لم نركب أبداً في قطار السكّة الحديديّة – على حصان الشيطان هذا - لماذا لم نعد نؤمن بالله، ولا بربّنا الخيّر الذي مات من أجلنا على الصليب؟ لماذا؟ أسألكم لماذا؟ لكن لماذا؟ لماذا تريد جوفانّا إيرا أن تتزوّج زواجاً مدنيّاً بينما لديها زوج آخر؟

وقعت كلمات العمّة بورّيدّا على رؤوس الحضور في أنحاء الغرفة وقع كرات من حديد. وبينما كانت غراتسيا تبتسم ساخرة من كلام جدّتها وهي تلعب بقطع الخبز، فإنّها رفعت الآن وجهها الذي ارتسمت عليه علائم الجدّيّة. أمّا باولو الذي كان يشابك رؤوس الشوكة بالسكّين ويبتسم من كلمات أمّه، فقد حرّك يده حركة عنيفة. كذلك فقد نظر العمّ افيس ماريّا إلى جوفانّا بوجهه الذي ارتسمت عليه معالم جعلته مثل قناع المأساة.

بينما احمرّ وجه جوفانّا، لكنّها قالت بسخرية ولامبالاة:

- أنا ليس لي زوج أيّتها العمّة بورّيدّا: واسألي ابنك عن هذا.

فأجابت المرأة بغضب: - أنا ليس لي ابن، ذاك هو ابن الشيطان!

آه، كاد يبدو تقريباً، تقريباً، أنّ جوفانّا تلقي بمسؤوليّة أعمالها على باولو، لأنّه هو الذي رعى قضيّة الطلاق!

لذلك فقد ضحك الجميع من مخاوف العمّة بورّيدّا، الجميع بمن فيهم منّيّا، بمن فيهم الخادمة التعيسة التي دخلت وهي تحمل الجبن.

ورغم غضبها العارم فقد تناولت العمّة بورّيدّا الجبن وناولته إلى العمّة باكيسيا.

فقالت هذه وهي تقطع لها شيئاً من الجبن، وبصوت ملؤه الألم: - يا روحي، أنت طيّبة رخصة مثل الخبز، لكنّك تجلسين في بيتك على أحسن ما يرام، أنت غنيّة، عند بيت يُخال أنّه كنيسة، عندك زوج قوي بمناعة الأبراج (إيه، إيه، وهكذا فقد تملّقت العمّ افيس ماريّا)، وأنت محاطة بتاج من النجوم، ها هي نجومك، ولهذا فانت تتكلّمين على هذا النحو! فآه لو تعلمين ماذا يعني البؤس، والتفكير بضرورة التسوّل في الكِبر! هل تفهمين معنى ذلك في الكبر!

قال باولو: - أحسنت! أعطوني سكّيناً نظيفة.

وأجابت العمّة بورّيدّا: - هذا لا يهمّ أيّتها العمّة باكيسيا، أنت تشكّيكين بالعناية الإلهيّة، لأنّك بالفعل لم تعودي تؤمنين بالله. فماذا تعرفين أنت إن كنت ستتسوّلين أو ستصبحين غنيّة؟ أوَ لن يعود كوستانتينو ليدّا ثانية؟

فقالت العمّة باكيسيا ببرودة: - سيتسوّل هو أيضاً.

كما لاحظ المحامي بكلّ قسوة وهو يأخذ السكّين التي كانت تناوله إيّاها الخادمة من ناحية الرأس: - ثمّ إنّ الله وحده يعلم إذا كان سيعود! ومن المعروف أساساً أنّ كوستانتينو مريض، بل كان يقال إنّه مسلول.

كانت جوفانّا تخفي رأسها بين يديها، لتبدو أنّها متأثّرة، بل ربّما كانت كذلك. وقالت مرّتين وهي مثارة: - إذا كنت أتزوّج مدنيّاً، فذلك لأنّي... ثمّ توقّفت عن الكلام.

فعقّب باولو: - حسناً، قولي ذلك! قولي إنّك تتزوّجين مدنيّاً لأنّ الرهبان لا يريدون أن يزوّجوك دينيّاً. إنّهم لا يفهمون، لا يصلون إلى مستوى الفهم، كما لا تصلون أنتم إلى ذلك المستوى، أنت يا مامّا بورّيدّا؟ من ناحية أخرى، ما هو الزواج؟ إنّه علاقة صنعها البشر، ولا تهمّ إلّا أمام البشر. أمّا الزواج الدينيّ فهو لا شيء...

ورغم أنّ هذه ليست المرّة الأولى التي يتكلّم فيها ابنها بهذه الطريقة، فقد صاحت العمّة بورّيدّا قائلة: - آه، إنّك حيوان! إنّها نهاية العالم، هذه. آه، لقد تعب الله منّا، ومعه الحقّ. إنّه يعاقبنا وسيسلّط الطوفان علينا، بل إنّي سمعت أنّه قد قيل عن وجود زلزال.

فلاحظ العمّ افيس ماريّا الذي لم يكن يعرف هل يميل إلى جانب زوجته أو إلى جانب ابنه، وإن كان يميل في سرّه نحو زوجته، لكنّه لم يكن يريد أن يظهر ذلك كيلا ينتقص من اعتبار ابنه «المتعلّم» له، وقال: - كانت الزلازل تحدث على الدوام.

التزم باولو الصمت، خاصّة وأنّه ندم على ما قاله، لأنّه يحبّ أمّه كثيراً ولا يريد أن يغضبها بما لا طائل من ورائه.

نزعت جوفانّا يديها عن وجهها وتكلّمت بحلاوة وتواضع:

- حسناً، عندما تزوّجنا، أنا وذلك **البائس**، فقد تزوّجنا مدنيّاً فقط. ومن يدري متى كنّا سنقيم زواجنا الدينيّ، إذا لم يسجن. ومع ذلك أفلم نكن زوجاً وزوجة؟ لم يعلّق أحد على ذلك، كما أنّ الله الذي يعرف أحوال الدنيا، لم يستأ من الأمر...

- لكنّه عاقبكما! علّقت العمّة بورّيدّا.

فصرخت العمّة باكيسيا التي كانت تنضح السمّ: هذا ما سنراه، عقاب على هذا أو على موت بازيليو ليدّا.

- في تلك الحال كان سيعاقب كوستانتينو وحسب...

فقالت بزهوّ ساحرة ذات عينين خضراوين: - وماذا يعني هذا؟ ألا يعني أن عقاب جوفانّا قد انتهى عندما منّ الله بالحظّ عليها وهيّأ لها الزواج بشابّ يحبّها وسينسيها كلّ ما عانت من آلام.

- وثريّ أيضاً! ولم يعرف فيما إذا كان كلامه عن جدّ أو عن تهكّم.

تاهت جوفانّا عن مجرى حديثها، ومع ذلك فقد أرادت أن تنهي الحديث بصوتها الحلو المتواضع:

- آه يا عمّتي بورّيدّا! أنت لا تعرفين! لكنّ الله يرى القلوب، وهو سيغفر لي إذا عشت في خطيئة مميتة، لأنّ الذنب ليس ذنبي، فأنا أريد حقّاً أن أتزوّج زواجاً دينيّاً، لكنّ هذا غير ممكن.

- لأنّك كنت متزوّجة بشخص آخر، يا بنة الشيطان!

- لكن أخبروني ما العمل إذا كان هذا يعتبر كالأموات؟ إذا كان لا يمكن لهذا أن يساعدني على أن أعيش! وإذا كان رجال العدالة، وهم متعلّمون ويشعرون بحاجيّات الحياة، قد اختاروا الزواج المدنّي، فلماذا لا يمكن لرجال الله أن يختاروا الزواج الدينيّ؟ هل من الممكن أنّهم لا يفهمون الأمر؟ حتّى ذلك الكاهن الموجود عندنا، وهو طيّب جدّاً، وأنتم تعرفونه، يتحدّث كأنّه قدّيس ولا يغضب أبداً، حسناً، حتّى هذا الراهب يقول: لا، لا، لا! الزواج لا ينفصل إلّا بالموت! وإذا كان المرء لا يفهم السبب فليذهب ليتبارك! علينا أن نعيش، نعم أو لا؟ وما إذا كان المرء لا يستطيع أن يعيش، وإذا كان فقيراً مثل أيّوب؟ إذا كان بلا

عمل، ولا يملك شيئاً، أبداً، أبداً؟ أخبريني أنت يا عمّة بورّيدّا، ماذا لو كانت هناك امرأة أخرى بداخلي؟ ماذا لو لم يكن هناك طلاق؟ حسناً، ماذا كان سيحدث؟ الخطيئة المميتة، أجل، كانت ستحدث الخطيئة المميتة!

فكرّرت العمّة باكيسيا: - الخطيئة المميتة! ثمّ البؤس في الشيخوخة.

جاءت الخادمة بالفواكه: من زبيب أسود برّاق وكمثرى ذابلة صفراء كأوراق الخريف.

قدّمت السيّدة العجوز سلّة الفواكه إلى الضيفة العجوز ونظرت إليها نظرة شفقة لا توصف. ها هي مشاعر غضبها وسخطها واحتقارها تسقط أمام ضعف هاتين المرأتين الجبان. قالت في ذهنها: - أيّها القدّيس فرانشيسكو الرائع، سامحهم على جهلهم، على تخلّفهم وجبنهم.

ثمّ حلّت صوتها وقالت:

- لقد هرمنا يا باكيسيا إيرا، وأنت ستهرمين أيضا يا جوفانّا إيرا. لكن أخبراني بشيء الآن، ماذا يوجد بعد الشيخوخة؟

- الموت.

- الموت. هناك الموت بكلّ تأكيد. وماذا يوجد بعد الموت؟

- الخلود – قال باولو وهو يضحك ببطء وعلى مهل، بينما كان يأكل الزبيب كأنّه طفل نهم، ويقرّب العنقود من فمه وينتزع الثمار بأسنانه الصغيرة.

- الخلود. بالتأكيد، هناك خلود. لماذا تغادرين يا منّيّا؟ ابقي معنا... (لكنّ الفتاة سأمت وانصرفت). ما هو رأيك يا جوفانّا إيرا، هل هناك خلود أم لا؟ وأنت يا باكيسيا إيرا، هل يوجد أم لا؟

- يوجد. أجابت الضيفتان.

- يوجد، لكنّكما لا تفكّران بالخلود.

- لا جدوى من التفكير به... قال باولو وهو ينهض وينظّف فمه بالمنشفة. كان عليه أن ينصرف، وقد تخلّف كثيراً بسبب تين المرأتين، وهو لا يهتمّ بهما إلّا لأنّه ما زال عليهما أن يدفعا له أتعابه.

- هناك أناس ينتظرونني في المكتب، هناك أناس. سنلتقي، فأنتما لن تسافرا.

- غداً في الصباح، عند الفجر...

- لا على الإطلاق! ستبقيان... - قال بلا مبالاة، وهو يرتدي معطفه الضخم: وعندما ارتدى المعطف، حدّقت به العمّة باكيسيا بعينيها الخضراوين الصغيرتين وفكّرت أنّ هذا الدكتور الصغير، يبدو بتلك العباءة كأنّه سحر من عمل ساحر، أو واحدة من تلك الدمى السخيفة، والرهيبة مع ذلك، التي يصنعها السحرة لعرض سحرهم.

انصرف فخرجت بعده من الغرفة الآنسة غراتسيا أيضاً، وهي التي لم تتكلّم أبداً خلال العشاء، ثمّ سوّى العمّ افيس ماريّا وضعه على كرسيّه وجلس بشكل جانبيّ ووضع رجله على الرجل الأخرى وبدأ في قراءة جريدة «سردينيا الجديدة».

سمعت أصوات الفتيات في المطبخ وهنّ يضحكن بصوت مرتفع، بينما ساد صمت مطبق بين النسوة الثلاث وهنّ يأكلن ثلاث ثمرات كمّثرى. كان هناك شيء يثقل فوقهنّ، أجل، وخاصّة فوق العمّة بورّيدّا التي كانت تشعر بحدسها البدائيّ أنّ المرض نفسه قد أصاب نفسي ضيفتيها البريّتين ونفوس سلالتها المدنيّة.

- X -

في الغداة عند الفجر، وكما حدث في يوم بعيد آخر، كانت جوفانّا أوّل من استيقظ، بينما بقيت العمّة باكيسيا في فراشها، بما أنّها تتأخرّ في الخلود إلى النوم، كما تفعل جميع المسنّات. بقيت نائمة نوماً خفيفاً وهي تتنفّس بصوت مرتفع.

كان الفجر الشتويّ، البارد لكن الصافي، يشرق ببياضه خلف الزجاج النديّ. نظرت جوفانّا نحو الزجاج وشعرت بالسرور لأنّها خمّنت قدوم نهار جميل، أي رحلة موفّقة، رغم أنّها نامت في الليلة السابقة وهي حزينة ومنزعجة أكثر ما هي منفعلة من ملاحظات العمّة بورّيدّا.

أجل لقد نامت في الليلة السابقة حزينة نوعاً ما وهي تفكّر بكوستانتينو، بالخلود وبطفلها الميّت، وبأشياء كثيرة أخرى حزينة.

فكّرت قائلة إنّ قلبي ليس شرّيراً، والله يرى القلوب، ويحكم على النوايا أكثر ممّا يحكم على الأعمال. لقد فكّرت بكلّ شيء، بكلّ شيء. لقد أحببت كوستانتينو، وبكيت ما دام في عينيّ دموع. أمّا الآن فقد جفّت دموعي، أظنّ الآن أنّه لن يعود أبداً، أو أنّه سيعود عندما نكبر في العمر، ولا أستطيع أن أبكي ثانية. ما هو ذنبي إذا كنت لا أستطيع أن أبكي ثانية وانا أفكّر فيه؟ كما أنّي أرى، من ناحية أخرى، أنّي مخلوقة من لحم ودم، مثل غيري، وأنّي فقيرة، وأخضع لفتن النفس والآثام. عليّ أن أتبوأ المكان الذي يختاره لي الله كي أتمكّن من التخلّص من تلك الفتن والآثام. بلى يا عمّتي بورّيدّا، أنا أفكّر بالخلود، وأنا أفعل ما فعلتُه كي أنقذ نفسي... لا، لست شرّيرة، قلبي ليس شرّيراً.

بل كادت تعتقد أنّ قلبها طيّب وكريم، أو أنّها اعتقدت ذلك في حسابات عقلها على الأقلّ، إن لم يكن في الأعماق الصادقة من ضميرها – أي في تلك

الأعماق التي لا تكذب أبداً – والتي تدفّقت منها مشاعر الحزن التي أحاطت بها. وهكذا فقد نامت وهي مرتاحة.

بدأ الفجر الصافي يقرع على زجاج الغرفة المضيافة بأجنحته الكبيرة الشفّافة، الباردة والصافية كالجليد، ففكّرت جوفانّا بالشمس وسرّت.

استيقظت العجوز أيضاً ونظرت إلى الزجاج.

وقالت بسرور: - آه، سيكون يوماً جميلاً!

نهضتا. كانت العمّة بورّيدّا قد دخلت إلى المطبخ، فقدّمت القهوة للضيفتين بلطف وتهذيب، ثمّ ساعدتهما على تسريج الحصان. بدا أنّها لا تذكر شيئاً من أحاديث الليلة الماضية، لكن ما إن خرجت الضيفتان حتّى رسمت بسرعة إشارة الصليب في الهواء، إذ ظنّت أنّ الخطيئة المميتة قد انحسرت عنها بانصرافهما من البيت.

لكنّها فكّرت وهي تغلق الباب قائلة في نفسها: - وأخيراً. أتمنّى لكما رحلة موفّقة وليكن الله معكما.

أخذت الديوك تصيح بصوتها الأجشّ في صمت تلك الساعة البلّوري، كان صياحها يصل من قريب، ومن بعيد ومن أبعد أيضاً، بينما كانت البلدة الصغيرة نائمة تحت سماء زجاجيّة زرقاء.

كانت المرأتان من آل إيرا وحيدتين في هذه الرحلة، كان عليهما أن تنزلا إلى الوادي وأن تعبرا حلقه، وأن تصعدا منه لتتسلّقا عند الفجر الجبل الرماديّ بقممه المرسومة فجّةً على خطّ الأفق والمغطّاة بالثلوج ذات اللّون الأبيض المعدنيّ.

كان الجوّ بارداً، ولم يكن هناك رياح، وإن كان الهواء لاسعاً وحادّاً، ساد أيضاً صمت لا يوصف في الواديّ الكبير الموحش، كان يتخلّله صوت السيول الرتيب ليزيد

من شدّته بدلاً من أن يكسره. وتغطّى كذلك جانبا الممرّات البنّيّة الضيّقة بالأعشاب الشتويّة القصيرة ذات اللون الأخضر الداكن المغطّى بالصقيع. فاحت أيضاً روائح الطحالب الرطبة فوق الصخور، بينما كانت الشجيرات الخضراء تقطر بالصقيع: لقد أحيت هذا النضارة البرّيّة الوادي، لكنّ الأشجار المتناثرة هنا وهناك كانت تتلوّى جرداء، كأنّهم نسّاك يعرّضون أنفسهم للبرد ونور الفجر من أجل التكفير عن ذنوب ارتكبوها. أمّا في الحقول المزروعة فكانت الأرض سوداء ورطبة، وكانت خطوط جدران الأسوار الطويلة والمغطّاة بالطحالب تمتدّ لامتناهية في صعود وهبوط، فتظهر عندما ترى من الأعلى كأنّها دودة خضراء هائلة. سارت المرأتان وسارتا، الوجهان والأيادي والأقدام متجمّدة. عبرتا النهر في مخاض عريض كانت تمرّ المياه فيه ضحلة وصامتة. ثمّ صعدتا من الوادي وبدأتا في تسلّق الجبال. كانت الشمس قد أشرقت، ساطعة لكنّها باردة، بينما كانت جبال الساحل تشمخ بلونها الأزرق في السماء الذهبيّة. بدأت الرياح تمرّ الآن عبر الشجيرات المنخفضة، تحمل معها روائح الصخور الرطبة.

سارت المرأتان غارقتين في صمتهما، داخل ذلك الوادي المظلّل بالمنحدرات المحيطة ذات البياض الناصع بالصقيع. التقتا برجل من ناحية بيتّي كان يسير على قدميه، فتبادلوا التحيّة رغم أنّهم لا يعرف بعضهم بعضاً، ثمّ سارتا وتجاوزتاه.

كانت الشمس تزداد إشراقاً وتزدادان دفئاً كلّما صعدتا، وكانتا تفكّران بوجهتهما التي كانت تقترب، والأشياء التي احتفظتا بها في حقيبة السرج، والأشياء التي يتعيّن عليهما أن تقوما بها بمجرّد وصولهما إلى البلدة. كما كانت العمّة باكيسيا تفكّر في العمّة مارتينا وبالرضا الذي ستشعر به تلك العجوز البخيلة عندما ترى جهاز جوفانّا: أمّا جوفانّا فكانت تفكّر في برونتوو والأشياء الغريبة التي قالها وهو سكران، لكنّ كليهما فكّرا في كوستانتينو عندما رأيا كنيسة سان فرانشيسكو، بيضاء في الشمس، ممتدّة في وسط التلّة بين الشجيرات المضيئة،

ثمّ تليا له صلوات سانتا ماريّا. وصلتا بعد الظهر بقليل. كان البرد في أورلي أكثر حدّة مما كان عليه في نوّرو. ففي دائرة الحقول الرطبة، وتحت الأنفاس المتجمّدة التي تطلقها القمم الملفوفة بالثلوج، الشبيهة بتمثال أبي هول ضخم، كانت الشمس لا تكاد تكون قادرة على تدفئة العشب في المسارات الكئيبة. وكانت السقوف صدئة وبعضها مغطّى بالحشائش. الجدران سوداء بالرطوبة، والأشجار العارية ضاربة إلى الحمرة من البرد. ارتفعت بعض خيوط الدخان الداكن في السماء الصافية التي توحي بمشاعر وحدة لا متناهية. كانت البلدة صامتة كالعادة، وبدت مقفرة ومهجورة. على الجدران، فتحت نباتات السرّة الصخريّة(١) أكوابها الصغيرة الشبيهة بلحم أخضر، كما أخذت السحالي المرقّطة تعرّض نفسها لأشعّة الشمس، وترتفع القواقع والخنافس البرّاقة من حجر إلى حجر.

كانت العمّة مارتينا تغزل تحت الرواق الذي تسلّلت إليه الشمس، وعندما رأت جارتيها تصلان استولى عليها هوس شديد بمعرفة ماذا تحملانه في حقيبة الخرج، لكنّها لم تتحرّك من مكانها بل إنّها أجابت بتحفّظ على تحيّتهما.

عند المساء عاد برونتوو الذي كان يزور خطيبته كلّ ثلاثة ايّام، فرغبت أمّه بمرافقته يدفعها الفضول بمعرفة ماذا حمل آل إيرا معهما من نوّرو.

كان هناك قليل من خشب العرعر يشتعل في موقد العمّة باكيسيا، ويلقي بعضاً من أضواء حمراء تستطيل على أرض المطبخ وجدرانه الترابيّة. أرادت جوفانّا أن تضيء الشمعة، لكنّ آل ديغاز منعاها: وقد فعلت العمّة مارتينا ذلك بالفطرة، أمّا برونتوو فوجد أنّه يستطيع أن ينظر بشكل أفضل إلى خطيبته على ضوء خافت.

---

(١) أو سرّة عطارد أو l'ombelico di Venere في سردينيا، بالإنكليزيّة: navelwort penny-pies or wall pennywort

كان سلوك جوفانّا مثيراً للإعجاب أمام حماتها المستقبليّة وبرونتوو. ظهرت لطيفة جدّاً، وبدا صوتها مثل صوت الأطفال، رغم أنّها كانت تقول كلمات حكيمة وعميقة. حاسرة الطرف، تخفض رموشها الطويلة، وتبدو كأنّها صبيّة في الخامسة عشرة من عمرها، بريئة وطيّبة، وكان لا يحدث شيء من هذا عن تصنّع مقصود، بل بالفطرة. كان برونتوو مغرماً بها بجنون لدرجة أنّه، عندما يثمل، كان يركض إليها ويركع على ركبتيه ويغنّي بعض أدعية الطفولة التي تعلّمها في صغره. ثمّ كان يبكي بعد أن يدرك أنّه مخمور، ويقسم أنّه لن يشرب مرّة أخرى أبداً، أبداً.

أمّا في ذلك المساء فكان معافى بالفعل، وكان يتكلّم بهدوء، ويحتضن دائماً جوفانّا بنظراته العاطفيّة. وعندما يبتسم كانت أسنانه تلمع وهي تعكس ضوء النار.

بدأت العمّة باكيسيا تقصّ عن مغامرات الرحلة، تكلّمت عن المحامي، عن الأجنحة التي تستعملها سيّدات المجتمع، عن مطبخ آل بورّو، وعن الرجل المجهول الذي التقتا به في الطريق، لكنّها لم تتطرّق إلى الأحاديث التي دارت مع العمّة بوريّدّا، ولا عن مشترياتهنّ، رغم أنّها كانت تخمّن مقدار هوس العمّة مارتينا وفضولها لمعرفة ذلك، بل إنّها كانت هي بالذات تحترق من الرغبة في عرض الأشياء الجميلة التي اشترتها.

سأل برونتوو وهو ينبش النار بعصاه: - وأنت ماذا تقولين يا جوفانّا؟ أراك غارقة في التفكير هذا المساء، ماذا بك؟

فأجابت: - إنّي منهكة. ثمّ سألت فجأة عن أخبار جاكوبّه ديغاز.

- ذلك المجنون؟ إنّه يعذّبني باستمرار، والحقيقة أنّي سأركله بقدمي في نهاية الأمر. كما أنّه لم يعد بحاجة لأنّ يعمل خادماً.

قالت العمّة باكيسيا: - لا أعرف، كان شخصاً شديد المرح، أمّا الآن وقد أصبح عنده بيت وقطيع ويقال إنّه سيتزوّج هو أيضاً عمّا قريب، فماذا حلّ بمزاجه!... وأنتما تعلمان أنّه قد همّ مرّة بضربنا.

- ألم يرجع إلى هنا مرّة أخرى؟

- لم يرجع أبداً.

أضافت جوفانّا بصوت رتيب: - ولا حتّى إيزيدورو بانه.

قالت العمّة مارتينا: - يبدو لي أنّي رأيته البارحة يمرّ من هنا. رفعت جوفانّا رأسها بحركة نشطة، لكنّها لم تقل شيئاً، بينما قال برونتوو وهو يضحك:

- إنّكم لا تحتاجون لعلقاته...

سألت العمّة مارتينا بعد صمت قصير: - حسناً، ألم تأتياني بأيّ هديّة من نوّرو؟ أم تريدان أن أموت تشوّقاً! لكنّ المرأتين تصنّعتا الدهشة والحسرة، رغم أنّهما قد جاءتا بمئزر لها.

- آه، كيف أنّنا لم نتذكّر... آه، بالفعل!...

ضحكت العمّة باكيسيا بصوت كالصقور، لكنّها سرعان ما عادت إلى الجدّيّة بعدما رأت أنّ جوفانّا لم تتخلّ عن أحزانها.

- لا، لم نتذكّر. لكنّ جوفانّا ستريكم الأشياء التي اشتريناها...

نهضت جوفانّا وأشعلت شمعة وذهبت إلى الغرفة المجاورة. تبعها برونتوو بعينين متّقدتين، ففهمت العمّة مارتينا أنّها ذهبت لجلب الهديّة. مرّت عدّة دقائق ولم تعد جوفانّا.

سأل برونتوو: - ماذا تفعل هناك؟

- من يدري؟

مرّت دقيقة أخرى.

فقال وهو ينهض وينطلق: - سأذهب لأرى.

- لا، لا، ماذا تفعل؟ قالت العمّة باكيسيا، لكن بصوت لطيف، فغضبت العمّة مارتينا واستدعت ابنها بهمّة:

- س س س... س س س...

لكنّه تقدّم على رؤوس أصابع قدميه. كانت جوفانّا واقفة على قدميها قرب صندوق مفتوح، تعيد قراءة رسالة كانت الأمّ وابنتها قد وجدتاها تحت الباب عند عودتهما من السفر، وقد سُلكت من شقّ أسفل الباب خلال فترة غيابهما. كانت رسالة مؤلمة من كوستانتينو، مكتوبة بخطّه البدائيّ البسيط، وكان يرجو جوفانّا للمرّة الأخيرة بألّا تفعل الذي كانت تهمّ بفعله. كان يذكّرها بالأيّام الخوالي وبحبّهما، ويعدها بالعودة، ويقسم على براءته. وخلص إلى القول: «إذا كنت لا تشفقين عليّ، فأشفقي على نفسك، على روحك، فكّري بالخطيئة المميتة، فكّري بالأبديّة والخلود».

آه، إنّها كلمات العمّة بورّيدا نفسها، هي نفسها، نفسها بالذات! ولا بدّ أنّ العمّ إيزيدورو هو الذي سلك الرسالة تحت الباب، خاصّة أنّه مضى وقت طويل لم تتلقّ فيه جوفانّا أخباراً مباشرة عن السجين. كانت الدموع تغطّي عينيها، ومن يدري؟ ربّما أنّ ذكريات الماضي أثارت مشاعرها أكثر من أفكار المستقبل والأبديّة. أحسّت على حين غرّة بالباب يدور بلطف وبأنّ هناك شخصاً قد دخل خلسة، فانحنت شيئاً ما وتصنّعت أنّها تنبش في الصندوق بيديها المرتجفتين وعينيها المغشّيتين.

كان برونتوو خلفها، مفتوح الذراعين، فأحاط بكتفيها، فتصنّعت الفزع وارتجفت.

سألها بصوت مرتجف ومنفعل: - ماذا تفعلين، ماذا تفعلين؟

فقالت وهي تحاول التخلّص من ذراعي برونتوو: - آه، إنّي أبحث... أبحث... عن المئزر لأمّك. لا أعرف أين وضعته! دعني! دعنيّ! لكنّها عندما

استدارت رأت أسنانه تلمع بين شفتيه المبتسمتين، الحمراوين والبرّاقتين كالكرز، وشعرت مباشرة بيده خلف رأسها، بينما لمست شفتيها هاتان الشفتان الحمراوان والبرّاقتان واللاسعتان مثل النار.

قالت بصوت لاهث، بعدما قبّلها: - آه، إنّنا لا نفكّر في الأبديّة والخلود...

لكن عندما عادا إلى المطبخ، بعد ذلك بقليل، أخذت تضحك ضحكة نضرة وصافية مثل ضحك الصبايا، بينما كان برونتوو ينظر إليها بتلك الطريقة الخاصّة التي يتّخذها عندما يكون سكراناً.

انقضى الخريف. ولم ينقطع أصدقاء كوستانتينو لحظة واحدة عن التآمر والصراع كيلا تنعقد تلك الزيجة اللعينة. لكن عبثاً. في تلك المناسبة بدا أنّ آل ديغاز وآل إيرا أناس مسحورون. كانوا منيعين لا ينثنون أمام رجاء ولا يخضعون لتهديد ولا يحيدون بفعل نميمة أو ثرثرة.

العمدة بالذات، حتّى العمدة، وهو راع يشبه نابوليون الأوّل، شاحب الوجه ومعتدّ بنفسه، كان معادياً لزيجة الشيطان تلك، وعندما ذهبت جوفانّا مع برونتوو بسريّة تامّة ليطلبا منه إشهار الزيجة، عاملهما بازدراء وبرود، وكان يبصق على الأرض كلّ ثانيتين. كما هدّد الناسُ بإثارة الفضائح. كانوا يشعرون بالدهشة عندما كان الأمر يتعلّق بالطلاق، لكنّهم لم يعبئوا بذلك. ثمّ بدؤوا يثرثرون عندما سمعوا عن تتيّم برونتوو بجوفانّا، لكنّهم كانوا في حقيقة الأمر مسرورين لأنّهم وجدوا في هذا ما يسلّيهم. أمّا عندما أصبح الزواج أمراً واقعاً، وكان يبدو مستحيلاً، فإنّ الناس بدؤوا يضحكون، وإن كانوا يأملون أن يكون برونتوو يستغلّ آل إيرا ويسخر منهم. لكن الآن، الآن لم يكن للناس أن يقولوا ربّما شيئاً ولا أن يضحكوا إذا تصاحب برونتوو وجوفانّا هكذا، في خطيئة مميتة (ولن تكون هذه لا الحالة الأولى ولا الأخيرة، كما يمكن لهم منح العذر لجوفانّا بسبب صباها وفقرها)، لكن الزواج، زواج امرأة

متزوّجة، أن تتزوّج! لا يمكن للناس أن يتحمّلوا أمراً كهذا. ماذا تريدون؟ هكذا هم الناس. ثمّ إنّ هذا شيء رهيب، خطيئة، فضيحة مدوّية. وكانوا يخشون أن يعاقب الله البلدة بأسرها بذنبهما، فهدّد بعضهم بإثارة فضيحة في يوم العرس، برمي الحجارة، بالتصفير، بل بضرب العروسين. وكانوا هم يعرفون هذا: فكان برونتوو يغضب، والعمّة باكيسيا تقول: «دعوا الأمر لي» والعمّة مالثينا ترفع رأسها كأنّها مهرة شمّت رائحة البارود. آه، كانت تريد أن تعارك، وأن تتصر، كانت تشعر أنّها تهرم، كانت منهكة من العمل وتريد خادمة في بيتها بالمجّان. كانت جوفانا تروق لها ويجب أن يتزوّجها برونتوو، وليمت الناس حسداً.

في مساء اليوم الذي أشهر فيه الزواج، كان العمّ إيزيدورو بانه يعمل في كوخه، على ضوء أرجوانيّ من نار حيّة كبيرة. فالعمّ إيزيدورو لا يقبل بأقلّ من نار كبيرة، لأنّه كان يأتي بالحطب هو نفسه من الحقول، من ضفاف النهر، من الغابة. أثناء الشتاء كان ينسج حبالاً من وبر الخيل: كان يعرف أن يفعل كلّ شيء، كان يخيط ويغزل ويطبخ (عندما يكون لديه ما يكفي) ويعرف كيف يرقّع الأحذية: ومع ذلك فهو لم يخرج من بؤسه ابداً.

فتح الباب على حين غرّة وغلبت على الشقّ الذي فتح قطعة من ليالي آذار، واضحة لكن مبرقعة، وجاء جاكوبّه ديغاز وجلس بصمت قرب النار.

كان مطبخ الصيّاد أشبه ما يكون بلوحة فلمنكيّة، الأشكال فيها واضحة تحت ضوء أحمر يحدّد الأشياء ويترك الخلفيّات سوداء معتمة: وقد تُرى في تلك الخلفيّات السوداء شبكة عنكبوت رماديّة، والعنكبوت في وسطها. وكان هناك في زاوية الموقد إبريق زجاجيّ مترع بالماء حتّى الرقبة، وفيه علق أسود يسبح في ذلك الماء. فضلاً عن سلّة صفراء معلّقة على الحائط، ثمّ الرجلان الحزينان وحبل الفرو الأسود المهترئ بين أصابع الصيّاد العجوز المحمرّة والهزيلة.

سأل جاكوبّه: - والآن، ما العمل؟

فكرّر الاخر: - ما العمل؟ ما العمل؟ أنا لا أعرف.

فاستأنف جاكوبّه وكأنّه يكلّم نفسه: - لقد صدر الإشهار، أتمّوا كلّ شيء، كلّ شيء بالفعل! ولم يأت السكّير اليوم حتّى إلى الحظيرة، كما عدت أنا إلى البلدة. حسناً، فليسرقوا له خرفانه، فأنا لا أكترث أبداً. لقد جئت: لأنّه يجب أن نفعل شيئاً ما. إيزيدورو بانه، إيزيدورو بانه، دع عنك هذا الحبل واستمع إليّ. يجب علينا... أن نفعل... شيئاً... هل سمعت؟

- سمعت. ماذا بوسعنا أن نفعل؟ لقد فعلنا كلّ ما بوسعنا أن نفعله. لقد صرخنا، لقد ترجّينا، لقد هدّدنا. تدخّل العمدة، والأمين العامّ والخوريّ إلياس.

-رائع هذا الخوريّ إلياس! وماذا فعل هو؟ لقد وعظ، لكنّه رشّ السكّر، كان عليه، كان عليه أن يهدّد، كان عليه أن يقول إنّي سأحمل الكتب المقدّسة وأصبّ عليكما اللعنة، وأكتب عليكما الحرمان. لن تشبعا أبداً لا من ماء ولا من خبز ولا من أيّ شيء آخر، بل ستذوقان الجحيم في هذه الحياة. لو فعل هذا كنت سترى النتائج، لكن لا، لأنّ ذلك شخص أحمق، ذاك هو خوريّ من حليب رائب، لم يقم بواجبه. فلا تذكر اسمه وإلّا أغضبتني.

ترك إيزيدورو الحبل.

- لا جدوى من غضبك. لم يكن على الخوريّ إلياس أن يهدّد، وهو لم يهدّد. ومع هذا، فصدّقني أنّ الحرمان سيقع على ذلك البيت.

فقال جاكوبّه وقد علا فزع مرير على وجهه: - آه، أنا سأغادر، أجل سأغادر ذلك البيت. لا أريد مزيداً من خبزهم الملعون! لكنّي أريد قبل ذلك أن أتذوّق حلاوة ضرب عروسي الشيطان، ذين العروسين.

فقال إيزيدورو بابتسامة حزينة، مقلّداً جاكوبّه: - أنت مجنون يا عصفور الربيع الصغير.

- أجل، أنا مجنون، لكن مهما كنت مجنوناً، فلن يهمّك شيء من الأمر. لكن أنت أيضاً لم تفعل شيئاً لمنع هذا الكفر والتدنيس. آه، ما أقرف هذا! لقد فقدت كلّ مرح في قلبي...

- وأنا شخت عشر سنين.

- مرح قلبي... عدما أفكّر بما قد يظنّه كوستانتينو فينا إذ لم نعرف أن نمنع... هل صحيح أنّه مريض؟

فقال إيزيدورو وهو يهزّ راسه: - ليس الآن. كان كذلك. لكنّه يائس. ثمّ استأنف عقد الحبل وهو يتمتم:

- الحرمان... الحرمان...

فاستأنف جاكوبّه وهو يرفع صوته: - إنّي أغضب لدرجة أنّ الزبد يعلو شفتيّ، مثل الكلاب، أجل مثل الكلاب! آه، لن أترك ذلك البيت حتّى لو متّ، أريد أن أكون هناك لأرى الحرمان يحلّ بهم. أجل، إنّ الله سيعاقبهم في الحياة وبعد الممات. هذا أكيد، وأنا أريد أن أرى ذلك العقاب. لكن ماذا تصنع الآن؟

- حبلاً من الوبر.

صمتا. كان جاكوبّه يراقب الحبل، بينما كانت عيناه تسبحان في حلم من أحزان وغضب.

- لمن تبيع هذه الحبال؟

- آخذها إلى نوّرو، وأبيع منها هنا أيضاً للفلّاحين، فهم يستعملونها لربط الثيران. لماذا تنظر إليها بهذه الطريقة؟ هل تريد أن تشنق نفسك؟

- لا، يا عصفور الربيع الصغير، أنت الذي ستشنق نفسك إن شاء الله. ثمّ استأنف قائلاً: - إذاً، لقد أشهروا الزواج.

- صمتا من جديد، ثمّ قال إيزيدورو:

- من يدري؟ أنا مثلاً ما زلت أرجو أن لا تتمّ تلك الزيجة. رجائي بالله، أرجو أن يفعل القدّيس قسطنطين معجزة.

فقال الثاني بشيء من السخرية: - بالفعل، معجزة!

- ولم لا؟ لو مات مثلاً قاتل بازيليو ليدّا الحقيقيّ واعترف قبل موته؟ هذا يعني أنّ الطلاق يصبح لاغياً.

فأجاب الثاني بالسخرية نفسها: - أجل، صحيح! في هذه الأيّام! أقسم إنّك ساذج مثل طفل في الثالثة من عمره!

- من يدري؟ أو ربّما اكتشفوه.

- أجل، صحيح! في هذه الأيّام! ثمّ ماذا نعرف نحن عن الأمر؟ من يمكن له أن يكشفه؟ وكيف؟

- من! أنا، أنت، أو شخص آخر...

- أنت ساذج ليس مثل طفل في الثالثة من عمره، لكن مثل حلزون قبل أن يخرج من قوقعته. كيف يمكن لنا أن نكتشفه؟ من ناحية أخرى، هل نحن متأكّدون من أنّه لم يكن كوستانتينو بالذات؟

فقال إيزيدورو: - آه، نحن متأكّدون! يمكن أن يكون أيّ واحد منّا، لكن ليس هو. يمكن أن أكون أنا، يمكن أن تكون أنت...

فنهض جاكوبّه لينصرف.

- ماذا بوسعنا إذاً أن نفعل؟... هل هناك من حلّ؟... أخبرني أنت.

فكرّر إيزيدورو من غير أن يرفع رأسه: - ما عداه هو! هناك حلّ. أن نستسلم لمشيئة الله.

فصرخ الثاني وهو يصول ويجول عبر الكوخ مثل وحش سجين: - كم تغضبني! أنا أسأل عن حلّ وأنت تجيبني بهذا الجواب، مثل الحمقى. إنّي ذاهب لأشنق باكيسيا إيرا، هذا كلّ ما في الأمر!

وغادر كما جاء، دون أن يقول وداعاً، وهو غاضب بالفعل. كما لم يرفع العمّ إيزيدورو رأسه حتّى. لكنّه نهض بعد لحظات قليلة ليغلق الباب الذي تركه جاكوبّه مفتوحاً، ونظر إلى الحافّة.

كانت ليلة آذار دافئة مقمرة رغم أنّها غائمة، وكان هناك عطر رطب يصدر عن النبات الأخضر الذي انبعث من جديد. بينما بدت الشجيرات التي تحيط بكوخ الرجل العجوز وكأنّها نائمة قرب النباتات البرّيّة في ذلك الضوء الغريب، ضوء القمر المخفيّ. وعلى خلفيّة الأفق، بين أبخرة بلون الحليب، كانت السماء الصافية تتعرّج على شكل خطّ رفيع وكأنّها نهر أزرق يتدفّق في سهل وسط نيران ليليّة تشتعل على ضفافه.

أغلق إيزيدورو الباب وعاد ليعمل وهو يتنهّد.

الهيئة العامة السورية للكتاب

- XI -

كانت عشيّة عيد ارتقاء العذراء. كان يوم أربعاء حارّاً وكثير الغيوم.

كانت العمّة مارتينا تغزل تحت الرواق، بينما كانت جوفانّا، حبلى، تنقّي القمح. وهذا عمل يتطلّب في العادة جهود شخصين، لكنّه كان عليها أن تقوم به وحدها، فكانت تضع القمح في المنخل وتفصله عن الزوان، ثمّ كانت تنقّيه على سطح لوح من الخشب موضوع داخل سلّة كبيرة. كانت جوفانّا تجلس على الأرض أمام السلّة، بجوار وعاء مليء بقمح ذهبيّ اللون: لكنّها بدلاً من أن تسمن، فإنّ «ذات الزوجين»، كما أصبحوا يسمّونها في القرية، قد فقدت وزنها. كما انتفخ أنفها واحمرّ بعض الشيء، وأحاطت هالة بعينيها، وبرزت شفتها السفليّة لتبدو مليئة بالاشمئزاز. تحلّقت حول السلّة بعض الدجاجات بريشها المنفوش، وكانت تنتفض بين الفينة والأخرى فيتبعثر كثير من ريشها على الأرض، بل كانت تندفع إلى ما هو أعظم فتدسّ مناقيرها في داخل السلّة. كانت جوفانّا تصرخ عندئذ عليها وتشتمها لتبعدها عنها، فكانت تهرب، وإن بقيت محترسة، لتعاود الكرّة بمخالبها المرفوعة عندما تجد أنّ الصبيّة قد سهيت عنها.

والواقع أنّها كانت تسهى في كثير من الأحيان. كانت عيناها حزينتين، أو بالأحرى لا مباليتين، كأنّهما عينا شخص أنانيّ لا يفكّر إلّا بأمراضه. فهي وإن زال العالم فإنّها لن تفكّر إلّا بشأنها وبما ينفع نفسها. كانت حافية القدمين بل متّسخة بعض الشيء، لأنّ العمّة مارتينا كانت تبخل عليها بالصابون.

لم يكن هناك حديث بين المرأتين، لكنّ العمّة مارتينا كانت تراقب جوفانّا، وعندما تجد أنّها لم تطرد الدجاجات في الوقت المناسب، فكانت هي التي تصرخ عليها لتبعدها.

في إحدى المرّات تجرّأت واحدة من تلك الطيور المزعجة وتسلّقت فوق السلّة لتنقر ما في داخلها.

صرخت عليها العمّة مارتينا: - آه! ها ها ها! وعندما التفتت جوفانّا بعنف رفعت الدجاجة جناحيها وطارت بعيداً بشيء من القمح.

خشيت جوفانّا من أن تنهرها حماتها (وهي تخشى ذلك على الدوام) فانحنت متذمّرة ومدّت يديها لتلملم حبّات القمح.

- كم هي مزعجة!

فقالت العمّة مارتينا بصوت حنون: - آه، بالفعل، إنّها مزعجة بالفعل، لكن لا تنحني بهذا الشكل يا بنيّتي فقد يضرّ بك. ها أنذا قادمة.

وفي الواقع فقد تركت مغزلها وذهبت لتلملم حبّات القمح المنتشرة حبّة حبّة، بينما تنحّت دجاجة لتنقر صوف المغزل.

عندما لاحظت ذلك العجوز طردتها وهي تصيح: - ليتهم ينتفون ريشك! بينما بدأت بقيّة الدجاجات يساعدنها في لملمة الحبوب.

بقيت جوفانّا تنخل القمح برأس منخفض، صامتة ومستغرقة.

كان يرى من خلال الرواق الفراغ المقفر، وكذلك بيت العمّة باكيسيا، قاتماً وسط ضوء بعد الظهيرة الغائم، الرماديّ البرّاق، كما كان يرى طرف من البلدة المقفرة والحقول الصفراء والأفق المعدنيّ.

كانت تخيّم في السماء غيوم من فوقها غيوم، وتمطر كلّها حرّاً شديداً وسكوناً عميقاً. مرّ أمام الرواق فتى طويل حافي القدمين يقود ثورين أسودين صغيرين، ثمّ مرّت امرأة صغيرة، حافية هي أيضاً، ونظرت إلى جوفانّا بعينيها

الواسعتين الفاتحتين. ثمّ مرّ كلب أبيض بدين، وخطمه إلى الأرض، ولم يكسر الصمت شيء آخر، بينما كان الهواء الحارّ ثقيلاً وخانقاً.

أخذت جوفانّا تنخل القمح وتنقّيه ببطء متزايد، كانت تشعر بالتعب، كانت جائعة لكن ليس إلى الطعام، وكانت عطشى لكن ليس إلى ماء، كانت تشعر بحاجة في جسمها لا يمكن التعبير عنها وإلى شيء لا يمكن لها أن تجده.

عندما انتهى عملها نهضت ونفضت ثوبها وأخذت تنقل القمح من السلّة إلى الوعاء الثاني.

فقالت لها العمّة مارتينا بحنان: - اتركي، اتركي، قد يؤذيك.

كانت جوفانّا تريد أن تحمل هي القمح إلى المطحنة (مطحنة يدوّرها حمار، وتطحن حوالي مئة لتر من القمح كلّ أربعة أيّام)، لكنّ حماتها لم تسمح لها بذلك وذهبت هي بنفسها.

عندما بقيت وحدها، توجّهت جوفانّا إلى المطبخ، ونظرت فيما حولها، ثمّ فتّشت هنا وهناك، لا شيء، لا شيء، لا فواكه، لا نبيذ، ولا رشفة مشروب يمكن أن تروي العطش الغريب الذي كان يقضّ مضجعها. لم تجد إلّا بعض القهوة فسخّنت شيئاً منها ووضعت فيها قطعة سكّر كانت تحتفظ بها في جيبها، ثمّ غطّت النار بحرص.

لكن بدا أنّ ذلك القليل من الشراب الساخن قد زاد من عطشها. كانت ترغب في أن تحتسي مشروباً رطباً وحلواً، لم يسبق لها أن شربت مثله أبداً، ولن تشرب مثله أبداً. ألمّ بها غضب أصمّ وأبكم أحيا عينيها. ذهبت نحو باب المخزن وهزّته، رغم أنّها تعرف أنّه مغلق بالمفتاح، وتمتمت بشتيمة بشفتيها الداكنتين.

ثمّ خرجت، حافية كما كانت، واجتازت الساحة بخطى صامتة، ونادت على أمّها.

تعالي، قالت لها العمّة باكيسيا من داخل المطبخ.

- لا أستطيع، لا أحد في البيت.

عندها خرجت العمّة باكيسيا ونظرت إلى السماء، وقالت:

- ستمطر هذا المساء، سيثور إعصار.

فقالت جوفانّا بصوت خشن: - حسناً، فلتسقط كلّ صواعق السماء! ثمّ أضافت بعد أن حلّت صوتها: - على ألّا تصيب الذي أحمله في بطني...

- آه، يبدو أنّ مزاجك سيّئ يا روحي! إلى أين ذهبت الساحرة؟ رأيت أنّك كنت تنقّين القمح.

- ذهبت لتأخذه إلى المطحنة. خافت أن أذهب أنا، خشيت أن أسرقه لها.

- اصبري يا بنيّتي. ليس الأمر كذلك.

- لا بل إنّه كذلك، هكذا! لم أعد أستطيع أن أتحمّل المزيد. أيّ حياة هي هذه؟ إنّ العسل على شفتيها والخنجر في يدها. «اشتغلي، اشتغلي، اشتغلي!». إنّها ورائي كأنّي ثور شغل. والخبز خبز شعير وماء وقذارة، والظلام في المساء، وأقدام حافية بقدر ما أشاء.

كانت العمّة باكيسيا تسمع ولا تستطيع أن تواسيها. كما أنّ تلك الشكوى كانت شأن كلّ يوم، والعمّة باكيسيا نفسها كانت ذليلة مهانة، وعليها الآن أن تعمل أكثر من ذي قبل، لكنّها لم تكن تتذمّر من هذا، بل كانت مستاءة من حال البؤس الذي تعيش فيه جوفانّا.

- اصبري، اصبري يا روحي، ستأتي أيّام أفضل، ولا يمكن لأحد أن يسرق منك مستقبلك.

- آه، وماذا يهمّني حينها، سأكون عجوزاً، هذا إذا لم أمت قبل ذلك من الغضب. وماذا يفيد أن يكون المرء بخير عندما يهرم؟ لا يمكن له وقتها أن يتلذّذ بشيء.

فقالت الثانية بعينيها الخبيثتين الخضراوين مثل يراعتين في الليل:

- أوه، لا يا روحي، أنا ما زلت أتلذّذ بالخير. إيه، إيه، أن تجلسي ولا تشتغلين بشيء، تأكلين اللحم المشويّ، الخبز الطريّ، أنواع السمك، وتشربين نبيذاً ورديّاً وأبيض وشكولاته...

- كفّي عن هذا! صرخت جوفانّا بألم، وأخبرت أمّها كيف أنّها لم تجد شيئاً يرضي شهواتها التي لا توصف. - تحلّي بالصبر: هذا بسبب وضعك، فأنت حتّى لو وجدت أفضل الأشياء في العالم والمشروبات التي يشربها الملك فإنّك لن تشعرين بالرضا.

- بقيت جوفانّا تنظر نحو الرواق، بعينين حزينتين وفم يملؤه القرف.

فكرّرت الأمّ: - ستمطر هذه الليلة.

- فلتمطر إذاً.

- هل سيعود برونتوو؟

- أجل سيعود، وأريد أن أخبره هذا المساء، آه، أجل، أريد أن أخبره.

- ماذا تريدين أن تقولي له يا روحي؟

- أريد أن أقول له إنّي لم أعد أستطيع أن أتحمّل، وإنّه واهم إذا كان قد أخذني لأعمل خادمة عنده ولا شيء غير ذلك، وإنّي... وإنّي...

فاندفعت العجوز وقالت: - أنت لن تقولي له شيئاً! اتركيه بسلام، فهو أيضاً يعمل، هو أيضاً يعيش كالخادم، فلماذا تريدين أن تعذّبيه؟ يمكن له أن يطردك، وأن يتزوّج في الكنيسة من امرأة أخرى...

فارتجفت جوفانّا من الألم وتراجعت وفاضت عيناها بالدموع.

قالت: - إنّه ليس سيّئاً، لكنّه يسكر دائماً، تفوح منه رائحة الغرابّا كالسكّيرين، فاشعر بالغثيان. ثمّ يغضب بدون سبب. آه، هذا مقرف، مقرف بالفعل. ومع ذلك، أجل، كان من الأفضل... آه، كان...

فصاحت العمّة باكيسيا بصلف: - حسناً، ماذا كان من الأفضل.

- لا شيء.

هكذا دائماً. كانت جوفانّا تتذكّر كوستانتينو، الطيّب، الجميل، النظيف واللطيف، وكانت تتحسّر على الماضي. كان يلفّ قلبها حزن عميق، أشدّ مرارة من الموت، ولم يكن تفكيرها بأمومتها يخفّف عذابها بل كان يزيده بطريقة رهيبة.

هبط الليل، ثقيلاً ورماديّاً كأنّه رؤيةٌ برخام الجرانيت، ولم يكن هناك شيء من الرياح يكسر ذلك السكون الثقيل في حرّه.

ذهبت جوفانّا لتجلس على حافّة الدكّ تحت شجرة اللوز التي لا تتحرّك، فجلست أمّها قربها، وبعد صمت قصير قالت جوفانّا وكأنّها تستأنف حديثاً سابقاً:

- بلى، بالطبع، ذلك كما جرى في أيّام الإدانة الأولى. إنّي أحلم الآن كلّ ليلة بعودته، ذلك كما كنت أفعل في ذلك الوقت، وممّا يثير الفضول، أنّي لا أشعر أبداً بأيّ خوف، رغم أنّ جاكوبّه ديغاز قال لي إنّ كوستانتينو سيقتلني عندما يعود. لا أدري، لكنّ قلبي ينبئني أنّه سيعود بالفعل. لم أكن أصدّق ذلك من قبل، لكنّني بدأت الآن أصدّقه. أوه، لا فائدة من أن تنظري إليّ شذراً. فهل أوبخّك أنا بهذا مثلاً؟ لا، لا، لا. بل يجب عليّ أن أخشى بالفعل من توبيخك. فهل تستمتعين أنت بحالتي؟ لا أبداً، بل إنّك لم تعودي تزورينني في ذلك المنزل - وأبرزت شفتها لتشير إلى البيت الأبيض - لأنّ حماتي تخشى أن تأخذي معك غبار البيت بقدميك. أنا لا أستطيع أن أعطيك أيّ شيء. لا شيء على الإطلاق، كما ترين، ولا حتّى عملي. لقد انتهى كلّ شيء. وأصبحت مجرّد خادمة.

فقالت العمّة باكيسيا بصوت رقيق: - لكنّي لا أريد منك شيئاً يا قلبي. لماذا تحزني نفسك بمثل هذه الحماقات؟ أنا لست بحاجة لشيء، فلا تفكّري بي. لا يؤلمني إلّا ديْني لآنّا - روزا ديغاز. لن أستطيع سداده على الإطلاق، لكنّها ستصبر.

احمرّ وجه جوفانّا من الغضب، فلوت يديها ورفعت صوتها.

- أجل، هذا ما أريد أن أقوله لذلك الحيوان القذر هذا المساء، سأقول له ادفعوا على الأقلّ ثمن المزق التي أرتديها، ادفعوا هذا، ادفعوه، ولتخترق الحمم قلوبكم.

- لا ترفعي صوتك، لا تغضبي يا روحي. ألا ترين أنّه لا جدوى من الغضب. لماذا تغضبين؟ يمكن له أن يطردك – حسناً فليطردني. هذا أفضل. سيصبح عملي عندها، على الأقلّ، من أجلي ومن أجلك، وليس من أجل أولئك الملاعين. ثمّ أضافت وهي تخفض صوتها، بعد أن رأت خيال العمّة مارتينا الأسود يرتسم على خلفيّة الساحة القاتمة: - آه، ها هي ذي تعود! ستزجرني الآن لأنّي تركت البيت فارغاً، فهي تخشى أن يسرقوا لها نقودها. عندها مال كثير، وهي لا تعرف كيف تعدّه، ولا تعرف ورقة نقد من الأخرى، ولا تعرف حتّى القطع المعدنيّة. لديها عشرة آلاف لير، أجل، ألف سكود...

- لا يا روحي، بل ألفان.

- حسناً، خبّأت ألفي سكود، وأنا ليس عندي رشفة مشروب ينعشني، يطفأ هذه الحرقة التي تشتعل في داخلي.

فقالت العمّة باكيسيا: - سيكونون كلّهم لك، اصبري، وانتبهي، عندما تأتي الملائكة لتأخذها إلى الجنّة سيصبحون كلّهم لك.

سعلت جوفانّا وحكّت رقبتها واستأنفت بحماسة قاتمة:

- فليطردوني إذا شاؤوا، لا يهمّني هذا في شيء. يقول أمين البلديّة إنّي زوجة برونتوو الفعليّة، لكن يبدو لي أنّي أعيش معه في الخطيئة. هل تذكري كيف تزوّجنا؟ في الخفاء، في الظلام، لم يكن هناك حولنا ولا كلب، ولم يوزّعوا حلوى ولا أيّ شيء. بينما كان جاكوبّه ديغاز، خنقه الله، يضحك ويقول: «الآن ستبدأ المصائب»، وقد بدأت بالفعل.

قالت العمّة باكيسيا بصوت منخفض لكن حازم: - اسمعي، صدّقيني أنّك كنت دائماً مجنونة، كنت مجنونة وستبقين مجنونة... لماذا إلياس؟ من أجل حماقات صغيرة. كلّ الكنائن البائسات يجب أن يعشن كما تعيشي أنت. لكن سيأتي إليك أيضاً وقت الحصاد: فاصبري، كوني مطيعة، سترين أنّ كلّ شيء سينقضي. وسترين أنّ الأمور ستتغيّر عندما يلد الطفل.

- لن يتغيّر أيّ شيء. وعلى الأقلّ، على الأقلّ... لو أنّي لم أضع أولاداً! لكانوا ربطوني بهذا الحجر الذي يجرّني ويسحقني. حسناً، هل تريدين أن تعرفي! إنّ زوجي الحقيقيّ هو كوستانتينو ليدّا...

- إنّك تهذين يا روحي! اخرسي، أو سأغلق فمك...

- حتّى لو عاد، فلن أستطيع أن أقترن به لأنّ عندي أولاداً...

- وأنا سأغلق لك فمك! كرّرت العمّة باكيسيا قولها، وقد اضطربت ونهضت ثمّ مدّت يدها كما لتقوم بهذا العمل، لكن لم تكن هناك حاجة لذلك لأنّ جوفانّا سكتت عندما رأت حماتها وهي تعبر الفسحة.

كانت العمّة مارتينا تسير وهي تغزل، واقتربت من المرأتين ببطء.

قالت وهي ما زالت تنظر إلى مغزلها وهو يدور: - أفي الظلّ؟

فأجابت العمّة باكيسيا: - ظلّ رائع! لكنّنا نموت من شدّة الحرّ. آه، ستمطر هذه الليلة.

- ستمطر بكلّ تأكيد. على ألّا ترعد: فأنا أخاف جدّاً من الرعد. لأنّ الشيطان يفرّغ عندها أكياسه المليئة بالجوز. أرجو أن يعود برونتوو سريعاً، ماذا هناك على العشاء يا جوفانّا؟

- كلّ ما تريدين.

- هل تجلسين هناك؟ ألا يضرّ بك؟ ربّما أضرّ بك.

- وماذا تظنّين أن يفعل بي؟

- هواء الليل ضارّ على الدوام. من الأفضل أن يبقى المرء في الداخل، وهكذا تتمكّنين أيضاً من تحضير العشاء. يوجد عندنا بيض يا بنيّتي، بيض وتفّاح من ذهب. حسناً، حضّريها لك ولزوجك. ثمّ وجّهت الحديث إلى العمّة باكيسيا:

- أنا لا اشعر بالجوع في هذه الأيّام، ربّما بسبب الطقس.

لكنّ الثانيّة فكرت في سرّها: - إنّه الشيطان الذي يثقب لك ظهرك: أي أنّ البخل هو الذي يمنعك من تناول الطعام. أمّا جوفانّا فقد سكتت ولم تتحرّك، وهي غارقة في أحلامها القاتمة.

- عندنا غداً المديح في الكنيسة، عند الساعة الحادية عشرة، والواقع أنّ هذا الوقت مزعج. فهل تذهبين أنت يا جوفانّا؟ في السنوات الماضية كانوا يقومون به في العاشرة.

أجابت جوفانّا بصوت رتيب: - أنا لن أذهب. فهي تخجل الآن من الذهاب إلى الكنيسة.

- أجل، سيكون الجوّ حارّاً جدّاً في تلك الساعة. من الأفضل ألّا تذهبي.

قالت العمّة مارتينا حينئذ وهي تمدّ يدها: - لكن، إذا لم أخطئ، فهي تمطر.

وكانت قطرة كبيرة من ماء وسخ قد سقطت وانتشرت على ظهر يدها القاتمة.

تك، تك، تك، وسقطت قطرات أخرى على شجرة اللّوز الساكنة وعلى الأرض، وحفرت ثقوباً صغيرة في أرض الفسحة. لكن ظهر أنّ السماء بدأت في الوقت نفسه تصفو، وأرسلت ضوءاً مصفرّاً: فعلى خلفيّة السحب البرونزيّة كانت تمرّ سحابة صفراء كبيرة فيها بقع صفراء داكنة، فبدت كأنّها قطعة اسفنج ضخمة منقوعة بالماء.

ما إن انسحبت النسوة، حتّى بدأت تمطر بغزارة، وكان مطراً عنيفاً ذا وقع مدوّ، وبلا ريح ولا رعود، استمرّ حوالي عشر دقائق، لكنّه أغرق البلدة.

اشتكت العمّة مارتينا وندبت: - آه يا إلهي، يا قدّيس قسطنطين، يا ارتقاء العذراء المقدّس! إذا كان برونتوو في الطريق الآن فلابدّ أن يتبلّل كالصوص.

كانت تنظر بيأس نحو السماء، ومع ذلك فهي لم تتوقّف عن الغزل، بينما بدأت جوفانّا تحضّر العشاء. وقد شعرت بالاضطراب وهي تسمع وقع المطر، ليس على زوجها، ولكن بسبب شيء غير محدّد مثل خطر مجهول. فجأة اندمج التوهّج الأصفر الذي صاحب المطر بضوء مزرقّ قادم من الغرب: فتوقّفت المطر فجأة، وانشقّت الغيوم، وانفصلت بعضها عن بعض ثمّ اختفت واحدة فوق الأخرى، وواحدة بعد الأخرى، مثل أناس يتبعثرون بعد اجتماع حاشد. كما انتشر وهج لامع عبر الهواء الذي برد، وانتشرت معه روائح التراب والحشائش الجافّة التي ابتلّت، بينما علا صياح الديكة الصغيرة التي ظنّت أنّ الفجر يبزغ. ثمّ ساد الصمت. وبقيت العمّة مارتينا تغزل وهي في الرواق، سوداء على خلفيّة الغروب المزرقّة. أمّا جوفانّا، فكانت منحنية فوق الموقد لتشعل النار عندما

سمعت صهيلاً يأتي من الخارج، وشعرت برعشة عادتها بشكل غريب: فنهضت مرتجفة ونظرت إلى الخارج. كان برونتوو عائداً، وشعرت بالخوف. من ماذا؟ من كلّ شيء ومن لا شيء.

أضاءت نقطة صفراء في منزل العمّة باكيسيا الصغير، فأمكن رؤية المرأة العجوز وهي تدفع بالمكنسة المياهَ التي غمرت العتبة. بينما بدا الأفق خلف الحقول الصفراء أخضر هادئا، كأنّه خطّ البحر. أمّا شجرة اللّوز التي كانت تقطر ماء من كثرة البلل، فقد هيمنت على كلّ شيء، بل حتّى على الأفق. كما شوهد برونتو قرب شجرة اللوز وهو يعدو على حصانه تحت أضواء النهار الأخيرة. كان كلاهما، أي الحصان والفارس، أسودين، مدخّنين، بطيئين، كما لو أنّ الماء الذي غمرهما نفخهما وأثقلهما.

خرجت المرأتان إلى الفسحة، وهما تصرخان من شدّة الألم، من ألم كان فيه ربّما شيء من السخرية. لكن لم يبد أنّ الرجل قد اهتمّ بهما.

بل تمتم قائلاً: - يا للشيطان، يا للشيطان، يا للشيطان... ثمّ سحب قدمه من الركاب ورفعها. - يا للشيطان، يا للشيطان الذي أحرقك... ثمّ ترجّل وكلّه بلل. وقال بغضب وهو يتوجّه نحو المطبخ: – حسناً، تدبّرا أموركما الآن. كان على المرأتين تفريغ حمولة الحصان، ثمّ دخلت جوفانّا فطلب برونتوو مباشرة بعض الشراب، يتجفّف به.

فقالت له: - غيّر ملابسك.

لكنّه لم يرغب في تغيير ملابسه، كان يريد فقط شراباً ليتجفّف، كما قال وكرّر، وغضب من إصرار جوفانّا. لكنّ الأمر انتهى به لفعل كلّ ما كانت تريده، فغيّر ملابسه ولم يشرب، وبانتظار العشاء جفّف شعره بالمنشفة وبكلّ عناية ثمّ مشّطه.

كرّر: - ما هذا الماء، ما كلّ هذا الماء! بل إنّه بحر بالفعل.

آه، لقد تمكّنت هذه المرة من تطرية عُرفه. (ضحك ضحكة عابرة) كيف حالك يا جوفانّا؟ إنّك على أحسن حال، أليس كذلك؟ لك تحيّات حارّة من جاكوبّه ديغاز. إنّه يراك الآن كأنّك دخان في عينيه.

قالت العمّة مارتينا: - عليك أن تلجم لسانه، وكما أنّك تعرف كيف تأكل فعليك أن تعرف كيف تجعل هؤلاء الخدم الوسخين يحترمونك.

- أنا لن ألجم لسانه فقط! لقد أراد أن يعود إلى هنا هذا المساء. لا، ابق هناك ولينفجر قلبك. سيعود غداً في الصباح.

- آه، غداً في الصباح! ولكن ولا حتّى غداً في الصباح. آه يا بنيّ، لقد تساهلت فسرقوك ولا أحد يعاقبهم. أنت لا تصلح لشيء.

فاستأنف كلامه وهو ما زال يمشّط شعره: - على كلّ غداً هو يوم عيد ارتقاء العذراء وجاكوبّه هو قريب لنا. فلننته من هذا الأمر. حسناً، لقد أصبحتُ الآن جميلاً يا جوفانّا.

وابتسم لها مستعرضاً أسنانه. كان جميلاً في الواقع، نظيفاً، وشعره برّاق. فرقّ قلب جوفانّا، بينما أخذ هو يغنّي أغنية ساذجة يغنّيها أطفال سردينيا عندما تهطل الأمطار، ومعناها:

مطر، مطر، نضج العنب ونضج التين...

ثمّ تناولوا طعام العشاء بسعادة وسرور. لكنّ العمّة مارتينا تذرّعت بقلّة الشهيّة ولم تأكل إلّا الخبز والبصل والجبن، وهي تشتهي في كلّ الأحوال هذا النوع من الطعام، كما أنّ هذا لم يخلّ بانسجام العشاء. رغب برونتوو بالخروج مع جوفانّا للتمشّي بعد العشاء. فسارا على غير هدى ولا هدف عبر دروب البلدة المقفرة، وكانت السماء قد أصبحت صافية جدّاً، وأرسلت بعض النجوم خيوطها

الذهبيّة على الأفق البلّوريّ، بينما كان يتماوج في الهواء عطر الأعشاب الجافّة والأحجار المبلّلة. كانت الطرقات مليئة بالرمال والوحل، لكنّ جوفانّا كانت ترتدي تنّورة قصيرة جدّاً، وتنتعل حذاء ضخماً كان يحدث رنيناً معدنيّاً فوق حجارة الطريق. أخذها برونتوو تحت ذراعه وبدأ يقصّ عليها أكاذيبه، كما اعتاد أن يفعل في كثير من الأحيان ليسلّيها.

- لقد وجد تزانكيني (وهو واحد من الفلّاحين الذين يخدمونه)، هل تعرفين ماذا وجد؟ وجد طفلاً.

- متى؟

- اليوم، على ما أعتقد. كان تزانكيني يقلع شجرة عندما سمع صوتاً ناعماً. نظر حوله. فوجد طفلاً بعمر أيّام. وهذا ليس شيء، لأنّ القادم أعظم. فقد جاءت غيمة صغيرة وتقدّمت في السماء ثمّ تضخّمت وهبطت فوق تزانكيني وخطفت الطفل منه. كانت عبارة عن نسر... أجل، لا بدّ أنّ هذا النسر قد خطف الطفل لمكان ما، وخبّأه بين الشجيرات، وكان قد هبط عندما رأى أنّ تزانكيني قد لمس الطفل، و...

قالت جوفانّا: - على رسلك! إنّي لن أصدّقك بعد الآن.

- عسى أن تريني غنيّاً إذا لم أكن أقول الحقيقة...

- هيّا بنا! هيّا! هيّا! كرّرت بغضب. ورأى برونتوو أنّ مزاجها قد تعكّر بدلاً من أن تتسلّى، فسألها إن كانت قد رأت أحلاماً مزعجة. تذكّرت الحلم الذي رأته، ولم تجب. هذا بينما وصلا إلى الطرف الآخر من البلدة، أي قرب بيت إيزيدورو بانه الصغير. كان هناك منظر من حلاوة لا توصف تغطّي الأرض، وكان القمر يطلّ كأنّه وجه كبير من ذهب في الشرق الأزرق الملوّن بالفضّيّ. بينما كانت الأرض

السوداء، والأشجار المبلّلة، والبيوت المبنيّة بالصخور المتحوّلة، والشجيرات والسهل البرّيّ، كانت كلّها تبرق كما لو أنّها تتحرّك بفعل ابتسامة مليئة بالدموع.

اقترب الشابّان من بيت الصيّاد الصغير وسمعا صوت إيزيدورو وهو يغنّي.

وعندما توقّف برونتوو، سحبته جوفانّا من ذراعه وهي تقول له: - هيّا بنا.

- انتظري! لا بل إنّي أريد أن أطرق على ذلك الباب الذي أحسب أنّه باب بيته.

فقالت له وهي ترتجف: - فلنذهب، فلنذهب. فلنذهب وإلّا تركتك وحدك...

- آه، صحيح، لقد تشاجرت معه. لكن أنا لا. أنا سأطرق بابه.

- وأنا سأذهب.

فقال لها برونتوو وهو يلحق بها: - إنّه يتلو الأناشيد التي أعطاها له القدّيس قسطنطين على ضفّة النهر... آه، آه، إيه. لا بدّ أنّه مجنون ذلك العجوز.

كانت هي تعرف من ألّف تلك الأناشيد، فشعرت بالحزن والغضب. أخذها برونتوو تحت ذراعه وعاد ليقصّ عليها أكاذيبه وليمزح، كان حسن المزاج، لكن كان عليه أن يلهو وحده، لأنّ جوفانّا التزمت صمتاً مطبقاً.

فكّر بعض الأشخاص ممّن شاهدوهما يسيران وسمعا نكات برونتوو وضحكاته، أنّ جوفانّا امرأة محظوظة بالفعل. لكنّها هي كانت تفكّر بكوستانتينو.

الهيئة العامة السورية للكتاب

- XII -

بدأت الشعائر الدينيّة في الكنيسة في قرابة العاشرة من اليوم التالي. بدأت متأخّرة لأنّه كان من الضروريّ انتظار وصول خوريّ شابّ من نوّرو، صديق للخوريّ إلياس، جاء لينشد المدائح بالمجّان أمام شعب أورلي. كانت هذه المدائح تشكّل حدثاً مهمّاً، لذلك فقد ازدحمت الكنيسة بحلول العاشرة بجمهور من مختلف الألوان. وكانت الكنيسة تزهو أساساً بألوانها البرّاقة: فكانت هناك شرائط بلون أزرق فاقع تشقّ الجدران الورديّة، وكان المنبر مصنوعاً من خشب، بينما كان القدّيسون يلمعون في كوّاتهم الورديّة، شقراً وحمراً مثل القدّيسين الألمان. أمّا القدّيس قسطنطين شفيع البلدة، فقد برز في زيّ فرسان الحرب، بوجهه الأسمر الصلف. وكانت تدور في البلدة أسطورة تقول إنّ من نحت هذا التمثال القديم، الذي تُنسب إليه المعجزات، إنّما كان القدّيس نيقوديمو بالذات.

تسرّب عبر الباب المفتوح، وعلى خلفيّة زرقاء باهرة، سيل من ضوء عنيف مرّ فوق الحشد، وغمر الناس بغبار مضيء. في صدر الكنيسة بقي المذبح في ما يشبه الظلام، على الرغم من ما يلقيه لهب الشموع من ضياء، وقد بدا سنا لهبها كأنّه سهام ذهبيّة تنطلق من أعواد خشب أبيض. أقام الخوريّ إلياس القدّاس، بينما كان صديقه الشابّ ينشد ملء حنجرته، وهو في ثوب الدانتيل وبوجهه الأسمر الشبيه بوجه طفل ماكر. اندهش الناس حين رأوا أنّ الخوريّ الصغير ينشد، بينما ظنّوا أنّه هو الذي سيقدّم العظة، التي جاء كثير منهم لسماعها. والحقيقة أنّهم كانوا لا يستمعون إلى القدّاس بكثير من الخشوع، بل كانوا يثرثرون وينظرون بعضهم إلى بعض بفضول. لكنّه يجب أن يقال إنّ حرارة شديدة وعدداً

لا يحصى من حشرات غير مرئية كانت تضايقهم. فجأة، بعد أن رتّل الخوريّ إلياس الإنجيل، التفت بوجهه الباهت والهادئ نحو الناس، وتحرّكت شفتاه.

في تلك اللحظة بالذات ظهر أمام زرقة الباب المشتعلة شخص جاكوبّه ديغاز. وكنت تعلو وجهه الساخر زهوة النصر.

عندما رأى الخادم أنّ الخوريّ يتكلّم، وقف على عتبة الباب، وهو يحمل بين يديه طاقيّته السوداء الطويلة، لكنّه لم يسمع شيئاً، لذلك فقد تقدّم وسأل بصوت منخفض رجلاً عجوزاً بلحية رماديّة:

- ماذا قال؟

فأجاب العجوز بغضب: - لم أسمع شيئاً، إنّهم يثيرون الضجيج كأنّهم في ساحة الطريق.

لكنّ شاباً أحمر وذا شعر أسود منتصب وأنف يونانيّ، ابتسم بخبث بعدما نظر إلى جاكوبّه، ورأى أنّه يرتدي ملابس جديدة ونظيفة، وتعلو وجهه زهوة النصر.

وقال: - حسناً، أظنّ أنّ الخوريّ إلياس قال إنّ الخوريّ الثاني سينشد الآن المديح.

فسأل العجوز بغضب: - هل سمعت أنت ذلك.

- أنا لم أسمع شيئاً.

مضى جاكوبّه وشقّ طريقه بين الرجال الذين التفتوا لينظروا إليه. وفجأة ساد صمت شديد وسط الحشد: فقد تراجع الرجال نحو الجدران. وجلست النساء على الأرض. بينما ظهر في وسط الكنيسة، وعلى ضوء نهر نور من لؤلؤ كان يعبرها، ظهر نوع من السرير الخشبيّ الأزرق، يحرسه أربعة ملائكة بلون ورديّ وأجنحة خضراء، كأنّهم أربع فراشات. كان هناك داخل هذا السرير، وعلى

وسائد الديباج، تمثال عذراء صغير ممدّدة بعينين مغمضتين. وكانت تتألّق على فستان الساتان الأبيض الذي ترتديه، خواتم وأقراط وعقود من الذهب. كانت تلك هي العذراء المجتباة.

كما ظهر على المنبر وجه ذلك الخوريّ الصغير الأسمر. نظر إليه جاكوبّه ديغاز نظرة ثابتة، ثمّ التفت إلى جنبه وهو يحيط يده بأذنه اليمنى ليسمع بشكل أفضل.

قال صوت طفوليّ حازم: - يا أهل أورلي، يا إخوتي وأخواتي، لقد طلبوا منّي أن أتوجّه إليكم بحديث قصير في هذا اليوم المجيد، أنا...

أعجب جاكوبّه بهذه المقدّمة، لكن بما أنّ الصوت كان مسموعاً حتّى بدون وضع يده على أذنه، فإنّه عاد ليتلفّت وأخذ بتفحّص الناس والتكلّم مع نفسه، رغم أنّه لم يفهم كلمة واحدة من كلمات العظة.

- ذاك هو إيزيدورو بانه، فليقطع الله أذنيه، بملابس جديدة هو أيضاً. فهل يفكّر هو أيضاً بالزواج؟ إيه، أوه! لقد سخر منّي ذلك الشابّ في الصدر، بعدما رآني مسروراً وبملابس جديدة، لأنّه يقال إنّي أريد أن أتزوّج. حسناً، وما الأمر إذا كنت أريد ذلك؟ أصبح لي بيت الآن، وعندي قطيع[1]، أنت أيضاً تملك القطيع، لكنّ هذا ليس إلّا في مخيّلتك. إيه، إيه! ستموت أختي بدون وريث، باركها الله، ها هي ذي، صغيرة ومتورّدة وبرّاقة مثل الدمى. من يمكن له أن يقول إنّها أكبر منّي سنّاً. حسناً، سأتزوّج، لكن بمن؟ فأنا صعب المزاج ولا أرضى بالقليل، ثمّ الخوف. إنّي خائف، خائف، وهذا القانون الجديد، لعنة الله عليكم يا أهل القضاء، كيف يمكن لأحد أن يثق بهذه الدنيا بعد الآن؟ ها هو ذا

(١) يمتلك كثير من الخدم في سردينيا قطيعاً خاصّاً بهم، يخلطونه مع قطيع أسيادهم، وبهذا يصبحون شركاء لهم، ويمكن لهم أن يعهدوا به إلى راع آخر يقتسمون معه الأرباح. (الكاتبة في الأصل الإيطالي)

سيّدي الشابّ، بوجهه الذي يفضح خطيئته المميتة. ماذا أتى ليفعل هنا؟ لماذا لا يبرحونه ضرباً؟ لماذا لا يطردونه مثل الكلاب؟ ثمّ تلك الطيرة الكاسرة، أمّه، الفرس العجوز، هنا وهناك! لماذا لا يطردونها؟

ثمّ فكّر: - آه، حسناً، إذا طردوا كلّ أصحاب الخطايا، فإنّ الكنيسة ستصبح فارغة. لكن ماذا عن أولئك! إنّي أبغضهم، بل أوّد أن أبرحهم ضرباً حتّى ينزفوا دماً. مع أنّي لست شرّيراً، لقد عدت اليوم متأخّراً لأنّي قمت بتصليح أضرار عواصف مساء البارحة التي آذت الحظيرة. وعندما عدت وجدت جوفانّا وهي تحضّر الغداء، كانت متّسخة، متألّمة، حزينة. ليس هناك عيد بالنسبة إليها. لقد خرجت الأمّ وابنها، أمّا هي، الخادمة، فقد بقيت لتعمل في البيت. حسناً، فهذا يليق بك، أيّتها المرأة الضائعة! ومع ذلك فإنّي أشفق على تلك المرأة، ساعدني الله، كم أشفق عليها. لقد توجّهت إليها بكلام سيّئ، ومع ذلك فهي لم تجبني، على كلّ فهي السيّدة وأنا خادم. فما ذنبي أنا يا عصفور الربيع إذا شتمتك؟ إنّي لا أستطيع أن أراك، لكنّي أشفق عليك، هذا كلّ ما في الأمر. أوه، دعنا نسمع ما يعظ به هذا الخوريّ الذي يشبه العصفور. أجل، إنّه عصفور يغرّد في عشّه، ها هو ذا.

- أيّها الإخوة، أيّتها الأخوات العزيزات، - بهذه اللهجة اللوغودوريّة[1] الناعمة التي تشبه الإسبانيّة، قال الخوريّ الشابّ، وهو يلوّح بيديه الصغيرتين الشاحبتين – إنّ الإيمان بسيّدتنا هو أسمى إيمان. إنّها أطهر امرأة، وهي ابنة وزوجة وأمّ ربّنا، ارتقت إلى السماء، متألّقة وعطرة مثل سحابة من ورد، وتجلس مجيدة بين الملائكة وكبار الملائكة...

فكّر جاكوبّه وهو يلتفت نحو المذبح بعينين مائلتين ظهرتا كأنّهما من بلّور تحت أنوار الكنيسة: - ها هو ذا الخوري إلياس بيديه المضمومتين، ذاك هو خوريّ من لبن

---

(١) اللوغورديّة Logudorese واحدة من اللهجتين المكتوبتين في منطقة سردينيا (م) عن ويكيبيديا.

رائب. إنّه لا يعرف سوى أن يعظ بالحسنى، مع أنّ عنده كتباً مقدّسة وقادر على أن يصعق الناس. آه، لو أنّه هدّد جوفانّا إيرا! لكن يبدو أنّه يحلم، الآن...

وتابع الواعظ الصغير وهو منتصب على المنبر الأصفر: - لم يسبق لأحد أن قال إنّه لم يحصل على نعمة طلبها بقلب صادق من سيّدتنا المقدّسة، إنّها زنبقة الوادي، وردة أريحا الناسكة...

لكنّ الناس بدؤوا يضجرون، فكانت النساء المتجمّعات على الأرض مثل حشائش زاحفة وشقائق نعمان متناثرة فوق التراب، يتململن ويتلفّتن ولا يلقين بالاً لأحد. فهم الخوريّ الشابّ الأمر فأنهى عظته بمباركة جمهرة الفلّاحين الذين كانوا يسمعون كلام الله وهم يفكّرون بأشغالهم وأشغال غيرهم.

عندها استيقظ الخوري إلياس من أحلامه واستأنف شعائر القدّاس. ربّما كان هو وإيزيدورو بانه فقط هما اللذان استمعا بالفعل إلى الخطبة. في نهاية القدّاس بدأ الصيّاد ينشد المدائح بصوته الرنّان، الذي بدا كأنّه سيل من ماء صاف يتدفق بين منحدرات منعزلة، ورديّة تحت أزهار الطحالب.

أخذ الواعظ الشابّ يستمع بنشوة إلى ذلك الصوت الرقيق المتناغم، كما تذكّر بعض شخصيّات الحجّاج التي رآها في روما وهو ينظر إلى إيزيدورو، ذلك الرجل العجوز ذو اللحية الطويلة والعيون الحلوة، والمسبحة المصنوعة من العظم متشابكة بين أصابعه ذات العقد.

أراد أن يتعرّف إليه، فأوقف الخوريّ إلياس الصيّاد وهو يخرج من الكنيسة. كان جاكوبّه يراقبه وعندما رأى أنّ صديقه واقف مع الكاهنين، شعر بغيرة لا مثيل لها. فانتظره وسط الساحة وقال له:

- فلتخترق رصاصة قدميك، ماذا قال لك ذان؟

قال إيزيدورو بلهجة لا تخلو من بعض الغرور: - أرادا أن أتناول طعام الغداء معهما.

- آه، أرادا أن تتناول طعام الغداء معهما؟ يبدو أنّك أصبحت شخصيّة مهمّة يا طائر الربيع الصغير! لكن تعال معي...

فقال إيزيدورو برعب: - وهل إلى آل ديغاز؟ مستحيل!

- لا، لن أتناول اليوم البطاطا عند جلود إبليس أولئك. لا، سآكل اليوم في منزلي! تعال.

أخذه إلى بيت أخته. كان النهار قد انتصف وبدأت الشمس تحرق الطرقات التي جفّت الوحول فيها. وكانت الأشجار تنفث بخارها في زرقة السماء المحترقة وفي الخلفيّات البرّيّة. كان الناس يعودون إلى بيوتهم، بينما تتردّد أصداء خطا الرعاة الثقيلة فوق الحصى، وكان الأطفال ينظرون وهم بملابس العيد من فوق الجدران المنخفضة. ويمكن أن ترى من خلال الأبواب الواسعة المفتوحة المطابخ وداخلها المظلم، حيث تتألّق بعض الأوعية النحاسيّة كأنّها ميداليات ضخمة. وكان هناك نفثات دخان أصفر تتناثر في الهواء المؤكسد. بينما كان يصدر صوت أكورديون أليم من فناء بيت، غير مأهول في العادة، فيبدو كأنّه يتدفّق من باطن الأرض، عن آلة موسيقيّة تعزفها جنّيّة عجوز حزينة.

كانت البلدة كلّها ترفل بحلّة العيد، ومع ذلك فإنّ جوّ العيد، وتلك الأبواب الصغيرة المشرّعة، ونفثات الدخان تلك، وأولئك الأطفال المقيّدون بملابسهم الجديدة، وعزف ذلك الأكورديون، وتلك البيوت التي لا ظلّ لها تحت ذلك الضوء الحارق، كان في ذلك كلّه شيء من حزين عميق عميق.

أخذ جاكوبّه الصيّاد إلى بيت أخته، وتناولا طعام الغداء سويّة. وكانت المرأة، وهي أرملة بلا أولاد، تعبد أخاها، بل بقيت تناديه «أخي الصغير». من

ناحية أخرى كانت هي تحبّ جميع الآخرين، وكانت عيناها، وهما مائلتان تقريباً، وبلون غير واضح، ومائعتان وتظهران صافيتين مثل بحيرتين صغيرتين جدّاً تحت ضوء القمر، بل كانتا تبدوان كأنّهما عينا طفل رضيع. لم تكن تجهل ما هو الشرّ، لكنّها كانت تخاف من مجرّد التفكير بأنّ البشر قادرون على فعله. وكان أكثر ما أحزنها طلاق جوفانّا وزواجها الجديد، فهي كانت ابنتها بالرضاعة، ومع ذلك فقد أقرضتها مالاً لتشتري جهازها. لذلك كان أخوها يسخر منها على الدوام.

قال لها: - ها هو صديقنا إيزيدورو الذي يريد أن يتزوّج، جاء ليستشيرك.

- بوركت يا إيزيدورو بانه، هل صحيح أنّك تريد أن تتزوّج؟

فأجاب الصيّاد بلطف: - هيّا بنا! دعك عن هذا!

فصرخ جاكوبّه وهو يمزّق بأسنانه التي ما زالت قويّة قطعة شواء كان يمسك بها بكلتا يديه: - آه، إنّك لا تريد أن تتزوّج، أيّها الحيوان القذر. هو ذا يا حبيبتي جرمانا، إنّ عنده خليلات.

- لا أصدّق هذا.

- فلتريني في السماء إذا كنت أكذب. بلى، عنده خليلات يمصصن دمه...

ضحكت المرأة وإيزيدورو، ضحكة مخلوقات بريئة، لأنّهما فهما أنّ جاكوبّه يشير إلى صيد العلق.

بدأ الخادم في تمزيق اللحم بسكّينه الحادّة، ممسكاً بالقطعة بين أسنانه ويده اليسرى، ثمّ قال إنّها تبدو وكأنّها أذن الشيطان من شدّة قسوتها. وهكذا فقد بدأا في الضحك على أتفه الأمور. ومع ذلك، فإنّ جاكوبّه لم يكن يضحك: ولم يكن يعرف سبب هذا، كما أنّ مزاجه الطيّب الذي ساد قبل ساعتين ولّى الآن وانقضى.

- سآخذكما بعد ذلك لرؤية قصري، سينتهي بعد أيّام وإذا أردت تأجيره فلديّ الآن مستأجرون، لكن لا، سأذهب لأسكن أنا فيه.

- ستترك العمل في الخدمة إذاً؟

- أجل، سأترك العمل في الخدمة. بعد قليل. لقد اشتغلت بما فيه الكفاية. هل تعلمان أنّي أعمل منذ أربعين سنة؟ أجل، أربعين سنة. فلا يقولّن أحد إنّي سرقت المال الذي سأعيش به في شيخوختي.

- وهل ستتزوّج؟

- بوه، من يقبل بي؟ سأبصق بنفسي على الصبيّة التي ستقبل بي. كما أنّي لا أريد العجائز. اشرب يا إيزيدورو بانه.

- هل تريد أن تسكرني؟ حسناً، أجل، إنّه عيد. في صحّة العروسين.

- أيّ عروسين؟

فقال الصيّاد وقد أصبح جزلاً من ثمالة: - جاكوبّه ديغاز وباكيسيا إيرا!

قام جاكوبّه بحركة كأنّه يريد أن يهجم عليه. وصرخ فيه وقد اخضرّت عيناه من الغضب: - أريد أن أقتلك!

- آه! آه! آه! يا مجرم!

فقالت العمّة آنّا - روزا: - صه... صمتاً... لا يمكن التفوّه بهذا.

شرب جاكوبّه كأسي نبيذ وبدأ يضحك بالغضب نوعاً ما، وهو ينظر إلى أخته وإلى الصيّاد.

- حسناً، تزوّجا أنتما الاثنين! إن أختي غنيّة يا إيزيدورو بانه، ثمّ ألا ترى كم هي نضرة؟ يبدو أنّها باقة من ورود برّيّة. قالوا إنّها وجدت عشبة رائعة صنعت منها مسحوقاً لنضارة البشرة.

فقالت المرأة: فليباركك الله، كم أنت غريب!

- أجل، تزوّجا. أنا أريد ذلك. أختي غنيّة. وما هو ملكي هو ملكها أيضاً، لأنّي سأموت قبلها. لا أعرف لماذا، لكنّي أظنّ أنّي سأموت قريباً، أعتقد أنّهم لا بدّ أن يقتلوني...

- هيّا بنا. إنّه النبيذ الذي بدأ يقتلك في هذا اليوم...

كما قالت أخته بنوع من الخوف: - ماذا تقول يا أخي الصغير؟ أستحلفك بالأرواح الموجودة في المطهر، ماذا تقول؟

ولاحظ الصيّاد قائلاً: - ليس لك أعداء، ولا يموت بالحديد إلّا من يجرح بالحديد.

فأجاب جاكوبّه بلهجة قاسية وهو يلتهم بفمه شريحة بطّيخ: - وأنا جرحت، كم من المخلوقات البريئة! آه، ألا تفهمون؟ نعاجاً وخرافاً! ثمّ ضحك وهو يرفع وجهه الملطّخ بلون البطّيخ الأحمر.

ذهبا بعد ذلك ليشاهدا البيت الجديد، كان طابقاً فوق الطابق الأرضيّ، فيما مجموعه أربع غرف ومطبخ وحظيرة، لكنّ هذا كان كافياً كي يسمّي جاكوبّه وكلّ أهل البلد هذا البناء قصراً.

قال جاكوبّه وهو يشير إلى كلّ ناحية وثقب، فينقلب وجهه الأملس الخالي من الحواجب وجه شباب: - ها كم هذا، ها كم ذاك.

ثمّ كرّر: - خذ أختي زوجة لك، وهذا البيت سيكون بيتك...

فأجاب الصيّاد: - أنت تسخر منّي، إنّك تسخر منّي لأنّي فقير.

كان يسير بخجل على الأرض الخشبيّة، بينما كان جاكوبّه يقرعها بنعله المدعّم بالحديد، مسروراً بإثارة الصدى في الغرف الفارغة الكبيرة، والتي تفوح منها روائح الكلس الجديد.

أطلّ الرجلان للحظة على النافذة، وكانت عتبتها الحجريّة حارقة تحت الشمس. وبما أنّ البيت كان مرتفعاً، فقد ظهر مشهد البلدة بنّيّا قاتماً مثل كومة فحم مطفأ تحت خمار الأشجار الأخضر. وكان السهل أصفر والجبال بلونها البنفسجيّ مثل هياكل كبيرة مشرّعة نحو السماء الحارقة. كان ناقوس الكنيسة يقرع، ويرنّ، فيسمع صوته، عبر هدوء الظهيرة وزرقتها الحارقة كاللهب، وكأنّه يتواثب بين صوت أحجار ومعادن، كأنّه آت من بعيد وبعيد، من قلب تلك الهياكل، حيث كانت تعمل كسّارة أحجار عملاقة بسأم ناعس...

فقد إيزيدورو صبره بعد أن آلمه كلام الخادم، وقال: - أنا لا أدخّن، دعني في سلام.

فاندفع جاكوبّه وقال: - أنا لا أمزح أيّها السحليّة العجوز. لكنّك بائس لدرجة أنّك لا تستطيع حتّى التفكير في أنّني لا أمزح.

قال إيزيدورو: - اسمع، لقد قدّمت لي اليوم طعامي، وتريد مقابل هذا القليل أن تلهو على حسابي. حسناً، إذا شئت أن أبقى ممتنّاً لك، فدعني في سلام.

نظر إليه جاكوبّه بثبات، وأخذ يضحك ثانية ثمّ قال له: -

- فلنذهب الآن لنشرب.

خرجا وتوجّه جاكوبّه إلى الحانة، لكنّ إيزيدورو لم يشأ أن يتبعه، قائلاً إنّ عليه أن يذهب إلى الكنيسة.

ذهب الخادم إلى الحانة، فوجد فيها برونتوو وآخرين يلعبون لعبة المورّا وأعصاب أذرعهم متوتّرة، وكانوا يصرخون بالأعداد بكلّ ما في حناجرهم من نفس.

أصبحوا جميعهم سكارى قبل الساعة الخامسة، أي قبل الساعة التي يجب أن ينطلق فيها الموكب. وكان جاكوبّه سكران أكثر من الجميع، رغم ما ادّعاه من حقّه في سند سيّده بذراعه، كيلا يهوي برونتوو ويسقط بين دقيقة وأخرى. ثمّ إنّه دعا كلّ الحضور في الحانة للذهاب إلى قصره من أجل مشاهدة الموكب.

بعد قليل من الوقت كانت الغرف الكبيرة الفارغة ترنّ بأصوات جُشّ، وبضحكات غبيّة وبخطا غير ثابتة. وعندما شرّعوا النوافذ أطلّوا فملؤوها بوجوه ملتحية حمراء ومتوحّشة.

أطلّ أيضاً جاكوبّه وبرونتوو على النافذة التي كان الصيّاد قد استند إليها، كانت الشمس قد هبطت لكنّ العتبة بقيت حامية. وفي الأسفل وأمام مشهد البلدة والسهل والجبل، ظهر الموكب، وكانت تتخلّله ظلال تزداد استطالة. فصرخ برونتوو وهو يدوّر فمه ويبرز عينيه: - كوكـــــو.

قلّده الجميع، وهم يتسابقون في رفع أصواتهم. فردّدت الغرف الصدى، واحتشدت الطريق بالفضوليّين، وسرعان ما اشتعلت حرب بالحصى والبصاق والشتائم بين سكارى النوافذ وسكارى الطريق. لكنّ الصمت ساد فجأة. سمع صوت ترنيمة جدّيّة وحزينة وهو يقترب، ثمّ ظهر صفّان من الأشباح البيض في آخر الطريق، بينما برق في زرقة الهواء صليب فضّيّ.

انتظم رجال الطريق في صفّ والتصقوا بالجدار، بينما انخفضت وجوه النافذة، وخلع جميع المارّة قبّعاتهم.

طرق على باب البيت الجديد، ثمّ هرب، واحد من أولاد الموكب ممّن يرتدون ملابس بيضاء - ومعظمهم أولاد يأخذون بعد انتهاء الموكب ثلاثة دراهم وشريحة بطيخ. فقلّده الآخرون الذين كانوا وراءه.

قال جاكوبّه وهو يطلّ على النافذة: - فلتحلّ عليكم اللعنة، يا قليلي الأدب! أوَ تفعلون هذا أيضاً وأنتم في الموكب! - وأراد أن يبصق عليهم، لكنّ برونتوو قال له إنّ هذا غير لائق.

ثمّ ها كم بيرق من بروكار أخضر، عليه مئة شريط ملوّن وعصا ذهبيّة: وها هي العذراء أسّونتا (المرتقية) في سريرها المحمول، مغمضة العينين، ترتدي ثوباً مغطّى بقلائد وخواتم تشبه عقود وخواتم العصر البرونزيّ، يحرسها ملائكة خضر صغار.

سار على الجوانب الأربعة، فضلاً عن الحملة، وهم أربعة رجال برداء أبيض، أربعة أطفال يرتدون زيّ الملائكة، أربعة صبية لطيفين، اثنان أشقران واثنان أسمران، وكانوا يتجاذبون أطراف الحديث فيما بينهم بصوت مرتفع كي يسمع بعضهم بعضاً. دغدغ رجلُ الصبيّ الذي كان يحمله في أسفل ركبته، فبدأ الصبيّ يتلوّى من الضحك، وتدلّى جناحه.

ركع جاكوبّه وبرونتوو ورفاقهم على ركبهم ورسموا إشارة الصليب، وهم ينظرون برقّة وحنان إلى الصبية الأربعة.

نظر هؤلاء أيضاً إلى فوق، فتعرّف أحدهم إلى عمّه على النافذة فرمى له قطعة حلوى حمراء ما لبثت أن سقطت في الطريق.

كان الخوريّ إلياس والكاهن الصغير القادم من نوّرو، ينشدان باللاتينيّة، وهما يرتديان ملابس بروكار ودانتيل، وكانا شاحبي الوجهين لكنّهما جميلان على انعكاسات القماش الثمين الذي يرتديانه.

قال جاكوبّه منفعلاً: - فليثقب الشيطان جيبك، ها كم ذلك القذر إيزيدورو بانه، يبدو وكأنّه سيّد الموكب! إنّي سأبصق عليه.

فأمره برونتوو: - توقّف!

نحنح جاكوبّه صوته ليلفت انتباه الصيّاد، لكنّ هذا لم يرفع حتّى عينيه. كان ينشد الصلوات فيجيب الناس بصوت واحد.

بينما كان الصليب الفضّيّ يختفي في آخر الطريق، امتلأت الطريق بأناس من مختلف الألوان. فظهرت ألوان من رجال برؤوس مكشوفة، صلعاء تتلألأ بالعرق، وبشعر أسود مدهون، وأجعد وصوفيّ المظهر، ومن نساء برؤوس مغطّاة بمناديل صوفيّة مزهّرة كبيرة، وخلفيّة سوداء مرسومة وراء شجيرات صفراء وخطوط حمراء وبقع خضراء، وكان هناك بياض القمصان على صدور النساء، ووجوه ورديّة، وأيد ورديّة، وعيون برّاقة، وشفاه متحرّكة، ثمّ رجل عجوز أعرج، وامرأة مع فتاتين صغيرتين، وثلاث نساء عجائز، وولد يضع وردة صفراء في فمه، ملأ جميعهم الطريق، ثمّ ابتعدوا واختفوا على وقع تراتيل الموكب الثقيلة والحزينة. أبرزت قطّة مخالبها، ثمّ وجهها الأبيض الكبير بعينيه الزرقاوين، ثمّ قفزت ونظرت إلى الحائط المواجه لمنزل جاكوبّه.

- لقد تأخر الوقت! قال له برونتوو وهو يحيّيه بيده.

أخذ الجميع يضحكون ويصرخون، فترجّاهم جاكوبّه أن ينصرفوا، وبما أنّ الأصدقاء لم يمتثلوا، فقد تصنّع أنّه يطردهم بعصا ما زالت متّسخة بالكلس. عندها أخذ أولئك الرجال، المتكبّرون الوحوش الأقوياء، يركضون عبر الغرف وبين السلالم، ويتدافعون بالأكتاف، ويتدحرجون، ويصرخون، ويحدثون ضوضاء جهنّميّة، ويضحكون مثل الأطفال. ثمّ واصلوا هذه اللعبة في الطريق أيضاً، بعد أن أغلق جاكوبّه باب قصره: ثمّ عادوا جميعهم معاً إلى الحانة.

ثمّ عاد برونتوو والخادم إلى البيت عند المغيب، وكلّ منهما يسند صاحبه.

كانت العمّة مارتينا في الرواق، ويداها في مئزرها وهي تتلو تسابيحها. لم تتحرّك عندما رأت الرجلين، بل هزّت رأسها قليلاً وزمّت شفتيها كأنّما لتقول:

- ما أروعكما، حقّاً!

فصرخ برونتوو: - أين جوفانّا؟

- عند أمّها.

- آه، هل هي عند أمّها؟ عند الساحرة العجوز؟ دائماً هناك، اللعينة!

- لا تصرخ يا بنيّ!

فصاح قائلاً: - بل سأصرخ لأنّي في بيتي! ثمّ التفت نحو الفسحة وبدأ يصرخ: - جوفانّا، جوفانّا!

ظهرت جوفانّا على باب البيت الصغير، وتوجّهت عبر الفسحة وهي خائفة، لكنّ تعابير الازدراء والقرف كانت تعلو وجهها كلّما تقدّمت.

عندما وصلت أمام الرجلين، نظرت إليهما نظرة بغضاء.

ضحك جاكوبّه في قرارة نفسه، بينما احمرّت أذنا برونتوو من شدّة الغضب.

قالت جوفانّا: - هل أصابك المغص؟

فقال جاكوبّه: - يمكن أن يعتريه بعد قليل.

حرّك برونتوو شفتيه بتشنّج، لكنّه لم يستطع قول أيّ شيء، وهكذا تلاشى غضبه كما جاء، دون سبب.

تمتم: - حسناً، كنت أريد أن تكوني قربي... لم نجتمع اليوم البتّة... ماذا كنت تفعلين عند أمّك؟ من كان هناك؟

فأجابت بشيء من المرارة المؤثّرة: - لا أحد يا روحي! من تريد أن يأتي إلينا؟

فتغنّى جاكوبّه بشفتيه المزبدتين وقال: - يمكن أن يأتي القدّيس قسطنطين ليلقّـــــن أشعـــــاااره...

- آه، أنت لم تري القدّيس قسطنطين؟ حسناً، هذا يعني أنّ إيزيدورو بانه مجنون حقّاً: وهو لا يريد تلك الأشعار، لا يريد تلك الأشعار...

قالت العمّة مارتينا: - اخرس أنت! لقد تركت الحظيرة مهجورة! أهكذا تقوم بأشغال سيّدك؟ آه، يا لهذا الجنس اللعين! لصوص! فنهض جاكوبّه ممتقع الوجه ومتصلّب الجسم، وخافت جوفانّا أن يهجم على العجوز، فحالت دونهما.

لكنّ جاكوبّه عاد وجلس من غير أن يفتح فمه، ذلك بعد أن أثار مخاوف جوفانّا التي اقتربت من حماتها لتحميها.

عندها جاء دور برونتوو ليهاجم أمّه.

قال لها: - ما هذه الطريقة؟ إنّك تعاملين الناس كأنّهم... كأنّهم... حيوانات... جميعهم. اليوم، اليوم، أجل اليوم هو عيد. وإذا أراد هذا أن يسكر؟ فماذا يهمّك من أمره؟

قال جاكوبّه: - أنا سكران بالسمّ!

فأجاب برونتوو: - أجل، بالسمّ! وأنا كذلك! لقد سئمت الآن. سئمت من الأمّهات، من الزوجات... من... كلّ شيء، هذا كلّ ما في الأمر. إنّي سأرحل من هنا. سأذهب لأعيش في قصره. فبعد كلّ شيء نحن أقرباء و... و...

فصاح جاكوبّه: - قل ذلك إذاً، اعترف! أنت تعوّل على ميراثي! آه! آه! إيه!!

وعاد ليضحك، ضحكة صارخة، إذا صحّ القول، تثير الرعب. فأخذ برونتوو يضحك أيضاً، وأراد أن يقلّد الخادم، لكنّ قهقهته بدت كأنّها صرخة وحش مبتهج في شهر أيّار.

شعرت جوفانّا بالخوف من جديد: خوف من الظلام القادم، من الوحدة التي تهيمن على المكان، من رفقة ذين الرجلين اللذين جعلتهما الخمرة شبيهين بالحيوانات، عنيفيْن حقيريْن خسيسيْن. فبدا لها أنّ عقوبة الحرمان حلّت عليهم جميعاً، على الخادم الذي يتمرّد على أسياده، وعلى الابن الذي يشتم أمّه، وعليها، هي جوفانّا، التي تكرههم جميعاً.

نهضت العمّة مارتينا ودخلت إلى المطبخ وأشعلت الضوء، فتبعتها جوفانّا لتحضير العشاء. تناولوا طعام العشاء سويّة، وجلسوا بنوع من الهدوء، بل إنّ برونتوو بدأ يقصّ كيف تمكّن من مشاهدة الموكب من نافذة قصر جاكوبّه، ممّا جعل العمّة مارتينا تبتسم ضاحكة من الحماقات التي يرويها، ثمّ أراد أن يداعب وجه زوجته.

لكنّ قلب جوفانّا كان مفعماً بالمرارة. لقد مرّ يوم العيد فكان أتعس من غيره من الأيّام، اشتغلت فيه، ولم تذهب إلى الكنيسة، ولم تغيّر حتّى ملابسها، وفي اللحظة الوحيدة التي سمحت فيها لنفسها بالذهاب إلى البيت الذي عانت فيه كثيراً، والذي سرّت فيه أيضاً كلّ السرور، نادوا عليها حينئذ صراخاً، كما ينادون على الكلب ليعود إلى قفصه.

وهكذا فقد دفعت عنها مداعبات برونتوو وقالت له إنّه سكران. فعاد جاكوبّه ليضحك، فأثارت ضحكاته اللعينة جوفانّا أكثر من ذي قبل، وأهانت برونتوو أكثر من ذي قبل، فصرخ هذا:

- لماذا تضحك أيّها الكلب الأجرب؟

- يمكن أن أجيبك بأنّ جربك أسوأ من جربي، لكن... لكن... أريد أن أقول لك إنّي أضحك... حسناً... أنا أضحك لأنّي أريد أن اضحك.

- سأضحك أنا أيضاً إذاً.

فقالت جوفانّا بازدراء: - أيّها المحرومان من نعمة الله، إنّكما تثيران قرفي.

انفجر برونتوو عندها لأنّه لم يتمكّن من الاستمرار.

سأل جوفانّا بصوت أصمّ: - ماذا حلّ بك؟ هل يمكن لي أن أعرف؟ هل تعلمين أنّك بدأت تثيرين ضجري؟ أنا أداعبك وأنت تشتمينني؟ بينما عليك أن تقبّلي الأرض التي أضع عليها قدمي! هل فهمت؟

احتقن وجه جوفانّا.

وقالت مهسهسة: - ولماذا؟ ألا يكفي أنّي أعمل خادمة هنا؟

- أجل، خادمة، ابقي خادمة إذاً. ماذا تريدين غير ذلك، أيّتها الأنثى؟

برقت عينا جاكوبّه المائلتان. نهضت جوفانّا، وانتصبت غاضبة ومأساويّة وأفرغت كلّ السمّ الذي كان يرعف في نفسها، فشتمت زوجها وحماتها، سمّتهم جلّادين، وهدّدت بالفرار وبالانتحار ولعنت الساعة التي دخلت فيها إلى ذلك البيت، ثمّ صرخت وأفشت خبر الدين إلى أخت جاكوبّه.

هنا أخذ الخادم يضحك في قرارة نفسه ويتمتم بكلمات انتهر فيها أخته بشكل مضحك، لكنّه صمت فجأة وقتم وجهه عندما رأى سواد شخص العمّة باكيسيا يظهر أمام الباب.

جاءت عندما سمعت صراخ ابنتها يعلو في سكون الليل الصافي.

قالت العمّة مارتينا بهدوء تامّ: - ها هي ابنتك، بدأت تجنّ على ما يبدو.

عاد برونتوو إلى نفسه، تنفّس الصعداء وأشار إلى حماته كي تتقدّم لتهدئة جوفانّا. فتقدّمت العمّة باكيسيا. هنا وثب جاكوبّه وانتصب بصلف على قدميه، والتوى وجهه ليصبح مثل قناع يمثّل الكراهية.

صرخ وهو يشير بسبّابته إلى الباب: - هيّا من هنا!

فسألته العمّة باكيسيا بلهجة لا تخلو من السخرية: - أو أنت السيّد هنا؟

فكرّر: - هيّا من هنا! وبما أنّ العمّة باكيسيا واصلت تقدّمها فقد هجم عليها.

فهربت. وخرج الخادم إلى الرواق وجلس. جلس وأراد أن يضحك مرّة أخرى، لكنّ الغريب أنّه بدلاً من أن يضحك أخذ يبكي متشنّجاً، دون دموع.

الهيئة العامة السورية للكتاب

- XIII -

واصل الزمان جريانه. وكانت السماء والطبيعة تتغيّران بحسب إرادة الفصول، لكنّ أهل البلدة وأشياءها لم يتغيّروا. في الشتاء، أنجبت جوفانّا طفلة مصابة بالكساح، عصبيّة، وكانت تبكي على الدوام. ثمّ جاء من نوّرو، خصّيصاً لتعميد هذه المخلوقة المسكينة، الدكتور بيديدّو، كما كانوا يصرّون على تسميته.

عندما وصل بعربته، ملفوفاً كأنه كيس متنقّل، وبوجهه الوردي المبتسم، جرى كثير من الناس لمشاهدته. وكان هو يوزّع التحيّات والابتسامات بالقدر الذي يريدونه. وكان يقول لكثير من أصدقاء برونتوو، الذين جاؤوا لمقابلته، إنّه سبق له أن رآهم في نوّرو، فكانوا يشعرون بالسعادة العارمة: لكنّ أحدهم قال إنّه لم يسبق له أن ذهب إلى هناك أبداً.

فأجاب المحامي الصغير: - الأمر نفسه، فلابدّ أن تأتي إليها أنت أيضاً، يوماً ما.

لم يكن هذا فألاً حسناً، لأنّ أكثر هؤلاء كانوا يذهبون إلى نوّرو في أمور تتعلّق بالقضاء، ومع ذلك فقد سرّ صديق برونتوو من هذا الجواب.

عندما رأت العمّة باكيسيا المحامي، عادت لأفكارها القديمة القائلة إنّه يشبه نوعاً من **السحر**. وعندما خلع الشابّ عباءته والشال والأشياء الأخرى التي كان يتغطّى بها، قالت له زبونته القديمة إنّه قد سمن جداً.

فقال لها: - لم تري شيئاً بعد! فضحك الجميع كالمجانين.

جرى التعميد بأبّهة عظيمة. ولربّما كانت هذه هي المرّة الوحيدة في حياتها التي تحلّ فيها العمّة مارتينا رباط محفظتها، فجلبت النبيذ والحلويّات الرائعة من

نوّرو. لكنّها لم تنم في تلك الليلة، كما أمضت نهارها في قلق بالغ، خشية أن يلمس أحد تلك الأشياء.

استيقظت جوفانّا في يوم التعميد وساعدت حماتها في تحضير المعكرونة للغداء التقليديّ، ثمّ عادت إلى سريرها، لكنّها جلست عليه وهي مستندة إلى الوسائد بينما وصل الغطاء إلى خصرها، ومن الخصر وما فوق ارتدت قميصاً ومشدّاً خاصّين بالعرائس. كانت تعتمر أيضاً طاقيّة من البروكار وتضع منديل العرائس. ورغم أنّها كانت منهكة فقد بقيت جميلة وعيناها أوسع من العادة.

أقاموا في الغرفة طاولة المائدة بعدما أخذت العمّة مارتينا مفارش اللّينو من صندوق الجهاز، والتي لم تشهد النور منذ شرائها.

بدأ حفل التعميد في حوالي الساعة الحادية عشرة من صباح يوم بارد جدّاً وضبابيّ. كان يهبط على البلدة من السماء خمار أبيض كثيف، وكانت الطرقات مقفرة وتنتشر فيها حفر من مناقع متجمّدة ظهرت وكأنّها حطام زجاج، كما كان يسود صمت لا يوصف في الفسحة أمام بيت آل ديغاز، لكنّ شجرة اللوز كانت ترسم بأغصانها العارية خطّاً أسود يتموّج في نصاعة الضباب البخاريّ.

دبّت الحياة فجأة في الفسحة، عندما انتشر فيها حشد من الصبية مكمورين في جلود وخِرَق ويعتمرون قبّعات لها حوافّ حمراء، وينتعلون أحذية قديمة أكبر من رؤوس أصحابها. كما ظهرت هنا وهناك مجموعات من الناس، وخاصّة من نساء يعانين البرد، فكنّ يعطسن ويسعلن بينما تفوح منهنّ روائح الدخان والهباب.

ظهر موكب التعميد.

تقدّمه طفلان يحملان بوقار كبير شمعتين كبيرتين تبرق حولها أشرطة حمراء. ثمّ جاءت امرأة تحمل بين ذراعيها الطفلة الوليدة، مغطّاة بالشالات وغطاء من

البروكار الأخضر شبيه ببيرق القدّيس قسطنطين. تبعهم العرّاب بعباءته وشاله الأبيض والأسود، وكان يبرز منه وجهه الأحمر، وعليه علائم غبطة أكيدة. ثمّ العرّابة وهي واحدة من بنات العمّة مارتينا، صبيّة طويلة جدّاً ولها وجه طويل جدّاً، كأنّه ظلّ شخص في ساعة الغروب، وكان عليها أن تنحني كي تتمكّن من التحدّث مع العرّاب. على الطرف سار برونتوو سعيداً، بلحية حليقة. تبعتهم في الخلف مجموعة من الأقارب والأصدقاء يسيرون بخطا الموكب، ويصدر عنهم صخب خبب الأحصنة، وجاءت في النهاية خادمة العرّابة، امرأة كانت تحمل صينيّة تحت ذراعها وتضع يديها بين طيّات تنّورتها لتحمي نفسها من البرد، كما كانت تمدّ بين حين وآخر لسانها لتلعق ما كان يسيل من أنفها القرمزيّ.

شكّل الصبية جناحاً حول الموكب وهم ينتظرون وينظرون بترقّب إلى العرّاب. بدأ هو ينظر إليهم أيضاً مبتسماً ويحيّيهم بطريقة مضحكة.

- هيّا هيّا، أحسنتم، ماذا تريدون يا حيوانات الشتاء؟

قال أحد الصبية: - إنّه أعرج!

- الزم الصمت، وإلّا فلن يعطيك شيئاً.

مرّ الموكب، وكانت وجوه الصبية تتطاول، انزعج بعضهم وبدا أنّ آخرين قد يبكون بين لحظة وأخرى.

بدأ أحدهم في لفظ كلمة: أعر...، لكنّه لم ينه كلامه. لأنّ العرّاب نثر في الهواء حفنة من النقود النحاسيّة. فارتمى جميع الصبية على النقود، وهم يصرخون ويتماسكون ويتلاحقون ويترافسون ويقعون على الأرض ويصطدمون بالخادمة التي بدأت تطلق الشتائم وتوزّع ركلات ولكمات أكثر من النقود. استمرّت أمطار النقود النحاسيّة وما تبعها من هجوم الصبية بأعدادهم المتزايدة، وذلك

حتّى وصول الموكب إلى الكنيسة، حيث كان الخوريّ إلياس ينتظر وهو يتبادل بضع كلمات مع خادم الكنيسة بثوبه الأحمر.

كان هذا يخشى أن يقبل الخوريّ إلياس، المعروف بتسامحه، بأن يرافق الوليدة إلى البيت. بينما تقتضي العادة في البلدة بألّا يجري هذا إلّا إذا كان والدا الطفل المعمّد مرتبطين بالميثاق الدينيّ أيضاً، لذلك فقد كان يحثّه على أن يكون قاسياً مع برونتوو ديغاز ومع العرّابين ومع الجميع.

قال له: - إنّك، غبطتك، لن ترافق بالتأكيد الطفلة إلى المنزل. لا، فهي تكاد تكون بحكم اللقيط. يجب ألّا تنال أيّ تشريف.

قال الخوريّ: - سنرى إذا كانوا سيصلون.

- لم يظهروا، لا. غبطتك لن تذهب؟

- وأنت هل ستذهب؟ سأله الخوريّ بابتسامة ناعمة.

- أمري يختلف، أنا سأذهب من أجل الحلوى، وليس لتشريف أولئك الأوباش.

بعد قليل وصل الموكب وبدأ الاحتفال. وما إن جرى تعرية رأس الطفلة الأصلع والأحمر، حتّى بدأت تبكي بمثل ثغاء نعجة أجشّ. كان العرّاب يمسك بالشمعة الحمراء ويبتسم محاولاً أن يتذكّر كما يجب كلمات الصلاة، لأنّ جوفانّا استحلفته بأن يتلوها بصدق وعناية حتّى يكون التعميد مقبولاً.

دخل جميع الصبية تقريباً إلى الكنيسة، مثيرين أصواتاً تشبه نميم الفئران وصريرها، وعندما كان الخادم يطردهم بصمت كانوا يخرجون ثمّ يدخلون. جلست الخادمة ومعها الصينيّة والمرأة التي كانت تحمل الطفلة على درج المذبح، وهما تنتظران بشوق إكراميّة العرّاب.

انتهى الحفل، أعطيت الإكراميّة، ألبسوا الطفلة ثيابها، فحلّت لحظة انتظار مضطرب بالنسبة إلى برونتوو وأصدقائه. إذ ذهب الخوريّ إلياس إلى غرفته ليخلع ملابسه، فهل تراه سيعود؟ هل سيرافق الطفلة إلى المنزل؟

لكنّه لم يعد. فانطلق الموكب بكلّ حزن، وتبعه خادم الكنيسة مزهوّاً بانتصاره، وكان برونتوو يرغب رغبة جنونيّة في أن يقدّم له جرعة كبيرة من ركلاته بدلاً من الحلوى.

كان الناس يطلّون ليروا الموكب، وكانت كثير من الوجوه، وخاصّة وجوه النساء، تبتسم بخبث لأنّهن لم يشاهدن الخوريّ. حسناً! بدا أنّه تعميد طفل لقيط.

ومع أنّ جوفانّا لم تكن تتوقّع مجيء الخوريّ، فإنّ شحوبها ازداد عندما غزا الموكب غرفتها وقبّلت الطفلة القرمزيّة، إذ تهيّأ لها أنّ نبوءات جنائزيّة تحوم حول هذه المخلوقة الصغيرة المسكينة.

قال لها العرّاب: - لقد تذكّرت كلمات الصلاة من أولّها إلى آخرها، فافرحي يا رفيقتي! ستكون طفلتك متميّزة، طويلة مثل عرّابتها ومبتهجة مثل عرّابها!

فتمتمت جوفانّا: - على أن تكون محظوظة مثل عرّابها!

فضرب المحامي الشابّ بيديه مصفّقاً: - والآن إلى المائدة! ما أجمل هذه العادة، كلمة شرف إنّها جميلة حقّاً.

صفّق العرّاب مرّة أخرى، كما يجري التصفيق للمناداة على الأطفال، فجلس الجميع مباشرة إلى المائدة، أمام المعكرونة التي تبعها طبق رائع من شواء الخنزير تفوح منه عطور الروز مارينو أو إكليل الجبل.

بعد أيّام وقعت حادثة غريبة في أورلي، مع أنّها لم تكن غير عاديّة.

كان هناك بالقرب من منزل إيزيدورو بانه كومة تراب قذرة قديمة كاد الزمان يجعلها قاسية كالحجارة تقريباً، وكان حولها أعشاب مصفرّة وحزينة غريبة الشكل، وتغطّيها سيقان حشائش خضراء ابيضّ لونها، كانت تبدو مثل مرتفع عاديّ ولم تكن تصدر عنها أيّ رائحة.

ذات مساء عند المغيب، سمع إيزيدورو بانه وهو يحضّر العشاء، ضجيجاً يصدر من جانب المرتفع –ولنسمّه بهذا الاسم– فأطلّ على الباب ليرى ما الأمر.

كان المغيب شديد البرودة، برّاقاً يميل إلى الخضرة. تقدّمت مجموعة من الناس، معظمهم من النساء، ظهرن سوداوات في ذلك الجوّ الواضح، تقدّم الجميع نحو المرتفع وهم يلعبون ويغنّون. فهم إيزيدورو فحوى الأمر، وذهب باتّجاه المجموعة. كانت النساء، نحو عشرين امرأة بين عجائز وصبايا، يغنّين أغنية حزينة غريبة، بصوت منخفض وبنبرة راقصة، كانت تلك تعويذة ضدّ لدغة الرتيلاء. وكان يرافق غناءهنّ صوت رتيب لآلة بدائية تسمّى سِيرّايا، وهي نوع من العود لكنّ صندوقه مصنوع من مثانة خنزير جافّة.

كان يعزف على تلك الآلة الغريبة شابّ متسوّل، أعمى شاحب الوجه، يرتدي، ويا للغرابة، ثوبَ امرأة ممزّقاً وقذراً.

تميّز ثلاثة رجال في تلك المجموعة، وقد عرف إيزيدورو بانه واحداً منهم ذا وجه مشتعل محموم، ويد مضمّدة، كان ذلك هو جاكوبّه ديغاز.

تقدّم الصيّاد واختلط بالمجموعة، ولمس بإصبعه يد الخادم المضمّدة، بينما كان جاكوبّه يحدّق به بعينين مليئتين برعب عميق.

قال العمّ إيزيدورو وهو يبتسم: - هل أنت خائف؟ أوَ من لدغة رتيلاء؟ ما هذا، ما هذا!

واصلت النساء الغناء، كنّ سبع أرامل وسبع متزوّجات وسبع صبايا. كان هناك بين الأرامل أخت جاكوبّه، وكانت تسير قربه، ورديّة اللّون ونضرة رغم الألم الثقيل الذي كان يثقل كاهلها، وكان صوتها الناعم والصارخ مثل غناء الصراصير، يبرز متراقصاً ومرتجفاً ويعلو على أصوات الجميع.

قال لإيزيدورو بصوت منخفض أحد الأصدقاء الذين كانوا يرافقون جاكوبّه: - إنّه مريض.

فصاح الصيّاد وانقلب جادّاً: - آه!

واصلت النساء غناء هذه التعويذة الغريبة:

ذهب سان بيترو إلى البحر، فوقعت مفاتحه فيه، فسأله الله:

- ما خطبك يا بيترو؟ - عضّتني في قدمي، في قلبي، ومن خلفي.

- خذ الشوكة الحزينة (شوكة حزينة مقدّسة من التي حيك بها تاج سيّدنا، ويستخدم الناس في سردينيا هذا النبات كدواء).

فاطحنها واستعملها،

استعملها لثلاثة أيّام،

لذلك فقد شفي بيترو. – يا رتيلاء ذات بطن مرسوم،

لقد أنجبت ابنة قريبة،

أنجبت ابنة قريبة،

ووضعت واحدة على كلّ جبل،

واحدة على كلّ جبل، واحدة في كلّ واد، لقد قتلتني ولقد قتلتك[1].

اقتربت المجموعة في هذه الأثناء من المرتفع، فبدأ الرجلان المسلّحان يحفران بالمعاول حفرة، بينما بقي إيزيدورو قرب جاكوبّه، بين النسوة اللائي كنّ يغنّين وبين الأعمى الذي كان يعزف.

بقي جاكوبّه صامتاً وهو يراقب عمل صديقيه، وكان قد تغيّر جدّاً فوجهه أحمر ملتهب، تتخلّله أخاديد تفضح معاناة أعصابه، وعيناه الصغيرتان اللتان كانتا تنمّان عن الذكاء تحت حاجبيه العاريين، تغشّيتا الآن بظلال خوف طفوليّ من الموت. بعد أن انتهين من إنشاد البيت الأخير، عادت النسوة مرّة أخرى إلى البداية، كما استأنفت القيثارة لحنها الغريب الصارخ والرتيب، الشبيه بأزيز سرب كبير من النحل خلال الطيران.

جاءت من الغرب المضيء نسمات من ريح جليديّة، ومرّت كأنّها شفرات قاطعة على وجوه الأشخاص المجتمعين حول المرتفع. وكانت السماء ذا لون أزرق بنفسجيّ، لكنّها كانت تهبط وتنتشر خضراء اللون مثل بحيرة غابت عنها

---

(١) ترجمت الكاتبة هذا المقطع في حاشية الكتاب بينما وضعت الأصل بلهجة سردينيا في متن النص، وهذا هو الأصل بالسردينيّة:

Santu Pretu a mare
andei, Ses jaes nde li rughei; E li rispondent Deu:
It' às, Pretu meu?
- A ssu pè m'at datu mossu, A ssu coro, a ssu dossu.
- Lea s'ispina trista,
E ponebila pista, E ponebila tres dies Chi Petru sano sies.
Tarantula 'e panza pinta,
Chi fattesit fiza istrinta,
Fiza istrinta fattesit,
Una pro monte nde lassesit;
Una pro monte, una pro bbacu, M lthu m'àsa e m lthu t'àpo.

الشمس. كان هناك حزن عميق يبرق وسط برودة المغيب وينتشر على التلّة السوداء في الأساس، وعلى البلدة السوداء، وعلى مجموعة الأشخاص السود الذين كانوا يؤدّون طقوس التعوّذ بإيمان وثنيّ متوحّش[1].

حفر الرجلان خندقاً بحماسة وسرعة. فكان التراب يظهر أسود ومختلطاً بقمامة فاسدة، وقطع فخّار وخرق: رمى الحفّاران هذا فوق أرجلهم وسيقانهم وصعدا فوق الكوم، وكانوا ينحنون أكثر فأكثر، ويلهثون، ويتعرّقون، بينما كانت النساء يغنّين والرجل الأعمى يعزف.

بعد أن انتهى الحفر، وبينما كان فم العمّة آنّا - روزا ينفتح باستمرار ويستدير كي يصدر ذلك الغناء الناعم الحزين الشبيه بغناء صراصير الليل، ساعدت هي وإيزيدورو المريض على خلع معطفه، ثمّ أخذاه من يده وقاداه نحو الحفرة. قفز عندها في الحفرة بسرعة، وعمل الحفّاران بعد ذلك على دفع التراب بأيديهما لردم الحفرة، فاندفن جاكوبّه فيها لا يظهر منها إلّا رأسه.

حدث بعد ذلك مشهد لا يوصف. تحت تلك السماء الحزينة جدّاً، كانت الأعشاب ترتجف في الريح كما لو من رعشة ألم، وبدا الرأس الذي برز من الأرض كأنّه قطع عن جسده ووضع على ذلك المرتفع من القمامة. ثمّ، وفي لحظة واحدة، وبينما كان أحد الحفّارين يمرّر ذراعه على جبينه ليمسح عنها العرق، وكان الثاني

---

(١) هناك مبدأ علمي في هذه العادة الغريبة الكامنة في دفن مكان لدغة الرتيلاء في حجر أو إدخالها إلى فرن دافئ، ذلك أنّ سمّها يؤدّي إلى تسمّم يمكن التخلّص منه بجعل المريض يتعرّق بغزارة. لا شكّ أنّ الدفن، والروائح الكريهة التي تثير الغثيان، تبعث حرارة تجعل المريض يتصبّب عرقاً، لكنّ الناس حوّلوا المبدأ العلمي الذي تقوم عليه الخرافات، فأصبح شراً ما كان ربّما خيراً في يوم من الأيام. وقد أخبروني بهذه الحال التي أوردتها هنا كما حدثت بالفعل، وهي لسوء الحظ ليست فريدة من نوعها.

(غراتسيا ديليدا)

يضرب يديه بعضهما ببعض لإزالة الأوساخ التي كانت عالقة بهما، اصطفّت النساء في دائرة وأخذن يدرن حول رأس جاكوبّه. وهنّ يواصلن إنشاد التعويذة. وكان الأعمى يعزف، شاحب الوجه، غير مبال، بعينيه البيضاوين المتّجهتين نحو فراغ الأفق. استمرّ هذا المشهد لخمس دقائق، بعد ذلك توقّفت النساء عن الرقص، وكسرن الدائرة، لكنّهن واصلن الغناء. عندها ألقى الرجلان وإيزيدورو أنفسهم على الأرض، وأخذوا يحفرون بأيديهم ومعاولهم فتمكّنوا في وقت قصير جدّاً من إخراج جاكوبّه. فقام هذا وثيابه مليئة بالتراب وانصبغ عنقه ووجهه بلون أرجوانيّ داكن. كان يتصبّب عرقاً وقال إنّه ظنّ أنّه كان سيختنق. ثمّ هزّ كلّ ما عليه قبل أن يضع ذراعيه الواحدة بعد الأخرى في كمّي معطفه الذي جاءته به أخته.

قال له إيزيدورو مازحاً: - حسناً، إنّك لن تموت يا عصفور الربيع الصغير! لكنّ وجه الآخر بقي قاتماً: فقد جمّدت الرياح الباردة عرقه، وأصبح وجهه شاحباً وبدأت أسنانه تصطكّ بشدّة. ذهبوا جميعاً إلى بيت العمّة آنّا - روزا، فتبع إيزيدورو هذه المجموعة الغريبة، بعد أن نسي عشاءه تماماً.

- وهل قتلتها؟ سأل المريض وقد تذكّر أنّ من يقتل الرتيلاء بسبّابته يتمكّن من شفاء اللدغة بلمسة واحدة من الإصبع نفسه.

- لا، قال جاكوبّه. ثمّ بدأ يحكي قصّة مصيبته بكلمات قليلة حاسمة، بين عزف الآلة وغناء النسوة. – كنت نائماً. شعرت بوخزة كوخزة الدبّور. فاستيقظت متعرّقاً. آه، لقد لدغتني، لقد لدغتني الرتيلاء اللعينة! رأيتها بعينيّ هاتين، لكنّها كانت على الجدار، بعيدة عنّي. آه، عسى أن يلدغك الشيطان أيّتها الأنثى الشرّيرة! ثمّ عدت، اسمعوا، إنّي أخاف أن أموت. منذ زمن طويل وأنا خائف من الموت.

- سنموت جميعاً، عندما يحين الوقت. قال إيزيدورو بوقار.

- أجل سنموت جميعاً، أكّد أحد الصدقاء. لكنّ هذا لم يواس جاكوبّه ديغاز.

بل قال متذمّراً: - أشعر كأنّ ساقيّ محطّمتان، وظهري؟ آه، يبدو كأنّ ظهري ضرب بالفأس، سأموت، إنّي سأموت...

خرج الناس إلى الشارع ليشاهدوا المجموعة، لكنّ الجميع كانوا ينظرون بصمت، كما لو أنّهم أمام جنازة لا يسير فيها مخلوق. تغشّت عينا جاكوبّه، وفجأة أخذ يترنّح، فاستند إلى إيزيدورو.

كانت النساء يسرن، يخببن مثل المهرات، ويرتفع صوت الأغنية الحزينة، وينتشر انتشار الدخان قبل أن يختفي في صمت المساء البارد، وسط صرير القيثارة الشبيه بأنين حيوان جريح مهجور بين الشجيرات.

أخيراً وصلوا إلى بيت الأرملة الصغيرة. في المدفأة الحجريّة وسط المطبخ، كان يتّقد كوم من الجمر نزع قبل قليل من الفرن. وكان هذا الفرن، وهو مستدير وواسع، مع ثقب في وسط سقفه لخروج الدخان، يحتلّ زاوية المطبخ وله فتحة مربّعة يمكن أن يدخل فيها رجل بكلّ راحة. حسناً، فقد انحنى جاكوبّه ديغاز ودخل في الفرن الدافئ، فظهر عند الفوهة نعلا حذائه المدعّم بالحديد، فكانت المسامير المستهلكة تبرق بنعومة على ضوء النار.

واصلت النساء جوقتهنّ حول الموقد والفرن، فكان وميض النار الأحمر - البنفسجيّ يرتعش فوقهنّ، ويضيء الصدّارات الصفراء والقمصان البيضاء. وبدا وجه العمّة آنّا – روزا الصغير المستدير وكأنّه ثقب أسود صغير في رأسها الورديّ اللامع. عندما سمع الأعمى حسيس النار اقترب منها شيئاً فشيئاً دون أن يتوقّف عن العزف. عندما وصل إلى طرف الموقد وضع قدمه العارية فوق الحجر المتّقد.

فقال إيزيدورو: - س س س... احذر اللسع أيّها الفتى!

لم ينه كلامه عندما وثب العازف وتراجع إلى الوراء وهو يهزّ قدمه الملسوعة. توقّف للحظة عن العزف، مع أنّ كورس النساء واصل الغناء، وهنّ واقفات جامدات أمام تلك النار، فظهرن كأنّهنّ كورس ينشد أغنية جنائزيّة أمام مقبرة من ما قبل التاريخ.

قالت العمّة آنّا - روزا فجأة بصوت خفيف: «اخرج».

فخرجت من الفرن قدما جاكوبّه الضخمتين، في اللحظة نفسها فتح الباب وظهر شخص أسود. الخوريّ إلياس. ذلك أنّه جرى، عندما عرف بتلك الحال، وتوجّه إلى بيت الأرملة عسى أن يحول على الأقلّ من إدخال جاكوبّه إلى الفرن. كان يلهث بوجهه المحمرّ وعينيه المتّقدتين.

عندما رأينه صرخت إحدى النساء وصمتت أخريات، بينما أشارت البقيّة إلى متابعة غناء الكورس. كما خرج جاكوبّه كلّه من الفرن.

أمر الخوريّ بصوته اللاهث: اصمتن، ألا تخجلن؟ لا؟

عندها صمتت جميعهنّ.

فاستأنف كلامه وهو يفتح الباب على مصراعيه: - انصرفن. أبقى الباب مفتوحاً بيده، ووقف يستعرض خروجهنّ. ثمّ لاحظ بعد أن خرجن جميعاً وجود إيزيدورو هناك، فامتلأت عيناه بالحزن.

قال مؤنّباً: - أوَ أنت أيضاً؟ هل هذا ممكن؟ ألا ترى كيف مسختم ذلك الرجل المسكين؟ ثمّ كرّر كما لو أنّه يكلّم نفسه: - هل هذا ممكن! هل هذا ممكن! ثمّ استعاد أنفاسه وقال: - هيّا، استدعوا الطبيب في الحال! وأنت اذهب إلى الفراش، هيّا!

لم يكن جاكوبّه يريد أفضل من هذا، كان يشعر بالحمّى، ويرتعش رأسه، وعيناه لا تريان شيئاً. خرج إيزيدورو وذهب إلى بيت الطبيب، شعر بالأسف والخجل، لكنّه

وعلى الرغم من حكمته وعقله ودينه، لم يتمكّن من تبيان أيّ ضرر يكمن في محاولة الشفاء من لدغة الرتيلاء بالأغاني والأناشيد والطقوس التي كان يستخدمها في القرية الآباء والأجداد، ومنذ أيّام العمالقة الذين كانوا يسكنون في النوراك[1].

تفرّقت النسوة عبر الطريق في مجموعات من اثنتين أو ثلاث. وكنّ يعلّقن في الظلّ وبصوت منخفض حول ما حدث. فهناك من أخذت الأمر على محمل الجدّ، ومن كانت تنتقد الخوريّ، لكنّ فتاة مرحة أخذت تضرب بيديها على وركيها وتغنّي بسخرية:

لكنّ صاعقة سقطت، يا أمّ العنكبوت[2]

كان هذا هو المقطع الذي كان يجب إنشاده أمام سرير المريض لو لم يصل الخوريّ إلياس. اقتربت بعض النساء من إيزيدورو، لكنّه تجاوزهنّ بخطا طويلة، وهو غارق في أفكاره. انصرفت عندها جميعهنّ، وساد حول بيت الأرملة ظلام الليل المخضرّ والبارد. وبدت النجوم مثل عيون من ذهب تغطّيها الدموع.

---

(١) النوراك (Nuraghe) برج حجري على شكل مخروط مقطوع، يرجع تاريخه إلى الألفية الثانية قبل الميلاد، منتشر في جميع أنحاء جزيرة سردينيا. كانت هذه الأبراج مركز الحياة الاجتماعية للسردينيّين القدامى، الذين سُميت حضارتهم باسم الأبراج. وهي واحدة من أكثر الحضارات غموضاً في البحر الأبيض المتوسط. وفريدة من نوعها، النوراك بين أكبر وأفضل المعالم المحافظ عليها في أوروبا. تعدّ اليوم أفضل رمز معروف لسردينيا. **(م)** عن ويكيبيديا.

(٢) كما ظهرت ترجمتها في الرواية بالإيطاليّة، والأصل في متن الكتاب هو بالسردينية: Faladu m'est su tronu, O mama de ranzolu

ويمكن مراجعة المجلّد الثالث من العام الأول – مجلة العادات الشعبيّة الإيطالية، روما ١٨٩٤ Rivista delle tradizioni popolari italiane

- XIV -

كانت الغرفة التي يرقد فيها جاكوبّه ديغاز ذات ارتفاع غير عاديّ، وواسعة لدرجة أنّ ضوء السراج الزيتيّ لا يصل إلى الزوايا كما ينبغي. لكنّه يجب أن يقال إنّ الأثاث كان متناسباً: خزانة ملابس من خشب أحمر موضوعة على جدار الصدر وتصل إلى السقف، وفيها شيء ما يوحي بالصرامة وعمق التفكير. ثمّ السرير الخشبيّ، ويدور حول أسفله شريط من القماش المصفرّ، وكان عالياً ومهيباً مثل الجبل. ولا يعرف ما هو نوع الغموض الذي يلفّ تلك الغرفة بزواياها المظلمة وسقفها المرتفع والداكن مثل سماء ملبّدة بالغيوم. كان شخص العمّة آنّا - روزا الصغير يضيع في تلك الغرفة الواسعة كالسهل الشاسع، ولا يمكن أن يصل صدرها إلى حافّة السرير.

كان جاكوبّه ديغاز يحلم على هذا السرير الواسع. كان يعاني من حمّى بدرجة ٣٩ مئويّة. حلم أنّه ما زال في الحفرة، لكنّ الرجلين اللذين دفناه واصلا مراكمة التراب حول رأسه وخنقه. وكان هو يعاني ذلك، لكنّه تركهما يعملان. على أمل أن يشفى في أسرع وقت إذا دفنوه إلى ما فوق رأسه، وكان رأسه هو الخوري إلياس الذي كان ذيل رتيلاء صغير يتذبذب فوق صدره. وشعر جاكوبّه في الحلم بخوف جنونيّ من الموت.

فكّر عندما دخل إلى الفرن الدافئ أنّ جهنّم هي فرن متّقد، يستلقي فيه المدانون إلى أبد الآبدين.

وقد عادت إليه هذه الأفكار الآن في حلمه. رأى فرناً مشتعلاً عندما كان في الحفرة، حين كان التراب يتراكم حول وجهه، وكان هو يزمّ فمه حتّى لا يبتلع

منه شيئاً. كان ذلك هو الجحيم. كما أنّه، عندما كان في لا وعي الكابوس المحموم، شعر برعب شديد لدرجة أنّ غرائزه كانت تحتاج حاجة ماسّة إلى إدراك أنّ كلّ شيء كان وهماً من أوهام حواسّه. ثمّ استيقظ، ولكنّه عندما استيقظ، تولّد لديه انطباع بأنّه على المرء الحسّاس أن يجرّب الحجارة في النار، وأن يشعر بنفسه تحترق من غير أن يتمكّن من الحراك ولا الهروب من المصير الرهيب. شعر جاكوبّه ديغاز بشيء مماثل. كما لو أنّه انقلب إلى حجارة موضوعة داخل كوم من الجمر داخل فرن مشتعل، بل في جهنّم. وعندما استيقظ شعر برعب أشدّ شراسة ممّا شعر به في الحلم. فأطلق صرخة، صمّاء ثقيلة، لكنّ صوتها أراحه، كما لو أنّها كانت صوتاً بشريّاً تردّد قربه وسط أهوال الجحيم.

شعر العمّ إيزيدورو - الذي بقي في البيت ليساعد الأرملة الصغيرة بما يستطيع فعله – شعر بالخوف عندما سمع من المطبخ المجاور، صرخة الحلم تلك، فاستيقظ ظانّاً أنّ جاكوبّه قد مات. فوثب ودخل إلى غرفته. وعندما اقترب من السرير، رأى الرجل المريض مستلقياً على ظهره، بينما استطال وجهه بشكل غريب، وظهرت عيناه سوداوين وهما تبرقان بالدموع.

سأله الصيّاد: - هل أنت مستيقظ؟ - ماذا تريد منّي؟

لمس معصمه، وقرّب أذنه منه كأنّما ليسمع نبضه. بعد ذلك مباشرة رأى جاكوبّه على الجانب الآخر من السرير وجه الأخت وهو ملفوف بمنديل أبيض.

حدث عندها أمر غريب: فقد تقلّص وجه المريض، واتّسع فمه، وضاقت عيناه. وهسهس أنينٌ مديد في الغرفة. لقد عادت تلك المرأة الصغيرة لتعيش في زمن بعيد، عندما كان جاكوبّه الطفل يبكي على السرير نفسه. لذلك فقد مدّت ذراعيها، وداعبت وجه الرجل المريض، وهي تقول كلاماً بين حلو وغاضب:

- بوركت الأرواح الموجودة في المطهر، ماذا حلّ بك، بماذا تشعر يا أخي الصغير؟

شعر إيزيدورو بالدهشة وهو يجسّ نبض المريض، ويبحث عن هذا العِرق وذاك الشريان، فقال:

- أوه، أوه، يا للغرابة!

- حسناً، ماذا بك؟ هل تريد أن تخبرني ماذا بك؟ ماذا حلّ به؟ أخبرني أنت يا إيزيدورو بانه.

- لا شيء... لا شيء... لقد صرخ، هذا كلّ ما في الأمر. كان ربّما يرى كابوساً بشعاً. سنقدّم له الآن بعض الماء. حسناً، هاتي شيئاً من الماء. حسناً، اشرب الآن. إيه، كيف تشرب! هل كنت تشعر بالعطش؟ لا بأس، هذا بسبب الحمّى، هذا كلّ ما في الأمر.

بعد أن جلس جاكوبّه وشرب الماء، شعر بهدوء تامّ. كان يرتدي كنزة قديمة من صوف أبيض تصف معالم جسمه، الصغير رغم ضخامته. وكان صدره المغطّى بوبر كثيف أسود يتناقض مع رأسه ووجهه الحليق بالكامل. بقي جالساً، منحنياً إلى الأمام، غارقاً في أفكاره، وهو يمرّ بيده السليمة على ذراعه المصابة.

ثمّ قال فجأة بصوت المحمومين اللاهث والمنتحب: - أجل، لقد رأيت حلماً مزعجاً. ما أشدّ هذا الحرّ أيّها القدّيس قسطنطين الرائع! إنّه حرّ المقاصل. لقد حلمت بالجحيم.

فقالت أخته وهي توبّخه: - يا لهذه الأفكار! يا لهذه الأفكار! يا لهذه الأفكار!

أضاف العمّ إيزيدورو مازحاً: - وهل الحرّ شديد هناك، يا عصفور الربيع الصغير؟

فاستشاط المريض غضباً:

- لا تسخر منّي ولا تقل ثانية يا عصفور الربيع الصغير. فأنت تغضبني. أنا لن أقولها ثانية، لن أسخر بعد الآن من أحد. بعد ذلك قال، وهو ما زال منحني الرأس ويلمس ذراعه: - اصغي إليّ، إنّ الجحيم أمر قبيح. أنا سأموت، ويجب أن أقول لكما شيئاً. حسناً، لا تفزعي يا آنّا – روزا، على كلّ أنا سأموت. وأنت كنت تعرف ذلك أيّها العمّ إيزيدورو، بوسعي أن أخبركما بهذا إذاً. ها كما، أنا الذي قتلت بازيله ليدّا.

فنجلت آنّا – روزا عينيها، فتحت فمها، سندت صدرها إلى السرير وتشنّجت وأخذت ترتجف.

هتف إيزيدورو: - أنا لم أكن أعرف شيئاً!

عندها رفع جاكوبّه رأسه بخوف وبدأ يرتجف هو الآخر.

قال متوسّلاً: - لن تجعلاهم يعتقلونني؟ على كلّ أنا سأموت. ستقولانها بعد ذلك؟ ظننت أنّك كنت تعلم! ماذا بك يا آنّا - روزا؟ لا تخافي، لن يجعلهم يقبضون عليّ.

فقالت وهي تسويّ وضعها: - ليس هذا! لكنّه بدا لها أنّ حجراً قد شُجَّ رأسها. وبعد أن زال انطباعها الجسديّ، حدث شيء غريب في داخلها، كما لو أنّ روحها قد فاضت، وحلّت محلّها روح أخرى ترى الأشياء والعالم والحياة والسماء والأرض والله، بشكل يختلف عمّا كانت تراه الروح السابقة. وكانت جميع الأشياء التي تراها الروح الجديدة مليئة بالرعب والظلام والفوضى.

واعترض إيزيدورو: - أنا لن أقول شيئاً. لا، لا، لكنّي لم أكن أعرف أيّ شيء. وكيف كان لي أن أعرف؟ لم يكن يشعر بالخوف من جاكوبّه، لا بل بالشفقة، لكنّه كان يتمنّى له الموت في الوقت نفسه.

ومباشرة فكّر جميع ثلاثةِ هذه المأساة بكوستانتينو، ولم يفارقهم هذا التفكير للحظة واحدة. ثمّ قال إيزيدورو وهو يضرب بيده على الوسادة: - استلق الآن.

لكنّ الثاني هزّ رأسه، واستأنف بصوته الشاكي واللاهث، والمتوسّل أحياناً والغاضب أحياناً أخرى:

- كنت أظنّ أنّك تعرف، آه، لم تكن تعرف إذاً؟ حقّاً! وكيف كان لك أن تعرف. كنت أخاف منك، لكنّي كنت أظنّ أنّك تقرأ ذلك في عينيّ. هاك مثلاً، قلت لي ذات ليلة في بيتك: «يمكن أن تكون أنت الذي قتل بازيله ليدّا». خفت حينها، في ذلك المساء. ثمّ إنّك قلت لي في يوم آخر، في عيد ارتقاء العذراء، هنا، في هذا البيت، قلت لي «يا قاتل!». كنت تمزح، لكنّي شعرت بالخوف، لأنّي كنت أخاف منك. لكنّي عندما عرضت عليك الزواج من أختي كنت أتكلّم جادّاً، كنت أفكّر بربطك فيّ.

فتحسّرت الأرملة: - يا حبيبي يسوع المسيح! يا يسوعي الصغير!

نظر إليها جاكوبّه للحظة.

- أنت خائفة، إيه؟ قد تتساءلين، لماذا فعلت ذلك؟ حسناً، لأنّي كنت أكرهه. لقد ضربني بالعصا، وكان مديناً لي. لكن تهيّأ لي أنّي أموت عندما أدانوا كوستانتينو ليدّا. لماذا لم أعترف في ذلك الحين؟ هذا ما تقولانه! إيه، ما أسهل أن يقال هذا، لكنّ فعله كان مستحيلاً. كوستانتينو فتى صالح، وأنا فكّرت أنّي سأموت قبله، وسأعترف بكلّ شيء، وما فعلته جوفانّا إيرا جعلني أهرم مئة سنة، فماذا سيقول كوستانتينو عندما يعود؟ ماذا سيقول؟ عاد وكرّر القول وكأنّه يسأل نفسه. – ماذا سنفعل الآن؟

حنت العمّة آنّا –روزا رأسها فوق الغطاء وتنهّدت: بدا لها أنّها ترى حلماً رهيباً.

لكنّها لم تفكّر لحظة أنّه يجب عليها أن تخفي الكشف عن أخيها. وماذا بعد ذلك؟

كان هناك شيئان كلاهما رهيب يحدثان في قلبها: إمّا موت جاكوبّه وإمّا إدانته. ولم تكن هي تعرف أيّهما تختار.

قال العمّ إيزيدورو: - سنذهب الآن إلى الفراش ونرتاح: وسنفكّر غداً فيما علينا فعله. ثمّ ضرب بيده على الوسادة مرّة أخرى. فعاد جاكوبّه واستلقى على ظهره ورفع يده السليمة، وبدأ يعدّ على أصابعه:

- الخوري إلياس واحد، ثمّ العمدة، ثمّ... ما اسمه، برونتوو ديغاز. أجل، أجل. هو بالذات. أريدهم هنا، أن أعترف أمامهم. فسأله العمّ إيزيدورو بدهشة: - أوَ أمام برونتوو ديغاز؟

- لأنّ عليه أن يقتنع أكثر من الجميع. لكن أوّلاً، عليكم أن تقسموا لي جميعاً على الصليب أنّكم ستدعوني أموت بسلام. أنا خائف. فهل تدعوني أموت بسلام إذاً؟

فقال الصيّاد بصوت هادئ وهو يسوّي الأغطية حول المريض الذي كان يتكشّف باستمرار ويتقلّب ويهزّ رأسه: - حتماً، بالطبع! كن الآن مطمئنّاً. وأنت، أيّتها الأخت الصغيرة، عودي إلى سريرك، استريحي، نامي.

قال جاكوبّه: - أشعر بالحرّ، أشعر بالحرّ، دعني. كيف أنّك لم تتفاجأ يا عمّ سيدورو؟ آه، لقد بقيت أعمل خادماً كيلا أثير الشكوك. لكنّك كنت تعلم. أجل، أجل، كنت تعلم.

- لم أكن أعلم شيئاً، وأكرّر، يا عبد الله.

- فلماذا لم تتفاجأ إذاً؟

فأجاب الآخر بصوت وقور: - لماذا؟ تحدث في الدنيا أشياء كثيرة! هذه أمور الدنيا. أمّا الآن، فاحفظ عليك الغطاء وحاول أن تنام.

رفعت الأرملة رأسها، وقد بدا أنّها لم تكن تسمع ماذا كان يقوله الرجلان. انقلب الوجه الصغير أصفر، مليئاً بالتجاعيد، بدا أنّ كلّ السنين التي مضت بهدوء ولم تترك أثراً على ذلك الوجه، قد انتقمت الآن منه، وفي لحظة واحدة.

قالت المرأة الصغيرة: - ليس هناك حاجة للشهود يا جاكوبّه. ليس هناك حاجة لاستدعاء أحد. ألا نكفي نحن؟

رفع هو رأسه ثانية ونظر إلى إيزيدورو، ونظر إيزيدورو إليه، ثمّ قال اثناهما:

- صحيح.

بدا بعد ذلك أنّ هدوءاً شديداً عمّ الغرفة المصفرّة الغريبة. عاد المريض واستند إلى السرير، بصمت، هدأ، وغفا. كما رضخت الأرملة لنصائح العمّ إيزيدورو وذهبت لتنام. عاد وجه الخزانة الأحمر الوقور ليهيمن وكأنّه يتأمّل الظلال، وسيطر السقف على سكون الغرفة كأنّه غيمة تسيطر ألوانها على سهول مقفرة. كما بدا أنّ كلّ الأشياء، الهادئة، اللّا مبالية، تكرّر كلمات العمّ إيزيدورو:

- أمور الدنيا!

كان الدكتور بودّو، الطبيب الرسميّ في بلدة أورلي، شخصاً يشبه الوحوش المنفوخة الضخمة. هو أيضاً كان يعتقد ذات يوم بمُثلٍ عليا، لكنّ الأقدار رمت به إلى تلك البلدة المنعزلة، التي لا يمرض فيها الناس إلّا قليلاً، فمال إلى الشراب، أوّلا ليتدفّأ – لأنّه من أهل الجنوب – ثمّ لأنّ المشروبات والنبيذ تروق له بالفعل. لذلك فقد أصبح الآن مدمناً، بل غبياً أحمق بصورة كاملة، حتّى إنّ أهل أورلي أنفسهم لم يعودوا يحترمونه.

كان جاكوبّه ديغاز يشتكي من ألم في جنبه فكوى له الدكتور بودّو يده التي لدغتها الرتيلاء، وقال له بصوت أجشّ:

- غبيّ. لا أحد يموت بهذه الأشياء. من ناحية أخرى، إذا متّ أنت فذاك كما يموت الحمار.

نظرت إليه العمّة آنّا – روزا بغضب وتذمّر. أصبحت غضوباً، تلك المرأة المسكينة، غضبت من الجميع، ما عدا المريض. وكم ظهرت عجوزاً الآن! بعد تلك الليلة، امتقع وجهها الصغير واصفرّ وتجعّد، ولم يعد كما كان.

لقد غيّرها اعتراف أخيها الصغير بشكل غريب، غيّرها جسديّاً ومعنويّاً. فكانت تتساءل بدهشة عميقة، كيف كان لجاكوبّه أن يقتل رجلاً.

- هو! هو الذي كان مرحاً ولطيفاً كالحمل. فكيف له يا أرواح المطهر المقدّسة؟ مع أنّ أبانا لم يكن لصّاً، لا. بل كان من رجال الله، مرحاً على الدوام ويحبّ المزاح لدرجة أنّ أصدقاءه يلجؤون إليه عندما يكونون في مزاج سيّئ.

كانت مشاعر المرأة الصغيرة ترقّ عندما تفكّر بأبيها العجوز الميّت. لكنّ غيمة رهيبة أظلمت الآن رأسها، وتجعّد وجهها الصغير رعباً من أفكارها الرهيبة.

- ترى هل ارتكب ذلك الرجل العجوز المرح، ذلك العجوز القدّيس، هل ارتكب هو أيضاً جريمة ما؟

لا يمكن الوثوق بأحد بعد الآن، لا بين الأحياء ولا بين الأموات ولا بين الشيوخ ولا بين الأطفال. ثمّ جلست العمّة آنّا - روزا تبكي، وهي تضرب على صدرها بقبضتها الصغيرة لتكفّر عن شكوكها الرهيبة. ثمّ ذهبت نحو الرجل المريض. كان وجهه يفضح آلام جسده وعيناه ممتلئتان بالخوف، بل بدا أنّهما

تتوسّلان الموت لتخليصه من تلك الآلام، فأثار هذا الألم بلا اسم في نفسها شفقة كبيرة لا متناهية، ونوعاً من حنان الأمومة.

أكثر من أيّ وقت مضى، رأت فيه ذلك الأخ الصغير، خاصّة وهو متكوّع الآن في السرير الضخم، خائف، وقد تقلّص جسده بفعل الألم. وبينما كانت كلّ الأشياء، كلّ الأشخاص، بل أقدس الأموات، بل والأطفال الأبرياء، بينما كان هؤلاء يثيرون في نفسها ريبة مريرة وأحقاداً عميقة، فقد كان هو، هو وحده، يثير الشفقة في نفسها، والحنان، والحبّ، ومسرّة مؤثّرة ودافئة مثل شمعة تحترق. هذا بينما كان عليها أن تراه، وها هي تراه يموت، وكان عليها أن تتمنّى له الموت. كانت تداويه بحنان وانتباه، بينما كانت تودّ لو كانت بلا جدوى كلّ الأدوية، والعلاج، وكلّ شيء. لكنّ هذا الموت، هذا الشيء الرهيب الذي كانت تتمناه لـ «أخيها الصغير»، إلى جانب الآلام الشديدة التي تعتمل في نفسها، لا بدّ أنّهم جاؤوها بشيء آخر أشدّ رهبة: التبليغ عن الجريمة.

غير أنّ أشدّ ما كان يثير أحزان العمّة آنّا - روزا بين كلّ هذه الأمور، هو أنّ المريض كان يدرك مشاعرها.

في اليوم الثالث من مرضه، حمل إيزيدورو بالخفاء دواءً أعاره له خادم الكنيسة. يتكوّن هذا الدواء من زيت زيتون عوّموا فيه ثلاث عقارب، أمّ تسعة وتسعين، رتيلاء ونبات فطر سامّ: وهو يعالج أيّ لدغة. قامت العمّة آنّا - روزا على الفور بمسح يد المريض المكدومة والمنتفخة: وقد تركها هو تفعل ذلك، وهو ينظر بانتباه إلى يده، لكنّه قال بعد ذلك بصوت هادئ:

- لماذا تعالجينني يا آنّا – روزا؟ ألا تريدين أنت أن أموت؟

فشعرت بقلبها يتمزّق.

قال بعدها جاكوبّه وهو ينظر إلى إيزيدورو: - لقد انتهى هذا أيضاً! – لكن ماذا ستفعلان إذا لم أمت؟

- سيدبّر الله الأمر. فاطمئنّ انت.

فصمت قليلاً ثمّ قال: - هل ستذهبان معاً إلى القاضي؟

- ماذا؟

- إلى القاضي. لكنّ الطقس بارد الآن والرحلة طويلة. على كلّ، هل تعرفين! لا تسافري يا آنّا – روزا على الحصان، بل اركبي عربة تقلّك إلى نوّرو.

- ولماذا يجب أن أسافر؟ سألته بغضب، وهي تتصنّع أنّها لم تفهم.

- حسناً، لمقابلة القاضي، طبعاً!

فنهرته، ثمّ ذهبت إلى المطبخ وبكت بمرارة.

- هذا هو زيتك. قالت لإيزيدورو عندما همّ بالخروج – كان بوسعك ألّا تأتي به. متى سيأتي الخوري إلياس؟

- سيأتي هذا المساء.

- أجل، يجب أن يلفظ جاكوبّه أمامه الاعتراف الدينيّ. الزمن يطير، وهو مريض. لم تغمض له عين هذه الليلة. وأضافت: آه، يبدو لي كأنّه عصفور صغير جريح.

فسأل الثاني: - هل جاء آل ديغاز؟

- جاؤوا. جاءت الأمّ وابنها. بل إنّ برونتوو جاء مرّتين. بلى، يأتون، يأتي الجميع. لكن ما الفائدة؟ قالت بمرارة ويأس: - لا يستطيعون له حياة ولا موتاً.

- كلاهما جيّد وسيّئ بالنسبة إليه. قال إيزيدورو وهو يلفّ بعناية قارورة الزيت بمنديله الأحمر.

فأجابت المرأة: - وبالنسبة إلى الجميع.

بعد قليل جاء الطبيب، متسربلاً برداء ضيّق متّسخ الياقة. وكان ثملاً، ينفخ ويبصق هنا وهناك، بل وعلى نفسه في بعض المرّات. كما كان يخرج من بين شفتيه القاتمتين بخار نفَسِه الذي يفوح منه نتن الغرابّا. ومع ذلك فقد أعرب عن مخاوفه من حال جاكوبّه.

قال له بفظاظة: - أيّ شيطان حلّ بك؟ جنبك؟ جنبك؟ لقد حلّت الشياطين في جنبك! فلنشاهد إذاً.

رمى الأغطية، كشف عن جنب جاكوبّه الموبر، تحسّسه ووضع أذنه عليه.

- العمى! إنّك تتدلّع مثل الأطفال! قال وهو يعيد تغطيته بخشونة. لكن عندما رافقته العمّة آنّا – روزا إلى الباب، التفت وحدّق فيها قائلاً:

- أيّتها المرأة الصغيرة، دعيه إذاً يعترف لأنّه مصاب بالتهاب الرئة.

اعترف جاكوبّه عند المغيب، ثمّ نادى على أخته وقال لها:

- آنّا – روزا، سيأتي الخوري إلياس معك إلى القاضي. اذهبا في العربة لأنّ الطقس بارد.

وفي الواقع فقد كان الثلج يتساقط في الخارج. بينما ما زال ضوء أبيض باهت يتسرّب بأحزانه العميقة إلى الغرفة الواسعة الغامضة ذات السقف الشبيه بسماء مثقلة بالغيوم.

نظر الخوريّ إلياس إلى العمّة آنّا - روزا، وكان يحبّها كثيراً لأنّها تشبه أمّه إلى حدّ ما: رأى أنّ حجمها قد تقلّص، وظهرت سوداء تحت ذلك الضوء الخافت الحزين، ضوء المغيب المثلج، كما أنّها خفضت وجهها خجلاً من جريمة «أخيها الصغير». فهم الخوريّ إلياس بغريزته كلّ المأساة البطوليّة التي تعيشها تلك النفس المسكينة، فباركها في نفسه.

- XV -

كان الوقت في أيّار. عادة ما يكون وادي إيزالّه الكبير قاحلاً، شديد القسوة، لكنّ هناك أعشاباً طويلة جدّاً تغطّيه الآن، وشجيرات مزهرة، وحقول شعير يتماوج مع هبّات النسيم مثل ستائر ذهبيّة مخضرّة. إنّه يضحك للربيع، كأنّه رجل عجوز متوحّش، أسكرته الشمس والعطور، فأخذ يهرج ويتغطّى بالسعف وأكاليل الزهور.

كانت تغاريد الطيور تنطلق بنبراتها الحادّة كأنّها نغمات ناي تسري وسط السكون العميق الذي عمّ الوادي، لتنضمّ إلى روائح أزهار النرجس وغيره من نباتات البرّ، التي يبدو كأنّ شجيراتها المزهرة الكبيرة غمرت في حوض من الذهب المسال، وهي تترامى على حوافّ الضفاف، كما لو أنّها تريد إمعان النظر في قيعان الوادي.

مرّت ساحرة فاتنة ضخمة، وأخذت تنثر الزهور البنفسجيّة وأنواعاً مختلفة وعطوراً. وظهرت من بعيد بعض المروج العشبيّة، المرقّطة بالحوذان، وكأنّها مقاطع من بحيرة خضراء تنعكس عليها صورة السماء المرصّعة بالنجوم. وكانت الأشجار المتناثرة تتضاحك وهي تهمس لهبّات النسيم.

كانت الشمس قد غابت لتوّها. وكان للسماء في الغرب لون الدرّاق الناضج، بينما كانت الجبال في الشرق والشمال تجثم كأنّها أحجار كريمة ضخمة موضوعة على شريط من ساتان ليلكيّ.

لقد أطلق سراح كوستانتينو ليدّا قبل ساعات قليلة في نوّرو، وكان عائداً سيراً على الأقدام إلى بلدته. هبط عبر الوادي على غير عجلة من أمره، وهو يحمل على ظهره جعبته الصغيرة. كان يتوقّف في بعض الأحيان وهو ينظر إلى الطريق حوله، هنا وهناك، وكان يفكّر:

- أوه، يا للعجب، يبدو لي أنّ الوادي أصبح أصغر الآن، ربّما لأنّي رأيت البحر.

كان قد شاخ، بلا لحية، شاحب الوجه، لكن لم تكن هناك على وجهه مسحة من الأسى كما يجب في حاله. عاد وحده وسيراً على قدميه، لأنّه لم يجد طريقة لتعيين يوم محدّد لإطلاق سراحه، وإلّا فلم يكن ليعدم قريباً له أو صديقاً يأتي لملاقاته. كما أنّه كان يتعجّل ساعة العودة إلى بلدته ومشاهدتها.

هبط وهبط. كان مرحاً تقريباً، ربّما لأنّه شرب النبيذ في نوّرو، وأخذ زاداً منه للرحلة. كانت ساقاه تشني أحياناً تحته وهو يهبط، لكنّه لم يكن لينزعج من مثل هذه التوافه.

فكّر: - حسناً، عندما لا أستطيع الاستمرار، فإنّي سأستلقي وأنام. معي الخبز والنبيذ في جعبتي، فما حاجتي إلى غير ذلك؟ إنّي الآن حرّ مثل الطيور. آه، أجل، أنا عازب. يا للغرابة! كان لي زوجة وأنا الآن أعزب.

بدا له أنّه يضحك في سرّه. ثمّ هبط وهبط. وكان ينظر تارة إلى الدرب المصفرّ المرسوم بين الأعشاب الطويلة، وتارة أخرى إلى الطيور التي سبّبت تلك المقارنة والتي كانت تحلّق على مسافة قريبة من الأرض وكأنّها تلامسها وهي تنسحب نحو الشجيرات كي تنام بينها. وهنا تذكّر الطائر العجوز الذي كان معه في السجن، فشعر بشيء ينفسخ في صدره.

حسناً، ولماذا الإنكار؟ لقد شعر بألم عند مغادرة مكان عقابه، وترك رفاقه الذين لم يكن يحبّهم، وتلك الجدران التعيسة، وتلك السماء التي ظلمته لسنين عديدة من فوق الرواق وكأنّها صفيحة معدنيّة.

مرّت أيّام وشهور بعد موت المذنب الحقيقيّ، وقبل أن تنهي العدالة معاملة تحرير هذا البريء. كان كوستانتينو في تلك الأشهر هائجاً والأيّام يحسبها

سنين، رغم أنّه كان على اطّلاع بكلّ شيء. ومع ذلك فقد كاد يبكي وهو يغادر. فحنانه المؤلم، الذي بدا كأنّه صادر عن محبّة لأولئك الذين بقوا هناك وعن شفقة عليهم، تبيّن أنّه يتعلّق بالأشياء التي تركها وراءه، وبما استوعبته هذه الأشياء من حياته وكينونته ومصيره.

لكنّ كلّ شيء انتهى الآن بانتهاء تلك الأحزان. انتهت حتّى آلامه الشديدة التي سبّبتها تصرّفات جوفانّا.

كان ذلك حقّاً حتّى إنّه كان بوسعه أن يضحك من أمره.

هبط ثمّ هبط. وصل إلى قاع الوادي وبدأ يمشي بمحاذاة جبل إيزالّه، تحت ضوء المغيب الذي لا زال حيّاً، وبينما كانت المياه تبرق هنا وهناك بين الدفلى والقصب، وتعكس توهّج السماء الأصفر المتورّد. وكانت مظلّات دانتيل البلسان، وأزرار أزهار الدفلى بلونها المرجانيّ الداكن والحادّ، ترتسم في الهواء البرّاق كأنّما فوق مينا فضّيّة. أصبح كوستانتينو منهكاً بالفعل، فقال في نفسه إنّ الوادي ليس بذلك الحجم الصغير الذي تخيّله عندما رآه أوّل مرّة.

فكّر أيضاً – سأنام براحة في هذه الحقول. بينما سيستغربون وصولي الآن إلى هناك: دن! دن! عندما أطرق على باب إيزيدورو. من هناك؟ - أنا. – من أنت؟ - حسناً أنا كوستانتينو ليدّا! يا لوجهه إيزيدورو ذاك! من يدري، لا بدّ أنّه ينشد التسابيح في مثل هذه الساعة. ثمّ تلك المدائح!... أجل، أوه، هاك! لقد قمت بتأليف بعض المدائح. يا للغرابة!

كان يشعر بالدهشة من بعض أمور الماضي، كما يشعر الشباب بالدهشة من أمور فعلوها أو شاهدوها في طفولتهم. لكنّ كوستانتينو كان يشعر بالدهشة حتّى من كثير من الأمور الحاليّة، كأن يشعر بالدهشة مثلاً من أنّ الفصلَ ربيعٌ الآن، ومن أنّ الوادي شاسع كبير، بعدما بدا له صغيراً، وأنّه يعبره الآن في طريق عودته إلى بلدته.

كان يسير بين حقلي حنطة، يرمي الضوء عليه خماراً من ذهب بينما يداعبه النسيم كأنّه يد خفيّة ضخمة، وفكّر:

- سيقول لي: - ادخل. ويقدّم لي بيته. ثمّ يقول لي: - هل تعرف أنّ جاكوبّه ديغاز قد مات، هو الذي فعلها! – لكنّي كنت أعرف هذا، يا للشيطان، أليس عندك أشياء أخرى تخبرني بها؟ - بلى، لقد تزوّجت زوجتك برجل آخر. – إيه، كنت أعرف هذا ايضاً. – وكيف، ألا تبكي؟ - لماذا عليّ أن أبكي؟ لقد بكيت كثيراً ولم تعد بي رغبة بالبكاء. أو من تظنّ أنّي أصبحت الآن؟ لقد خضت كثيراً من التجارب: لقد سافرت ورأيت البحر، لم أعد صبيّاً. لم يعد يهمّني شيء.

لكن فجأة، بينما كان يتباهى بصلابته، أو بالأحرى بشكوكه الغريزيّة، شعر بيد باردة تضغط على قلبه.

- آه، لو أنّي أعود إلى هناك، إلى البيت الصغير، وأن أجد جوفانّا، والطفل، والماضي!

لم يبق لي شيء أبداً، قال بصوت مرتفع. لقد مرّت الريح وذهبت بكلّ شيء. كلّ شيء... كلّ شيء... كلّ شيء... جلس على طرف حقل الحنطة يخنقه الألم. هذا ما هو عليه الآن. لقد ذهب الألم الشديد، أجل، منذ بعض الوقت، لكن يبدو أنّه اختبأ تحت الأرض وكان يمشي فيها، وراء كوستانتينو. وهو لم ير لفترة طويلة ذلك الوحش المختبئ، ولكن بعد ذلك كانت هناك لحظات معينة يثب فيها الوحش، فيمزّق الأرض برأسه القويّ، ويستمتع بالهجوم على الضحيّة، والعضّ على حنجرتها، والضغط على قلبها، وخنقها. ثم عاد واختبأ، جلس على حافّة حقل الحنطة، وسحب كوستانتينو من جعبته الصغيرة ثمرة قرع جافّة مليئة بالنبيذ، فشرب منها بعد أن قلبها رأساً على عقب، ثمّ أعادها ونظر إلى الحقل. بدا كما لو أنّه على شاطئ بحيرة، تطفو فوق زمرّدها الذهبي بقع من دماء أزهار شقائق النعمان.

بعد فترة وجيزة، استأنف الناجي رحلته، وبدا أنّه مرتاح، لكنّه لم يعد يسير بحماسةٍ مثل ذي قبل. فالوصول في ذلك اليوم، أو الوصول في اليوم التالي يعنيان الشيء نفسه، خاصّة وأنّه لا يوجد أحد ينتظره. مضى، ثمّ مضى، وما إن انتهى من المشي على طول قاع الوادي، حتّى غمرته أولى ظلال السماء، وبدا له أنّ صراصير الليل تجزّ العشب بمناشير فضّيّة صغيرة، وأنّ روائح الزهور والشجيرات تتهادى دافئة في الهواء. وعندما همد النسيم، وصمتت الطيور، لم يبق إلّا مثلّثات الخفافيش السوداء تحفر في رماد المغيب المضيء.

أوه، يا لحزن أماسي الربيع الإلهيّة، التي تحزن حتّى النفوس السعيدة! أليس هذا ربّما هو الحنين الأزليّ إلى فراديس الأرض، إلى الأزهار والأعشاب والدفء المعطّر الذي يبثّه الربيع الأبديّ، الذي خلق الإنسان من أجله والذي أضاعه إلى أبد الأبدين؟

كان كوستانتينو يسير ثمّ يسير. لكنّه يعبر الآن مساحات حرّة ويدوس على أعشاب وحجارة. أجل، فبعد سنين طويلة من القمع الوحشيّ قضاها بين جدران موبوءة، بين أشخاص فاسدين، في دائرة كان هواؤها بالذات حبيساً فيها، أخذ الآن يصعد على جبال تتفرّع عن الوادي، فتنفتح أمامه آفاق بعد آفاق كلّما تسلّق جبلاً منها، وتنحني أمامه سماء حلوة لا متناهية، مثل الحرّيّة نفسها. ومع هذا فإنّه لم يشعر وهو في السجن بمثل هذا الشعور العميق بالحزن الذي يراوده الآن مع تساقط الظلال من تلك السماء الحرّة. إنّه يسير، لكن لماذا يسير؟ إلى أين يسير؟ كان مسروراً في بداية الرحلة، بدا له أنّه يذهب نحو مكان ما يجد فيه أموراً تفرح قلبه. أمّا الآن فهو يدهش من هذا كلّه. بدا له، تحت ترنّح الغروب الذي يغطّي الأفق البعيد، أن لا جدوى من وراء رحلته، رحلة فارغة. فليس له الآن وطن، ولا بيت، ولا عائلة. وهو لن يصل أبداً، أبداً إلى أيّ مكان.

وبدا له أنّه تائه في صحراء شاسعة مليئة بالرمال، تشبه السماء الممتدّة فوق رأسه، بنجومها التي تشتعل وتظهر كأنّها نيران رحّلٍ منعزلين، لا يعرف بعضهم بعضاً، تائهين مثله في حرّيّة الصحراء العقيمة.

على الرغم من كلّ هذا، فلم يحزنه التفكير مباشرة بجوفانّا، بالسعادة المفقودة إلى الأبد، بالمصائب التي خصّه بها مصير ظالم. كانت هذه الأحزان قد عذّبت نفسه وجسده، وهما أساس كيانه، لدرجة بدا معها وكأنّه نسيهما، كما ينسى المرء الثوب الذي يرتديه. لكنّ ما يحزنه الآن هي بعض الذكريات البعيدة، عن أشياء ماديّة تركها وراءه ولن يجدها مرّة أخرى.

تذكّر بقوّة الفسحة أمام منزل جوفانّا، وحجارة جدار السور التي كانا يجلسان عليها سويّة خلال أمسيات الصيف، وتذكّر قبل كل شيء السرير المرتفع والواسع الذي كان يرتاح عليه بجانبها بعد يوم مليء بالتعب. حسناً، بدا له الآن وكأنّه يعود، منهكاً، في نهاية يوم من تلك الأيام البعيدة. ولكنّه لا يجد الآن مكاناً يذهب ليستريح فيه.

بلى، إنّه يشعر الآن بالتعب والجوع، وبكلّ الحزن الأليم، الواسع فلا يمكن تحديده، كما لا يمكن تحديد العطور البرّيّة التي كانت تفوح من المناقع التي عبرها.

عندما وصل إلى أعلى تلّة، جلس وفتح جعبته.

كان الليل قد هبط بالكامل، لكنّه كان واضحاً شفّافاً. فمن جهة الشرق، وبين الجبال التي تحجب البحر، كان ينتشر ضياء القمر البرّاق، ويمتدّ درب التبّانة في السماء على خطّ طريق شاسعة بيضاء مقفرة، أمّا في جهة الغرب، فقد حافظ ضياء البحر البعيد على حيرته.

أحاطت هالة ضوء ساحرة بالجبال. فأمكن تمييز المسار، وظهرت الشجيرات مرصوصة مستديرة مثل قطعان سوداء، ولم يسمع سوى نحيب الوقواق وهو يختلج ويستطيل وسط الصمت العميق.

أكل كوستانتينو وشرب ثمّ مشى على انحدار التلّة فزاغ بصره للحظة في العزلة العميقة التي تحيط بتلك الطريق الصافية العظيمة التي تمتدّ في السماء. لكنّه أغمض عينيه، فشعر عندها بالراحة تسري في بدنه وبالاسترخاء من طعامٍ أكله ونبيذ شربه، كانت بهجة مثل بهجة بداية الرحلة.

عندما أغمض عينيه رأى مباشرة رفاق المعتقل، فشعر بإحساس جسديّ بأنّه ما زال يشتغل بالأحذية. وشعر كذلك بفرح طفوليّ وهو يفكّر بالأشياء التي سيحكي عنها لأصدقائه في أورلي. لذلك كان لا بدّ من النهوض، واستئناف الرحلة، وسرعة الوصول.

فكّر: - سأنهض الآن وأذهب. لكنّه سرعان ما أجاب نفسه مثل طفل غاضب: - لا، أبداً، سأبقى هنا، سأنام هنا، إنّي نعسان. ثمّ استأنف بفكر مشتّت: - لا، يجب أن أذهب، إنّ إيزيدورو بانه ينتظرني. سأقول له: إيه، كم من الناس عرفت! لقد رأيت البحر، لي صديق اسمه المارشال بورّي، وسيضمن لي عملاً كإسكافيّ في قصر الملك. حسناً، سأنهض الآن وأذهب... سأذهب... سأذهب...

لكنّه لم يتحرّك. مرّت رؤى مضطربة في ذهنه. كان ملك المجارف يمتطي حماراً، ويجتاز تلك الطريق المقفرة الواسعة التي تخطّها السماء. أطلق على حين غرّة صرخة، صرختين، ثلاث صرخات لينادي على كوستانتينو، ففتح هذا عيناً مغشّاة، ثمّ أغمضها وعاد ليفتحها.

ففكّر المسافر: - يا غبيّ، هذا هو الوقواق، - سأذهب، بلى... سأذهب، سأذهب...

ثمّ سها ونام.

عندما استيقظ، كان القمر قد ارتفع في السماء وأخذ يرنو نحو الجبل، وهو منحن مثل وجه بيرق في تلك السماء من مخمل فضّيّ. تساقط الندى على وقع ضوءه المزرّق. وكان هناك ظلال ضخمة مثل خُمُر سود تغطّي بعض جوانب الجبال. لكنّ كلّ جرف، وكلّ شجيرة، بل كلّ زهرة، كانت ترتسم بوضوح على الأرض حيث يشعّ ضوء القمر. بينما بقي الوقواق يردّد صرخاته المعدنيّة الرقيقة الشبيهة بشفرات من فولاذ.

اقشعرّ جسم كوستانتينو عندما شعر أنّه كأنّما تبلّل بالندى، فنهض وتثاءب، فامتدّ صوت تثاؤبه المديد عبر الصمت العميق.

نظر المسافر إلى السماء ليتمكّن من أن يحزر الساعة. لم تكن النجمة، أي ديانا، قد عرضت بعد زمرّدها الكبير المذهّب فوق مياه البحر. أي إنّ الفجر ما زال بعيداً فغذّ كوستانتينو المسير، على أمل أن يصل إلى بلدته قبل أن يستيقظ الناس.

لم يكن يرغب في أن يصبح محلًّا لفضول العامّة من الناس، وخشي أكثر ما خشي أن تراه جوفانّا أو أمّها. كان مصمّماً على تجنّبهما، لم يكن يريد أن يراهما، ولم يكن يريد المرور أمام بيتهما. فما الفائدة من هذا؟ لقد انقضى كلّ شيء.

استأنف إذاً مسيره. فصعد ونزل، وتسلّق الربى على ضوء القمر. الشجيرات بأنواعها، الآس المبلّل بالندى، والصخور نفسها كانت كلّها تصدر رائحة رطبة مثيرة، بينما كانت بضع قطرات من الماء تتسلّل بصمت بين النباتات المزهرة.

كانت تتصاعد أبخرة من السماء الزرقاء وتنتشر عبر الآفاق الشاسعة فوق جبال زرقاء بدت رقيقة خفيفة، وهكذا فقد كانت المسافات تتلاشى في بخار أزرق كما في الأحلام. ومشى الرجل ومشى. شعر كأنّ ذهنه يرزح تحت تأثير

النعاس، وإن بقيت أطرافه رشيقة نضرة. فكان يقفز بين الحين والآخر، يجتاز طرقاً مختصرة شديدة الانحدار، ويتوقّف على القمم، لاهثاً، وقلبه يضرب بقوّة. بينما يلقي القمر شرارات فضّيّة في عينيه الصافيتين.

كان يتذكّر كلّما تقدّم الأماكن التي يسير فيها ويشمّ في الهواء عطور أرض مولده البرّيّة، ويتذكّر أيضاً الأماكن الحزينة المزروعة بالشعير والحنطة والتي ما زالت خضراء، مناقع البطم، والأشجار البرّيّة المتناثرة وهي تردّد أصداء الرياح بمثل تمتمات المسنّين وهم نيام يتحدّثون في المنام. ثمّ هناك زرقة القمر، تشعّ إلى أبعد منها، وإلى ما وراء صروحٍ كأبي هول ضخم، ثمّ وما وراء ذلك أيضاً، حيث تظهر شفرة البحر، ذلك البحر الذي يفتخر بأنّه عبره، مهما كانت طريقة ذلك العبور.

عندما وصل قرب كنيسة سان فرانشيسكو، توقّف مرّة أخرى، حسر عن رأسه وصلّى، وكانت صلاة خاشعة، لأنّه في تلك اللحظة شعر بمسرّة عودته، كما لم يشعر بها من قبل.

كان يقرع على باب إيزيدورو مع أولى تباشير الفجر.

منذ خمسة عشر يوماً، منذ عشرين يوماً، بل منذ أربعة أشهر كان إيزيدورو ينتظر ضربات هذا القرع على بابه الصغير، لذلك فقد وثب على قدميه قبل أن يبدأ قلبه العجوز بالتواثب في صدره.

ذهب وفتح. فرأى، أو لمح شخصاً طويلاً لا يرتدي زيّ البلد، بل كان يلبس ثوباً من قطن رخيصاً مبطّناً بمخمل خشن مثل الجلد، وجهه طويل وشاحب. فلم يعرفه للوهلة الأولى.

أخذ كوستانتينو يضحك، لكنّ ضحكته كانت صارخة بشكل آذى الصيّاد. عندها تعرّف هذا على صديق شبابه، لكنّه شعر بنوع من البرودة تجاهه.

بلى، هذا هو كوستانتينو، لكنّه لم يكن كوستانتينو تلك الأيّام. ومع ذلك فقد سارع لعناقه، من غير تقبيل، وشعر بقلبه ينصهر في الدموع.

قال كوستانتينو وهو يضع جعبته عن ظهره: - هاك، إنّك لم تعرفني! كنت أتوقّع هذا.

لقد تغيّر حتّى صوته وتغيّرت لهجته. فشعر العمّ إيزيدورو بنوع من الخوف، بعد أن شعر بتلك البرودة وتلك الشفقة.

- ولماذا ترتدي هذه الثياب؟ كان بوسعك أن تنتظر في نوّرو، وكان بوسعي أن آتيك بثياب من زيّنا، وبالحصان أيضاً. هل عدت سيراً على قدميك؟

- لا، لقد أعارني سان فرانشيسكو حصانه. حسناً، ما هي أخبارك أيّها العمّ إيزيدورو؟ أنا لا أريد قهوة، هل عندك غرابّا؟

كان الصيّاد قد بدأ بالكشف عن النار، فنهض بقلق، مضطرباً لأنّه لا يستطيع أن يقدّم له سوى شيء من القهوة.

قال وهو يفتح يديه: - لم أكن أعرف... لكن انتظر، سأذهب حالاً... حسناً، كنت أنتظرك ولا أنتظرك... وتوجّه نحو الباب.

فصاح الثاني وهو يحاول إيقافه: - إلى أين؟ إلى أين؟ لا أريد شيئاً. قلت ذلك مازحاً. اجلس هنا.

فجلس إيزيدورو وأخذ ينظر بخجل إلى كوستانتينو، ثمّ تشجّع شيئاً فشيئاً ولمس سرواله قرب الركبتين، وسأله إذا كان سيبقى بهذه الثياب.

ظهر وجه كوستانتينو رماديّاً وشاحب اللون وحزيناً على ضوء الفجر الذي يتسرّب من الباب المفتوح على مصراعيه.

- أجل، سأبقى بهذه الملابس، قال وهو يضحك ثمّ ضحك من ضحكته الغريبة، على كلّ يجب أن أغادر بعد قليل.

- هل ستغادر أنت؟ أوه، وإلى أين؟

فبدأ كوستانتينو يتكلّم وكأنّه يتلو درساً: لقد تعرّفت إلى كثير من الناس، إيه، هناك أناس سيساعدونني. وماذا تريد أن أفعل هنا.

- حسناً، بوسعك أن تشتغل إسكافيّاً. ألم تكتب لي أنّك تريد أن تشتغل بهذا؟

- إنّي أعرف شخصاً برتبة مارشال اسمه بورّاي (وكان كوستانتينو يرى أنّ ملك المجارف هو دائماً برتبة مارشال). وهو يعيش الآن في روما وقد كتب لي. سيجعلني أشتغل إسكافيّاً في بيت الملك.

نظر إليه العمّ إيزيدورو بعيني شفقة. آه، يا لهذا البائس، يا لهذا البائس، كان شخصاً مختلفاً!

ثمّ تساءل العمّ إيزيدورو: - لماذا تتكلّم بهذه الطريقة؟ لماذا تقول هذه الحماقات؟ بينما لدينا أشياء دامية نتكلّم بها؟

لكن بدا له أنّ كوستانتينو يتصنّع، وأنّه يختفي وراء خمار من لامبالاة كاذبة. لكن لماذا؟ وإذا لم يفتح صدره له، فمع من يمكن له أن يفعل؟

ثمّ قال: - حسناً، فلنتكلّم الآن بحديث آخر، ونعود بعد ذلك للكلام في هذا. لكن، حقّاً، لماذا لا تشرب بعض القهوة؟ ستنفعك.

فأجاب الآخر بصوته الرتيب: - بماذا تريد أن نتكلّم؟ كنت أتوقّع أنّك ستشعر بالدهشة لأنّي لا أبكي. لقد بكيت كثيراً ولم تعد لي رغبة بالبكاء. ثمّ إنّي سأغادر، لا يمكن لي أن أبقى هنا، بعد أن عبرت البحر. حسناً، هات شيئاً من

القهوة. ثمّ قال وقد تنشّط عند سماع خطى في الفسحة: - لكن من الذي مرّ؟ لا أريد أن يروني! ونهض ليردّ الباب.

عندما التفت كان وجهه قد تغيّر، وهزّت الرعشة ذقنه. قال بصوت رقيق، وكان يزداد رقّة:

- لقد مررت من هناك وأنا في طريقي إليك. لم أكن أريد أن أمرّ، لكنّي وجدت نفسي هناك من غير أن أنتبه. فكيف، كيف لي أن أبقى هنا؟... أخبرني، قل لي... أنت!

وضغط بيده على صدغه وهزّ رأسه بيأس. ثمّ ألقى بنفسه على الأرض وهو يتلوّى ويبكي بصراخ مكتوم من عنف لا يوصف، مثل ثور وضع في القيد ليوشم بالحديد الحارق.

شحب وجه الصيّاد أيضاً. لكنّه لم يقل كلمة واحدة لتهدئة ذلك الإعصار من الألم. آه، لقد رأى فيه أخيراً كوستانتينو الذي يعرفه!

الهيئة العامة السورية للكتاب

- XVI -

ما إن انتشر خبر عودة كوستانتينو حتّى امتلأ كوخ الصيّاد بالناس، وكان هناك طيلة اليوم ذهاب وإياب من أصدقاء وأقارب وأشخاص لم يسبق لهم من قبل أن تبادلوا كلمة واحدة مع الرجل المسكين، لكنّهم جاؤوا الآن ليعانقوه بل ليعرضوا عليه منازلهم. وكانت النساء تبكين ويدعونه «يا بني»، وهنّ ينظرن إليه بعيون مشفقة. كما أرسلت له إحدى الجارات الخبز والنقانق.

لكنّ كلّ مظاهر التقدير والشفقة هذه كانت تثير حنق الشابّ، فكان يقول لإيزيدورو:

- لماذا يشفقون عليّ؟ اطردهم، ولنذهب إلى الحقول في الريف.

فكان الآخر يجيب وهو منحن على الموقد ليطبخ النقانق: - سنذهب، سنذهب يا عبد الله، فتحلّ بالصبر. آه، كم أصبحت لئيماً، هل هذا ممكن؟

حسناً، بعد انفجار تلك الآلام عند الفجر، لم يعد العمّ إيزيدورو يشعر بالرهبة من كوستانتينو، بل بدأ على العكس من ذلك يتصرّف معه بمطلق الحرّية، ويوبّخه كأنّه طفل. ثمّ يبدأ خلال اللحظات القليلة التي يبقيان فيها وحيدين، في سرد الأحداث: وكان كوستانتينو يستمع له بانتباه وشراهة، بل كان ينزعج عندما يأتي الناس ويقاطعون القصّة.

جاء العمدة أيضاً، وهو ما زال ذلك الراعي ذا الوجه الذي يشبه وجه نابوليون الأوّل. وبالفعل فقد أثارت هذه الزيارة انفعال كوستانتينو.

قال له العمدة بعد أن نفّ أنفه بأصابعه: - نحن سنعطيك أغناماً وأبقاراً. أجل، سيقدّم لك كلّ راع بيكوس[1] من عنده. إذا كنت بحاجة لشيء ما، فأخبرني الآن مباشرة، نحن جميعاً إخوة في هذا العالم، وخاصّة في البلدات الصغيرة.

فكّر كوستانتينو بما فعله له الإخوة في بلدته الصغيرة، وهزّ رأسه.

قال: - آه، لقد فعل الإخوة بي ما فعله قابيل بهابيل. لا تكفي أغنام ولا أبقار لإعادة حياتي وتعويضي!

استأنف العمدة، مصرّاً على أفكاره: «حسناً، هذا لا يهمّ». - أخبرني بما أنّك سافرت وتجوّلت، هل رأيت وأنت على قمّة جبل مرتفع قرى متناثرة في الأرياف تحتك؟ حسناً، ألم يبد لك حينها أنّك ترى كثيراً من المنازل، وأنّ عائلة تعيش هناك في كلّ منها؟

بدأ كوستانتينو يتضايق من كلام العمدة وأجاب قائلاً إنّه يريد أن يترك البلدة، وأن يغادر وينصرف، بعيداً عنها، وألّا يعود إليها أبداً.

فنصحه الآخر: - لا، أنت لن تذهب من هنا. لا، لا تغادر. وإلى أين تريد أن تذهب؟ يجب أن تبقى هنا، فالجميع هنا إخوة.

ثمّ جاء الدكتور بودّو، يحمل مظلّة كبيرة بلون رماديّ متّسخ، وذهب ليرى ماذا يوجد داخل الطنجرة.

وبدأ يصرخ بصوته الأجشّ، وهو يضرب بمظلّته على الطنجرة: - أنتم مجرمون أنذال لأنّكم تأكلون قذارات كثيرة.

قال له إيزيدورو: - لا تحطّمها! والعفو منك، لكنّ هذه ليست قذارات. هذه فاصولياء ودهن مع النقانق.

---

(١) رأس ماشية.

- أليس هذا الدهن دهن خنزير؟ أنتم جميعكم خنازير، هنا... ثمّ توجّه نحو كوستانتينو قائلاً: - لقد عدت إذاً، أيّها الشقيّ النذل؟ لقد شهدتُ موت ذاك، من؟ ما هو اسمه؟ جاكوبّه ديغاز! لقد مات أبشع ميتة، كما يستحقّ. أنت عليك أن تأخذ حقنة. إنّها ضروريّة جدّاً بعد الرحلة.

نظر إليه كوستانتينو والتزم الصمت.

لكنّ الطبيب نهره وهو يهجم عليه ويهدّده بالمظلّة: - أنت تظنّ أنّي مجنون! حقنة، هل فهمت، حقنة!...

قال كوستانتينو: - لقد سمعت.

- أوه، هذا جيّد! سمعت أنا أيضاً أنّك تريد أن تذهب من هنا. انقلـــــع! اذهب إلى بيت الشيطان إذا شئت، على أن تنصرف من هنا. لكن اذهب قبل ذلك إلى المقبرة، إلى تلك المزبلة التي تسمّونها مقبرة! واحفر هناك، احفر كما يفعل الكلاب، واقضم عظام جاكوبّه ديغاز.

ثمّ ضغط على أسنانه، كما لو أنّه يقضم عظاماً: كان مضحكاً سخيفاً ومروّعاً، فعاد كوستانتينو لينظر إليه بذهول من جديد.

- لماذا تنظر اليّ هكذا؟ لقد كنت أحمق على الدوام، يا عزيزي، أيّها الوحش الصغير. ها أنت ذا، هادئاً ومسالماً كأنّك البابا في حدّ ذاته! لقد أخذوا منك كلّ شيء، وخانوك، وقتلوك، وضربوك بنذالة، كما لو أنّهم يضربون جثّة، وبقيت أنت هناك كغبيّ خرف. لكن لماذا لا تتحرّك؟ لماذا لا تذهب إلى تلك الأنثى الشرّيرة وأمّها وحماتها، وتمسك بهنّ من شعورهنّ، وتعلقهنّ بذيول الأبقار التي يريدون تقديمها صدقة إليك، وتضرم النار في تنانيرهنّ. ثمّ تطلق الأبقار عبر البلدة، ليحترق كلّ ما فيها؟ كلّ شيء، هل تفهم؟ هل تفهم أيّها الحيوان؟

كان يصرخ في وجهه، بينما تنبعث من فمه رائحة شيح قاتلة، وعيناه محتقنتان بالدم. تراجع كوستانتينو إلى الوراء، وجعلته تلك الكلمات يرتعد.

لكنّ الرجل الرهيب انصرف في الحال، ابتعد وذهب، ثمّ التفت نحو الباب وهو يهزّ المظلّة.

وقال: - إنّك تجعلني أرغب في تكسيرها على وجهك. رجال مثلك يستحقّون ما حدث لك. حسناً، خذ الحقنة على الأقل، أيها الغبيّ الأحمق.

- أمّا هذه فسأفعلها! هتف كوستانتينو وضحك. لكنّ كلمات «الدكتور» أثّرت فيه بعمق. آه، أجل، فهو يشعر في بعض الأحيان بنوبات يأس حارق. قال إنّه يريد المغادرة، لكنّه لم يكن يعرف بالضبط إلى أين سيذهب، ولا يعرف ماذا سيفعل إذا بقي في المدينة. بل فكّر:

- ليس عندي بيت، ليس لي مخلوق. وإذا كانوا يأتون اليوم ليحيّوني، ليشبعوا فضولهم، فغداً لن يتذكّرني أحد منهم. أنا مثل عصفور بلا قفص. ماذا يمكن لي أن أفعل؟

كانت كلمات «الدكتور» ترنّ في ذهنه. الذهاب، إلى هناك، الانقضاض كالصاعقة، تحطيم أولئك الذين بعثروا حياته.

استأنف إيزيدورو حديثه بينما كانا يأكلان النقانق والخبز الأبيض ممّا قدّمته الجارة هدية: - ... لا، يا كوستانتينو، إنّها ليست سعيدة، ليست سعيدة. إنّي لم أعد أنظر إليها في وجهها. لكنّي عندما أراها أشعر بشيء غريب، كما يحدث عندما نرى الغواية[1]. ومع ذلك، فكّر، فإنّي اشعر بالشفقة عليها. عندها طفلة، وأخبروني أنّها تبدو مثل حبّة فاصوليا طازجة، من شدّة ما هي رقيقة وخضراء.

---

(١) أي الشيطان (كما في الأصل).

كيف يمكن لأطفال الخطيئة المميتة أن يكونوا جميلين؟ كما أنّ الطفلة تعمّدت كما يتعمّد الطفل اللقيط: فلم يرافقها الخوريّ إلى بيتها، وكان الناس يبتسمون بسخرية في الطريق.

فقال كوستانتينو وهو يقطع الدهن الشحميّ المصفرّ: - آه، هل تذكر ابني الطفل؟ فهو لا، لم يكن يظهر كأنّه حبّة فاصولياء. آه لو أنّه بقي حيّاً!

فأخذ الصيّاد يتفلسف وقال: - من الأفضل أنّه مات، فالحياة كلّها بؤس وشقاء. من الأفضل أن نموت أبرياء، أن نذهب، ونحلّق هناك، خلف السماوات الزرقاء، في جنان ممتدّة فوق الغيوم، فوق الرياح، فوق كلّ مصائب البشر. ثمّ أضاف: - اشرب يا كوستانتينو، هذا النبيذ ليس جيّداً، لكنّه لم يصبح خلّاً بعد. حسناً، إنّي أذكر، في العام الماضي، في عيد الارتقاء، أنّ جاكوبّه ديغاز دعاني لتناول الغداء معه. كان يخاف منّي. ظنّاً منه أنّي أعرف... وأراد تزويجي من أخته! إذا رأيت تلك المرأة فلن تضحك مرّة أخرى. لقد جاءت معي هي والخوريّ إلى القاضي في نوّرو. وليعينني الله في ساعة الموت، إن كنت قد شاهدت من قبل امرأة أكثر منها شجاعة: بدت وكأنّها تنبت لتوّها من الأرض. ثمّ، لو تراها، انحنت ومالت وذبلت مثل ثمرة تجفّ على النبتة قبل أن تنضج. ما زلت حتّى الآن أذهب لرؤيتها. وأقول لها كي أسلّيها: حسناً، هل لنا أن نتزوّج يا حُبَيْبة الشعير؟ فكانت تبتسم، وابتسم أنا أيضاً، وإن كنّا نريد البكاء. من يمكن له أن يصدّق ذلك؟ كنت أقصد إذاً أن أقول إنّ جاكوبّه كان يبدو سعيداً ومسروراً، كان يثرى، بل وفكّر في الزواج. وفجأة - بوم! سقط على الأرض مثل حبّة كمثرى متعفّنة. وكذلك هي الحياة. فباكيسيا إيرا تتاجر بابنتها، تظنّ أنّها ستغيّر حالتها، لكنّها تموت الآن من الجوع أسوأ من ذي قبل: ولقد فعلت جوفانّا إيرا ما فعلته، ظنّاً منها أنّها وصلت إلى جنّة الله على الأرض، لكنّها وجدت نفسها مثل ضفدع طُعن بعصا وهو على قيد الحياة.

فسأل كوستانتينو وهو عابس: - لكن هل ذاك يضربها؟

- إنّه لا يضربها، لكن هناك ما هو أسوأ من الضرب. إنّهم يعاملونها كأنّها خادمة، هل تعلم، بل كأنّها جارية. هل تعرف كيف كان القدماء يعاملون العبيد؟ هكذا يعاملونها الآن في ذلك البيت.

فقال كوستانتينو وهو يرفع كأسه: - حسناً، فلينفجر! فلنشرب على هلاكه!

عندما سمع أنّ جوفانّا غير سعيدة، شعر بسرور قاس قوامه تشنّج في جسده مثل الذي يشعر به الأطفال عندما يشاهدون زميلاً لا يحبّونه وهو يتعرّض للضرب.

بعد الغداء خرج الرجلان إلى خارج البيت واستلقيا في ظلّ شجرة التين البرّيّ. كانت ظهيرة حارّة، وكان الهواء الساكن معطّراً بروائح شقائق النعمان، بينما كان الأفق ينفث أبخرته الرماديّة كما خلال ظهيرة أيّام الصيف، ويطنّ النحل بأبواقه الرتيبة الصغيرة. كان كوستانتينو منهكاً محطّماً فنام في الحال. لكنّ الصيّاد لم يستطع إغماض عينه. كان هناك جرادة خضراء تثب فوق الأعشاب وشقائق النعمان وتحدث صوت تيك تيك حادّاً، فمدّ إيزيدورو يده وأخذ يطردها وهو يفكّر:

- أنا أعرف لماذا يريد أن يذهب. إنّه ما زال يحبّها، يا له من فتى بائس. لو بقي هنا لظلّ يعاني معاناة القدّيس لورينزو وهو على الشوّاية. ها هو ذا، ذلك المخلوق المسكين، يبدو كأنّه طفل مريض. آه، ماذا فعلوا به! لقد فكّكوا أوصاله. ها قد أمسكت بكِ!

حدث شيء غريب له، فبينما كان يهمّ بتمزيق أوصال الجرادة، فكّر أنّها ستعاني معاناة كوستانتينو. فتركها وشأنها.

ظهر ظلّ في آخر الدرب، فعرف إيزيدورو فيه شخص الخوريّ إلياس، فوثب على قدميه وذهب لملاقاته، ودعاه إلى كوخه عسى ألّا يوقظ كوستانتينو.

لكنّ هذا كان خفيف النوم فاستيقظ، وعندما سمع حديثاً واقترب من الباب عرف أنّهما يتكلّمان في شأنه:

قال الخوريّ بصوت وقور: - من الأفضل أن يغادر. هذا أفضل. هذا أفضل.

لم يعرف كوستانتينو لماذا اضطرب عند سماع هذا الكلام.

لكنّه لم يغادر.

تصرّمت الأيام، وأقلع الناس عن مضايقة العائد، فبدا هذا يتجوّل في جميع أنحاء البلدة دون أن يكون موضع فضول بين الفتيات الصغيرات والأولاد. كما أنّه تدبّر بعض الجلد والنعال والخيوط من المال الذي حصل عليه في سجنه، لكنّه لم يبدأ البتّة بالعمل. كان يشتري كلّ يوم اللحم والفاكهة والنبيذ، ويأكل ويشرب كثيراً ويتوقّع من إيزيدورو أن يقلّده. وكان لضيافة الصيّاد تأثير كبير عليه، وكان يخشى أن يظنّ في البلدة أنّه يعيش بها، فأراد أن يكون كريماً مع إيزيدورو ومع الجميع. وهكذا فقد دعا مجموعة من معارفه إلى الحانة، وأسكرهم، وسكر معهم، قبل أن يروي لهم عن حياته في السجن، وهو يضخّم الأشياء بطريقة مبالغ فيها.

وهكذا تبخّرت نقوده، وعندما كان إيزيدورو يوبّخه على هذا كان يجيب:

- حسناً، ليس لي أولاد، وليس عندي من يجب أن أتدبّر شأنه. فاتركني بسلام.

كما أنّه كان يمنّي نفسه بإرث عمّه القتيل، وكان أقرباؤه يعدونه بإعادته له بلا إجراءات قضائيّة.

فكان يقول: - سأبيع كلّ شيء وأسافر. وسأعطيك أنت مئة سكود أيّها العمّ إيزيدورو.

لكنّ الرجل البائس لم يكن يريد شيئاً. كان لا يريد إلّا أن يعود كوستانتينو كما كان قبل المصيبة، طيّب القلب، ذا همّة وغير زائف.

لأنّ العجوز كان يشعر أنّ هذا اللعين كان يتظاهر ويتصنّع، ممّا كان يسبّب له ألماً عميقاً. لكنّ قلبه الهرم كان يخفق من شدّة الفرح عندما كان يفاجئه أحياناً والدموع في عينيه.

فكان يسأله: - ماذا ألمّ بك يا عبد الله؟ عندها كان كوستانتينو يبدأ بالضحك بينما تسيل الدموع على خدّيه. كان هذا أمراً رهيباً.

كانا يذهبان أحياناً معاً إلى صيد العلق، وبينما كان إيزيدورو ينقع ساقيه في الماء المصفرّ الآسن، في مكان تكون فيه مياه النهر راكدة، كان كوستانتينو يحكي قصصاً عن حياة رفاق سجنه، وهو مستلق فوق الأقصاب وينظر إلى الأفق بحنين غريب.

المغادرة! المغادرة! كان بودّه أن يغادر، لأنّه كان، وهو هناك، تحت تلك السماء التي فرضها القدر عليه، وفي وحشة الهضبة المنعزلة، التي تحرسها جبال ضخمة ذات إيحاءات غامضة، كان يشعر وكأنّه أسير قيد من حديد يكوي كالنار. هناك، كان كلّ شيء يذكّره بالماضي، بدءاً من خيوط العشب النامي على قارعة الدروب، إلى قمم الجبال،. كان يتجوّل كلّ ليلة حول منزل جوفانّا، بحذر الثعالب. في إحدى الأمسيات رأى تلك الصبيّة الطويلة وهي تخرج من الرواق وتتوجّه نحو بيتهما. كانت هذه هي المرّة الأولى التي يرى فيها جوفانّا من جديد، فتعرّف عليها بسرعة، على الرغم من الظلام الرطب في ذلك المساء شبه الغائم: نبض قلبه بعنف، وكانت كلّ نبضة تولّد نوعاً مختلفاً من الألم، وذكرى، وعنفاً يائساً. كان على وشك أن يندفع نحو المرأة، ليحتضنها، ليقتلها. وعندما لم يكتف برؤيتها هكذا، في الخفاء، في الظلّ، فقد اعترته رغبة في رؤيتها وفي أن تراه على ضوء الشمس. لكنّها لم تكن تخرج البتّة، وكان هو يخشى المرور خلال النهار أمام البيت الأبيض.

في مساء آخر، وكان يوم سبت، سمع ضحكة برونتوو تتردّد في الرواق، وبدا له أنّه يسمع أيضاً ضحكتها. فتغشّت عيناه، وشعر بانطباع شبيه بذلك الذي عاده خلال العبور بين كالياري ونابولي، عندما استيقظ على وقع دوّار البحر الذي أصابه.

في هذه الأثناء كان يتظاهر، ولم يعرف السبب. كما بدا له أنّه يكره جميع سكان أورلي. الجميع، حتّى العمّ إيزيدورو بانه.

فكان يتساءل أحياناً بدهشة:

- لماذا عدت أنا إلى هذا المكان؟

- لكنّي سأذهب، هكذا كان يقول للصيّاد، وسط سكون التلّة اللامتناهي، المغلق بخلفيّة الأفق ذي اللون الأزرق المحمرّ، حيث ترتفع غابات الفراولة البرّيّة كأنّها سحابة خضراء. ويضيف: - لقد كتبت إلى صديقي بوراي. وأنت تعلم أنّ بوسعه أن يفعل كلّ شيء: حتّى لو كنت مذنباً، لكان قد عمل على إصدار عفو ملكيّ عنّي.

فقال له إيزيدورو ذات يوم بينما كان جالساً وساقاه الهرمتان الهزيلتان الموبران منقوعتان في المياه الآسنة: - لقد أخبرتني بهذا من قبل. وقد سئمت الآن من سماعك تكرّر هذه الأقوال بينما لا يجيبك ذلك الآخر.

- إنّه يبحث لي عن عمل. بلى، سأذهب. لكن أخبرني بالحقيقة، لماذا يريد الخوريّ منّي أن أغادر؟ هل يخشى أن أقتل برونتوو ديغاز؟ أجل، هذا هو السبب.

- لا، ليس هذا هو السبب. ولقد قلت له: أنت تفهم يا خوريّ إلياس أنّي إذا أردت قتل شخص ما، فإنّي كنت سأقتله في الحال. وكان هو يكرّر دوماً:

غادر، غادر، هذا أفضل. فماذا تقول أنت أيّها العمّ الصيّاد؟ هل يجب عليّ أن أغادر أم لا؟

فقال الآخر بنوع من التأنيب: - أنا لا أعرف شيئاً. أعرف فقط أنّك تبدو مثل كلب كسول. لماذا لا تعمل، أخبرني، لماذا تفكّر بهذا البورّاي، بهذا القمر سيّئ الطالع، رغم أنّه لا يفكّر بك؟

شعر كوستانتينو بالإهانة وقال: - آه، هل تظنّ أنّه لا يفكّر بي؟ حسناً، سأريك إن كان يفكّر بي أم لا. هاك هنا!

نهض وأخرج رسالة من جيب داخليّ في سترته، وأخذ يفسّرها. كانت من بورّاي، وقد كتبها من روما، حيث أنشأ محلًّا صغيراً لبيع نبيذ سردينيا. وكان ملك المجارف يضخّم الأشياء بالطبع، وقال إنّه يملك مخزن نبيذ كبير، وعرض الضيافة على كوستانتينو، ووبّخه لأنّه لم ينتقل إلى روما، وأكّد له وجود عمل له. انفتحت عينا الصيّاد الزرقاوان، وقد ملأتهما دهشة طفوليّة.

أخذ يقول: - هل ترى، هل ترى! لماذا لم تخبرني بهذا من قبل؟ لماذا كنت تخفي الرسالة؟ كم يلزم للذهاب إلى روما؟

- خمسون ليراً، هذا كلّ شيء.

- وهل تملك هذا المبلغ؟

- طبعاً، عندي هذا المبلغ.

فهتف العجوز وهو يمدّ يده نحو الأفق: - آه، اذهب إذاً، اذهب!

صمتا للحظة. مال الصيّاد برأسه نحو الماء، وهو يحدّق بالحصى البيضاء كالبيض، الراسية في أعماق النهر، بينما كان كوستانتينو ينظر أمامه بلا مبالاة. كان

النسيم يداعب في ما وراء النهر حشائش السهل الذهبيّة الطويلة. بينما كانت ترتجف سوق الشوفان الطويلة على خلفيّة زرقاء كما وراء خمار من ماء. رأى العمّ إيزيدورو أنّ الوقت قد حان ليشرح لكوستانتينو سبب رغبة الكثيرين في أن يترك هو البلدة.

- جوفانّا لا تحبّ زوجها، ويمكن لك ولها أن تلتقيا...

- وهل نحن نلتقي؟

- لا!... لكن يمكن لكما ذلك، هذا كلّ ما في الأمر...

فصرخ كوستانتينو ورنّ صوته قويّاً في صمت الضفّة: - ليس في الأمر شيء! بل إنّي أزدري تلك المرأة القذرة. أنا لا أريدها...

- أنت لا تريدها! لكنّك تدور حول بيتها كما يدور الذباب حول العسل.

فصدم كوستانتينو وقال: - آه، أنت تعرف هذا. هذا غير صحيح... لكن، حسناً إنّه صحيح. أنا أدور حول بيتها. فماذا يهمّك؟

- لا شيء. لكن يجب أن تغادر.

- سأغادر. هل أثقل عليك؟

فقال العجوز بصوت يملؤه الألم: - كوستانتينو! كوستانتينو!

اقتلع كوستانتينو حزمة من القصب ورماها بعيداً، وعاد لينظر إلى بعيد. كان وجهه يتغيّر، كما كان في يوم العودة ذاك، بعدما أغلق باب العمّ إيزيدورو، وكانت غمّازة ذقنه ترتجف. ابتلع عدّة مرّات اللعاب المرّ الذي كان يملأ فمه، ثمّ تكلّم:

- حسناً، لكن لماذا يريد منّي الخوريّ أيضاً أن أغادر؟ ألست أنا زوج جوفانّا الحقيقيّ؟ إذا عادت إليّ، ألست أنا زوجها الحقيقيّ؟

- إذا عادت إليك يا عزيزي فقد يقتلك برونتوو ديغاز أو يلقي بك في السجن.

- لا تخف. أنا لا أريدها. لقد ضاعت بالنسبة إليّ. سأذهب بعيداً من هنا، سأتزوّج بامرأة أخرى...

فتمتم العجوز بشيء من الدعابة: - أنت لن تفعل هذا. أنت مسيحيّ صالح.

فكرّر كوستانتينو وكأنّه تأثّر بتلك الدعابة: - لن أفعل ذلك...

كرّر العجوز، وأصبح صوته حزيناً: - لن تفعل هذا... لن تفعله... أنت مسيحيّ صالح... ثمّ أصبح صوته حزيناً لأنّ التجربة القديمة كانت تتمتم في ذهن هذا الحكيم المتواضع:

- إذا لم يفعل ذلك، فهذا ليس فقط لأنّه مسيحيّ صالح...

الهيئة العامة السورية للكتاب

- XVII -

هبطت تلك الليلة من تمّوز هادئة كأنّها خمار أزرق كبير. كان كوستانتينو جالساً على مقعد من حجر ملتصق ببيت الصيّاد، وكان يعدّ على أصابعه وهو غارق في أفكاره.

أجل، لقد عاد منذ أربعة وستّين يوماً. أربعة وستّين يوماً. بدا أنّها أمس، بدا أنّها منذ قرن. اهترأ ثوب القطن المخمليّ الذي كان يرتديه كوستانتينو، وتكدّر وجهه، وكذلك قلبه، أجل حتّى قلبه، من يوم إلى يوم، ومن ساعة إلى ساعة، كان يتآكل من شدّة الألم، والضغينة، والعواطف، وكان يتعتّم مثل شيء يقترب من الفساد.

جلب معه من السجن عادة التظاهر والتصنّع. لم يكن يعرف السبب، لكنّه لم يكن يستطيع أن يثق بأحد مع أنّه كان يشعر بالحاجة إلى ذلك. ولقد هيمن هذا التظاهر عليه، فكان يشعر بمرارة زادت من آلامه. كما كان يحيط به فراغ لانهائيّ وبارد، كما يحيط بالغريق بحرٌ هادئ لا شواطئ له. كان يسبح في هذا البحر منذ شهرين. فتعب الآن وخارت قواه: ومهما نظرت نفسه حولها، عبر المسافات المقفرة، فلا شاطئ يرى، ولا نهاية تبدو لكفاحه غير المجدي: بينما مياه باردة ودوامة فراغ يبتلعانه ببطء.

كلّ يوم كان يقول إنّه سيغادر، ولم يكن يغادر أبداً. كان هذا أمراً مثل غيره، أي مجرّد تظاهر، لأنّه كان يشعر أنّه لن يغادر البتّة. ولماذا يغادر؟ فالحياة هي الحياة نفسها، سواء في هذا الطرف من البحر أو من ذلك الطرف الآخر. وهولا يحبّ أحداً، ولا يبغض أحداً. بدا له أنّه أصبح شخصاً نذلاً، مثل أولئك الذين تركهم في مكان العقاب. أمّا العمّ إيزيدورو، فكان يحتفظ له بمودّة شديدة عندما

يكون بعيداً عنه، بينما كان يشعر باللامبالاة وهو بقربه، بل كان يتأذّى منه أيضاً في بعض الأحيان. عندما يكون العجوز بعيداً، منشغلاً بأمور صيده وبرحلاته (لأنّه كان يسافر ليسوّق تجارته الصغيرة)، كان كوستانتينو يشعر بالحرّيّة، وبأنّ ثقلاً انزاح عن كاهله. ذلك أنّ رعاية العجوز الأبويّة كانت تزعجه وتخيفه.

في تلك الأمسية لم يكن الصيّاد في البلد، فأحسّ كوستانتينو بالضبط بهذا الشعور بالتحرّر. آه، ها هو الآن يستطيع أن يفعل ما يشاء، من غير أن يضطر لسماع مواعظ أحد، دون أن يشعر بذلك الخوف الغريزيّ والانزعاج، الذي تأثّر بهما على الأرجح خلال وجوده في السجن، والتي كان مجرّد وجود العجوز كافياً لإيقاظهما فيه.

كان ينتظر امرأة. وكان يبدو له أنّه يزدري النساء، والواقع أنّه كان يشعر بالقرف من أن يقترب منهنّ، لكنّه كان قد أقام علاقة مع فتاة حمقاء غبيّة نوعاً ما، تعيش قرب بيت جوفانّا، وكانت قد جذبته إلى منزلها بعد أن فاجأته ذات ليلة بالقرب من رواق آل ديغاز.

كانت تقصّ عليه نمائم بيت ديغاز، وكان هو يذهب إلى بيتها كلّما شاهده أحد وهو يقترب من الفسحة، أو أنّه كان ينتظرها في بيت إيزيدورو، عندما يكون العجوز غائباً. لكنّه كان يزدريها بالفعل ويحكي لها أحاديث غريبة.

عندما جاءت في ذلك المساء أيضاً، لم يتحرّك هو عن مقعده الحجريّ، بل طالبها بالجلوس قربه، في الظلّ.

فقال لها من غير أن ينظر إليها: - الحرّ شديد في الداخل، ويوجد قمل وعناكب وشياطين. فابقي هنا في هذا المكان الرطب.

فأجابت بصوت منخفض وغليظ: - لكنّهم سيروننا!

- حسناً، وماذا إذا رأونا؟ أنا لا يهمّني هذا في شيء، فكيف له أن يهمّك؟

- لا، إنّه يهمّني جدّاً!

فرفع صوته.

- ماذا يهمّ الناس إذا رأوك؟ فهم يرتكبون جميعهم الخطايا. أمّا الله فهو يرانا من الداخل والخارج.

فقالت له من غير أن تنزعج: - هيّا هيّا، لقد شربت! ثمّ دخلت إلى البيت، وأشعلت الضوء، ونقّبت في خزانة الطعام، وبما أنّ كوستانتينو لم يدخل، فإنّها أطلّت على الباب وقالت:

- إذا لم تدخل، فإنّي سأنصرف، واعلم أنّ هناك ما أقوله لك.

فوثب ونهض ودخل ثمّ عانقها، فبدأت تضحك بجنون وتقول:

- آه، آه، هاك قد دخلت... آه! لقد جعلتك تأتي في الحال، أيّها الحمَل المسلوخ! آه! إيه!... إيه!...

كانت طويلة وضخمة لكنّ رأسها صغير جدّاً ووجهها دقيق بسمرة متّقدة، وفمها أحمر وعيناها زرقاوان، ومع أنّها ليست قبيحة فهي تثير الاشمئزاز، ولم تكن تشرب البتّة، ومع ذلك فقد كانت تبدو ثملة على الدوام ولهذا تظنّ أنّ جميع الناس هم كذلك. واصلت ضحكتها ثمّ عادت لتنقّب في الخزانة.

قالت: - لا يوجد شيء، لا شيء على الإطلاق. هل تعرف أنّي جائعة؟

- إذا انتظرت لحظة، فإنّي سأذهب لشراء شيء ما. لكن عليك أن تقولي لي قبل ذلك...

فاستدارت نحوه، وبدأت في دفعه وهي تضع يدها على صدره، وأخذت تلكمه باليد الأخرى لكمات لم يكن فيها شيء من المزاح.

- آه، أنت تريد أن تعرف... أوه، أيّها التمساح، أنت تريد أن تعرف؟... لهذا إذاً دخلت مباشرة؟ اذهب، ارجع إلى مكانك الرطب أيّها الحمَل النحيف! هل تريد أن تعرف؟ كنت تظنّ أنّ الأمر يتعلّق بجوفانّا إيرا، أليس كذلك؟ ولهذا فقد دخلت، لم تدخل من أجلي!...

فقال لها وهو يمسك بيدها: - دعيني، إنّك تضربيني بقوّة، فليضربك الشيطان. أجل، لقد دخلت من أجلها. ماذا يعني هذا؟

- وأنا لن أقول لك شيئاً، هذا كلّ ما في الأمر!

فقال لها بصوت معسول: - لا تجعليني أستشيط غضباً يا ماتّيا، أنت لست سيّئة. سأذهب الآن، سأذهب لشراء ما تريدين، ماذا تريدين أن أشتري لك؟ ماذا تريدين؟

بدا وكأنّه طفل يتظاهر بأنّه جيّد ليحصل على ما يريد. لكنّه كان في تلك اللحظة يتوق لشيء مرير وقاس: كان يتوق إلى أخبار تفيد بأنّ برونتوو قد ضرب جوفانّا، أو أنّ أذى قد لحق بها، أو أنّ مصيبة خطيرة للغاية قد حدثت في منزل ديغاز. لذلك فإنّه لم يكن مسروراً بالفعل عندما قالت له ماتّيا، وهي تغمض نصف عينها:

- لقد سرقوا الماشية، وما إن عرفت العجوز بالمصيبة حتّى انطلقت كالمجانين لتعرف مدى الأضرار. ولا بدّ أن تقضي ليلتها في الحظيرة، بينما زوجتك وحدها، هل فهمت، إنّها وحدها.

فقال: - وما أهميّة ذلك؟

- غبيّ، يمكن لك أن تذهب إليها، ألن تذهب؟ لقد جئت لأخبرك بهذا. اذهب، هذا يسرّني، لأنّي أشفق عليك... فبعد كلّ شيء أنت زوجها.

- فقال لها وهو يهزّ كتفيه: - أنا لست زوج أحد، آه، كنت أظنّ أنّك ستقولين لي أشياء أخرى! ماذا تريدين إذاً أن أشتري لك؟ فاصولياء، حليب، دهون، كرز؟...

فقالت ماتّيا بصوتها المنخفض، الغليظ والمتردّد كصوت السكارى: - تزوّجني إذاً، إذا لم تكن زوج أحد.

نحنح كوستانتينو حنجرته وبصق.

اتّقدت عيناها بوميض ذكاء، وكانتا تعبّران عادة عن غموض وغباء، كما تجعّدت جبهتها المنخفضة جدّاً.

سألته بصوت حادّ: - لماذا تبصق؟ هل هي ربّما أفضل منّي؟

فاحمرّ وجهه، وغطّى قلبه خمار من الحزن.

قال لها: - أنت، أنت أسوأ منها أو أفضل.

- كيف؟

- إذا كنت لا تكذبين في هذه اللحظة، إذا لم تأتي لتنصبي لي فخّاً بقولك إنّها وحدها، فأنت أفضل منها.

- ولماذا يجب أن أنصب لك فخّاً؟ أنا أشفق عليك. أقسم لك بذكرى أمواتي، أنّك إذا ذهبت إليها هذه الليلة فإنّك لن تجابه أيّ خطر.

- ومن يمكن له أن يصدّقكنّ يا نساء؟ أنتنّ لا تحترمن حتّى الأموات.

همّت ماتّيا بالانصراف، وقد شعرت بالإهانة والغضب، لكنّه أمسك بها.

قالت بازدراء: - يا لك من كلب نذل! أنا أشعر بالشفقة عليك، وأنت تلسعني بسياطك. ماذا لديك ضدّي؟ ماذا لديك إذاً؟

رفعت رأسها بكبرياء، فبان جبينها المجعّد، ثمّ نظرت إلى كوستانتينو بعينين صافيتين، امتلأتا بالذكاء مرّة أخرى. فنظر إليها، وقد شعر بالدهشة لأنّ مثل هذه المرأة تتحدّث بهذه الطريقة، وأنّها رفعت جبهتها، وتجرّأت على النظر إليه بتلك النظرة: ثمّ ضحك.

كرّر قوله: - سأذهب الآن، سأذهب وأعود في الحال. وسآتي أيضاً بالنبيذ، مع أنّك لا تشربين. ثمّ أمرها بعنف، بعد أن رأى أنّها تلحق به: - انتظريني، انتظريني! لا تزعجيني.

وقفت خلف الباب. خرج، لكنّه لم يخط إلّا بضع خطوات عندما سمع صوتها الغليظ ينادي عليه:

عاد إلى الخلف حتّى وصل قرب الباب الموارب، فرأى من شقّه المضاء أنف ماتّيا وعيناً من عينيها وقد عادتا غبيّتين.

- ماذا تريدين أيّتها العنزة الحولاء؟

- إذا كنت ذاهباً إليها فلا جدوى من انتظاري هنا.

فشتمها كوستانتينو بصوت صادق: - اذهبي إلى الشيطان الذي صنعك! سأفكّر بالذهاب إليها عندما تفكّرين أنت بالذهاب إلى الكنيسة. ثمّ صرخ فيها وهو يمدّ يده ليمسك بأنفها ويشدّه إليه: - انتظري! انتظري! لكنّها أسرعت وسحبت وجهها وأغلقت الباب.

عاد كوستانتينو بعد عشر دقائق، لكنّه لم يجد تلك الفتاة الغريبة. ظنّ أنّها قد اختبأت في الخارج فبحث عنها وهو ينادي عليها بصوت خافت، ويقول إنّه اشترى الخبز واللحم والفواكه، لكنّه سرعان ما أدرك أنّها انصرفت. ساد صمت شديد حول البيت، وعندما هبط الليل شعر أنّه وحيد بالفعل، وسمع حفيف

أوراق التين السوداء وهو يتردّد على خلفيّة هواء بلا لون. بدت تلك الأوراق كأنّها من قماش معدنيّ تهزّه يد خفيّة. لم يكن يسمع أيّ شيء آخر، ولا يرى شيئاً آخر سوى النجوم البرّاقة الي كانت تتميّز في الليل الحارّ.

شعر كوستانتينو باستياء شديد من اختفاء ماتّيا. فماذا يمكن له أن يفعل في ما تبقّى من المساء، وهو وحده كالكلاب؟ لم يكن يشعر بالنعاس، خاصّة أنّه نام مدّة طويلة بعد الظهر. ولم يعرف إلى أين يذهب.

جلس يأكل ويشرب، وكان يتكلّم من حين إلى آخر بصوت مرتفع وحقد.

- إذا كانت تظنّ أنّي سألحق بها، فلتطمئنّ.

صمْت. ثمّ:

- ولتبق نضرة مثل وردة في الربيع. إنّها مجنونة، هذه!

صمْت من جديد. ثمّ:

- لا إلى هذه ولا إلى تلك. إنّي أشمئزّ من ماتّيا هذه. تبدو لي كأنّها حيوان. هذا كلّ ما في الأمر.

ثمّ لعن وشتم. ثمّ ضحك، بذلك الضحك الخفيف والمضطرب الذي نفعله عندما نكون وحيدين.

هذا بينما كان يشرب برشفات طويلة، وكان كلّما أنهى كأساً يطقّ بشفتيه ويقول - آه ه! - ويمرّ بيديه عدّة مرّات على صدره ليؤكّد نزول النبيذ اللذيذ فيه. شعر بعد ذلك كأنّه مرح سعيد.

- فلتذهب إلى الجحيم. فلتذهب إلى الجحيم.

هكذا كان يقول من وقت لآخر، وهو يفكّر في ماتّيا ودلالها في الاختفاء. لكنّه أدرك في تلك الأثناء أنّه يفكر فيها بغيظ حتّى لا يفكّر في تلك الأخرى. خرج بعد ذلك واستلقى على المقعد الحجريّ، ثمّ استسلم لأفكاره لبعض الوقت.

فكّر: - إنّها وحدها. حسناً، وما يهمّني من هذا؟ إنّي أزدريها، ولن أذهب إليها حتّى لو قدّمت لي صندوقاً مليئاً بالذهب. وماذا أفعل أنا بالذهب؟

طرح هذا السؤال على نفسه بمرارة عميقة، لكنّه ما لبث أن جلس يغنّي[1]، فقد حدث له ما يحدث في أكثر الأحيان، أي إنّه أخذ يكذب على نفسه ويتظاهر أمامها كما يفعل مع الآخرين.

شتّت ذهنه لبعض الوقت صوتُه الرتيب المنخفض، لكن ما لبثت أفكاره أن عادت إلى رأسه.

- ماذا يحدث إذا ذهبت إلى هناك؟ هل هذه خطيئة ربّما؟ ألست أنا زوجها؟ لكنّي لا أفكّر بالذهاب إلى هناك. وكيف؟ كم يضحكني العمّ إيزيدورو، هذا العجوز الغبيّ. غادر! غادر! غادر! (كان يقلّد في قلبه صوت العجوز الرنّان) – غادر وإلّا حدثت مصيبة. يمكن أن يقتلك برونتوو ديغاز أو أن يرسلك إلى السجن. – حسناً، وماذا بعد ذلك؟

عاد ليغنّي. فرافق صوتَه المنخفض الرتيب حفيفُ أوراق التين، الحادّ كأنّه شفرات حديد قديمة:

عندما ترى الكرمة

وهي مزهرة في شهر كانون ثاني،

---

(١) جاءت الترنيمة بلهجة سردينيا وغير مترجمة إلى الإيطالية، وأسوقها كما جاءت في الأصل:

«Choricheddu, core amatu, Chi t'isetto donzi die... - Cando as a bider a mie, Sa turulia at a tesser...».

عندما ترى الراعي

وهو يصنع جبن سردينيا...[1]

غيّر وضعيّة جلوسه، أغمض جفنيه المثقلتين، وكان رأسه يهتزّ ويتمايل بشدّة على راحة يده التي تسنده.

ثمّ قال بصوت مرتفع: - حسناً، وماذا بعد ذلك؟ ثمّ فتح عينيه وكأنّه ارتعب من صوته، وعاد ليغمضهما، وتكلّم بلطف مع نفسه: - لا، إنّي لا أريدها بعد الآن زوجةً بقربي. لقد ضاعت عنّي هذه كامرأة. كانت مع رجل آخر، وكما ذهبت معه فبوسعها أن تعود معي من جديد، كما يمكنها أن تذهب مع آخرين. إنّها مثل ماتّيا: وأنا أبصق عليهما كليهما.

فتح عينيه مرّة أخرى وبصق بالفعل، من شدّة الاحتقار الذي كان يشعر به آنئذ إزاء جوفانّا. ومع هذا، فقد عادت في الوقت نفسه إلى ذهنه ذكريات رقيقة بعيدة. تذكّر قبلةً أعطاها ذات يوم لزوجته وهي نائمة ففتحت عينيها خائفة، وقالت: ظننت أنّك رجل آخر!

حسناً، ما هذه الحماقات التي بدأ يتذكّرها؟ يا له من أحمق، ليس غير أحمق. ثمّ، ومن ناحية أخرى، هل يعرف هو فيما إذا كانت جوفانّا ستستقبله أم ستطرده فيما لو ذهب إليها؟

حسناً، لم يكن هو رجلاً متطوّراً ولا شخصاً متحضّراً. لكنّه في تلك اللحظة، رأى وشعر كأنّه أذكى الرجال. تمنّى لو أنّها لا ترحّب به. شعر أنّ ما زال

---

(١) فيما يلي الأصل بلغة سردينيا، والترجمة العربية مأخوذة عن حاشية الرواية بالإيطالية (م):

«Cando as a bider sa ua
Chin fiore in gennargiu;
Cando as a bider porcargiu Fattende casu porchinu.....»

عليه أن يعيش ويعاني، ولكن إذا ذهب ولم ترحّب به؟ فلربّما سيسقط شعاع نور في الفراغ الجليديّ الذي يحيط به. ومع ذلك، فإنّه كان يريدها، لا يزال يشتهيها: منذ اليوم الذي اختفت عنه، كان يتألّم بشدّة مثل طرف معوّج ومتشنّج، لكنّه ما زال حيّاً، وما زال عليه أن يعيش. لكنّ شيئاً ما روحانياً كان يعتمل في تلك الشهوة، غريزة الروح الخالدة التي لا تنطفئ حتّى في أكثر الناس انحطاطاً. إنّه ما زال يحلم بجوفانّا نزيهة، تائهة إلى الأبد في هذه الحياة الأرضيّة، لكنّها محفوظة له في الحياة الأبديّة. والآن إذا هي خانت زوجها الثاني، ولو مع زوجها الأوّل، فهي لن تكون شريفة. هذا ما كان يراه كوستانتينو، ومع ذلك...

كانت الساعة قد أصبحت العاشرة على الأرجح. وكان مستلقياً على المقعد منذ حوالي نصف ساعة، عندما صعد في الهواء صوت حزين. كان ذاك هو الشابّ الكفيف يعزف على الأرغن من بعيد، ويرافق عزفه صوت رتيب وحزين مثل أغنية ميّت استيقظ في الليل. حنين خارق، مثل ذلك الذي يمكن أن يشعر به الأموات عندما يتذكّرون الساعات القليلة السعيدة التي عاشوها في حياتهم، كان يبكي في الغناء وفي العزف: خاصّة في العزف الذي كان يلهث ويشتكي وهو يطلب الضوء والفرح والسعادة، وكلّ الأشياء التي يشعر بها المكفوفون ولا يستطيعون أبداً رؤيتها، والتي تركها الموتى ولن يجدوها أبداً مرّة أخرى.

ارتجف كوستانتينو ونهض.

تلاشى العزف والغناء، واختفيا في البعاد، تبدّدا أبعد من ذلك، ثمّ توقّفا.

شعر كوستانتينو بموجة من رقّة وحزن تغطّي قلبه. وفي الظلام وفي الصمت العميق وفي العزلة العظيمة الي كانت كلّها تحيط به، شعر بالحاجة الشديدة التي يشعر بها المكفوف وهو يرنو إلى الضوء، وبحنين الميّت عندما يتذكّر الحياة. وسار.

تهيّأ له في البداية أنّه يسير في الحلم، رغم أنّه كان يسمع بوضوح تحت قدميه طقطقة القشّ والأوراق الجافّة التي كوّمتها الرياح حول بيت إيزيدورو. وبدا له بينما كان يفرك جفنيه، وكأنّه يرى دوائر كهربائيّة بنفسجيّة صغيرة تدور وتختفي في الهواء. لكن بعد فترة وجيزة، تعوّدت عيناه الظلام فرأى بوضوح مسار الطريق والبيوت السوداء وخلفيّة الأفق الفارغة، حيث تتمايل النجوم مثل قطرات ذهبيّة جاهزة للسقوط. كان يعرف تماماً وهو يسير على تلك الطريق إلى أين هو ذاهب بالضبط، ولم يتردّد لحظة.

هنا وهناك، على عتبات المنازل حيث لا يسمح الفقر بإشعال ضوء، كانت هناك مجموعات من الناس جالسين ليستمتعوا بالبرودة. كسر الصمت صوتُ امرأة صاخب، كانت تروي قصصاً صغيرة ونمائم وأشياء بائسة. في زاوية مقفرة رأى كوستانتينو عاشقيْن، فحاول الرجل عندما سمع صوت الخطا أن يخفي المرأة، بينما أدارت هي وجهها نحو الحائط.

تجاوزهما كوستانتينو، لكنّه استدار بعد نحو ثلاثين خطوة، وكان بودّه أن يصرخ فيهما ليخيفهما:

سأذهب الآن وأخبر أباك!

لكنّه خشي أن يصرخ فيُعرف، فمضى وتجاوزهما.

عندما رأى الكتلة السوداء لشجرة اللوز المواجهة للشارع، خلف منزل العمّة باكيسيا، خفق قلبه قليلاً، وكأنّه يرى رأساً أسود كبيراً عليه شعر متوحّش، ينتظره ويتجسّس عليه من بعيد.

كان قد صمّم على المضيّ قدماً، على عبور الفسحة، والدخول إلى بيت آل ديغاز، كي يرى جوفانّا: بدا كلّ شيء سهلاً بالنسبة إليه، وشعر أنّه مستعدّ لكلّ

شيء، لكنّه كان خائفاً. بل فزعاً بأكثر من مجرّد الخوف. سمع صوت فتاة خافت تقول ببطء: «مهما قلت، فهذا غير صحيح»...

نظر حوله فلم ير أحداً. لكنّ قلقه كان يزداد مع كلّ خطوة يخطوها. عبر الفسحة ونظر إلى بيت العمّة باكيسيا، ثمّ إلى البيت الأبيض، ثمّ إلى كوخ ماتّيا. كانت نافذة هذا البيت الأخير مضاءة: وكلّ ما عداها كان مظلماً. ظنّ مرّة أخرى أنّ ماتّيا ربّما خدعته، أو أنّ العمّة باكيسيا كانت مع جوفانّا، أو أنّ هذه قد تكون نائمة فلا تفتح له الباب، لكنّه تسلّل إلى الرواق دون أدنى تردّد. فرأى جوفانّا مباشرة وهي جالسة على عتبة الباب.

عرفت هي أيضاً كوستانتينو على الفور فوثبت على قدميها، وهي متشنّجة من الخوف، لكنّ صوته المحترس والمنفعل طمأنها.

- لا تخافي. هل أنت وحدك؟

- أجل.

بعد ثانية واحدة كان يحتضن بعضهما بعضاً.

النهاية

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

فهرس

الصفحة

بعد الطلاق ٥

القسم الأوّل ٥

II ٢٢

III ٣٥

IV ٤٧

V ٥٦

VI ٦١

VII ٧٨

VIII ٩٦

القسم الثاني ١٢٥

IX ١٢٥

X ١٣٩

XI ١٥٢

XII ١٦٦

XIII ١٨٤

XIV ١٩٧

XV ٢٠٨

XVI ٢٢٠

XVII ٢٣٢

الهيئة العامة السورية للكتاب

غراتسيا ديليدّا
وُلِدَتْ لِتكتُب

طابع بريدي إيطاليّ في تخليد ذكرى غراتسيا ديليدّا

غراتسيا ديليدّا **(١٨٧١-١٩٣٦)** روائيّة وشاعرة ومؤلّفة مسرحيّة[١]، اشتهرت بخصوبة إنتاجها الأدبي. ذاع صيتها في إيطاليا وفي أنحاء العالم، حتّى أصبحت في عام ١٩٢٦ ثاني امرأة في العالم تحصل على جائزة نوبل العالميّة للآداب، وذلك تقديراً لأدبها الذي «أبرز بشكل متميّز مُثلاً سامية وقدرةً على تصوير واقع الحياة والإنسان بعمق وحرارة». وقد جاء في سياق خطاب تقديم

(١) المقالة مقتبسة بتصرف واسع عن عدة مواقع إنترنت ولاسيّما Jeff Matthews في موقع إنترنت لنابولي خاصّ بالكاتبة. **(م)**

الجائزة: «نجد في روايات دياليدّا أكثر ممّا نجد في غيرها وحدةً فريدة بين الإنسان والطبيعة. حتّى قد يمكن للمرء أن يقول إنّ البشر في رواياتها هم نوعٌ نباتيّ ينمو في تراب جزيرة سردينيا. أكثر أبطالها هم فلّاحون بسطاء بدائيّو المشاعر والأفكار، لكنّهم يتحلّون بشيء كثير من عظمة بناء الطبيعة في سردينيا. بل إنّ بعضهم يضاهي في الضخامة عمالقةَ بعض شخصيّات العهد القديم».

من الممكن القول إنّ غراتسيا دياليدّا لم تُعرِّف العالمَ فقط بسردينيا، بل عرّفت بها أيضاً بلدها إيطاليا. لقد صوّرت هذه الجزيرة المجهولة وأبرزتها كـ «أرض أساطير وخرافات»، كما قالت هي ذات مرّة.

نشأت دياليدّا في جزيرة سردينيا، ثاني أكبر جزيرة في البحر المتوسط، وتزامنت ولادتها مع الذكرى الأولى لتوحيد إيطاليا. وقد أطلقت على بلد منشئها، نوّرو، اسم «قرية العصر البرونزيّ». كانت لغتها الأولى هي اللغة المحليّة في سردينيا. أما الإيطالية، اللغة التي تكتب بها والتي فازت بها بجائزة نوبل، فقد كانت بالنسبة إليها لغة أجنبية، تعلّمتها من خلال دروس خصوصيّة، بعد أن توقّف تعليمها الأساسي في قريتها عند الابتدائية فقط، إذ تركت المدرسة وهي في العاشرة من عمرها.

ولكن مدّرسها الخصوصيّ الذي كان يعلّمها الإيطاليّة اكتشف قدراتها الأدبيّة المبكّرة، فشجعّها وساعدها على نشر ما تكتبه من إبداع في الصحف الإيطاليّة، فنشرت بعض قصصها وهي في الثالثة عشرة من عمرها.

لقد ولدت دياليدّا لتكتب، وأصبحت في الحال نوعاً من الطفلة المعجزة. وهي لم تدرس إلّا المرحلة الابتدائيّة مثل غيرها من كثير من بنات الريف الإيطالي في ذلك الحين. لكنّها تمكّنت من تعلّم الإيطاليّة، وهي لغة وطنها، بل الفرنسيّة والإنكليزيّة فيما بعد.

بدأت ديليدّا حياتها الأدبيّة، وهي في ريعان الصبا، بنشر قصصها في صحف ثانويّة متخصّصة بالموضة. أولى رواياتها الطويلة كانت بعنوان «زهرة سردينيا»، وعندما نشرها أحد الناشرين في روما لاقت نجاحاً منقطع النظير، فأتبعتها برواية أخرى وهي «نفوس شريفة»، ولكنّها جَنَتْ أوّل نجاح حقيقيّ لها من خلال رواية «إلياس بورتولو» التي تُرجمت إلى جميع اللغات الأوروبيّة. ومع ذلك فقد استشاط أهلها وأقرباؤها غضباً لجرأتها على تجاوز الحدود المسموح بها للنساء آنئذ، وخاصّة الصغيرات منهنّ.

لكنّها واصلت تحدّياتها، فما إن ماتت عن عمر قارب الستّين عاماً، حتّى كانت قد نشرت ما يربو على ٥٠ رواية وكثيراً من القصص القصيرة، عبّرت من خلالها عن مآسي الريف وحياته في جزيرتها البائسة.

في عام ١٩٠٠ تزوّجت غراتسيا، وسافرت مع زوجها باليرو ماديساني إلى روما، فشعرت فيها أنّها هي المدينة التي تنشدها، وعاشت فيها سعيدة مع أسرتها، وهي تكتب، وتنجح وتحظى بكثير من الشهرة والتقدير. وفي روما اكتشفت عالماً أكثر رحابة متمثّلاً في المدنيّة بأبعادها الثقافيّة والحضاريّة المختلفة، ومتمثّلاً أيضاً في المؤلّفات الأجنبيّة التي غاصت فيها غراتسيا ديليدّا تلتهمها بنهم. وقد انعكس هذا الأثر العظيم في كتاباتها، فصارت أكثر تنوّعاً وانفتاحاً. حتّى قال أحد النقّاد إنّ الكاتبة لم تتزوّج هذا الموظّف إلّا من أجل السفر إلى روما، وكي تستقرّ هناك حيث أرض الحضارة والذكاء.

في روما بدأت مرحلة أدبيّة جديدة اهتمّت فيها بأساطير بلدها أي جزيرة سردينيا. فهذه العلاقة الجديدة مع روما، لم تلغ تأثّر غراتسيا بالجزيرة التي عاشت فيها، وثقافة حوض البحر المتوسّط التي تظهر في إبداعات أبناء الجزر الإيطاليّة

مثل سردينيا وصقليّة، بما يشمله ذلك التأثير من الشعور بالعزلة والتقاليد التي تنحاز دائما ضدّ النساء والإيمان بالسحر والأساطير. هذا إلى جانب آثار الحضارات التي مرّت على سردينيا من اليونان إلى العرب والرومان. هذا إلى جانب غرامها الخاصّ بالطبيعة والاندماج فيها.

أثارت روايات ديليدّا إعجاب مشاهير إيطاليّين وعالميّين مثل جوفانّي فيرغا، ومثل د. اتش. لورنس الذي كتب مقدمة للترجمة الإنكليزيّة لروايتها «الأمّ»، ومكسيم غوركي الذي نصح أديبة روسيّة شابّة بالاقتداء بديليدّا وأدبها. وكانت ديليدّا قد تأثّرت بكبار الكتّاب في القارّة العجوز ومنهم الفرنسيّان فيكتور هوجو وبلزاك والشاعر الإيطاليّ جوزويه كاردتوشي الملقّب بشاعر البلاط، وقد كان أوّل إيطاليّ يفوز بنوبل للأدب في العام ١٩٠٦. كما تأثّرت بفنّ الرواية الروسيّة الذي كان مزدهراً للغاية عندما بدأت بالكتابة، وقد ظهر تأثّرها بالآباء الروحيّين في الأدب الروسيّ في روايتها الطويلة الأولى «زهرة سردينيا».

بنَت ديليدّا أدبَها على أسس من الواقعيّة المحليّة، وارتبطت أعمالها ارتباطاً وثيقاً بموطنها الأصلي أي جزيرة سردينيا. ومن هنا التشابه الكبير بين أماكن الجزيرة وطبيعتها، وبين نفسيّة كثير من الشخصيّات في رواياتها. ويمكن للقارئ أن يرى في هذه الرواية كما في غيرها من روايات ديليدّا مقاربتها بين مناظر الطبيعة والمواقف والمشاعر والعواطف المتعلّقة بشخصيّات الرواية.

حاولت ديليدّا أن تلوّن أقدار الشرّ والخطيئة التي صوّرتها بألوان قاتمة، مقابل الرغبة في التغلّب عليها، والتحرّر منها والتمتّع بالحياة وبالطبيعة الطلقة ذات المظاهر الشاعريّة. لهذا نرى أنّ أعمال الكاتبة مليئة بمشاعر الحبّ العنيفة وما يصاحبها من آلام.

عمل النقاد على تأطير أعمال دياليدّا في كثير من المذاهب الأدبيّة، فقيل الكثير عن الأدب المحليّ وأدب سردينيا في أعمالها، والمذهب الواقعيّ والمذهب الانحطاطيّ. لكنّ نقّاداً آخرين رأوا في أعمالها شاعريّةً من نوع خاصّ ومدرسةً أدبيّة في حدّ ذاتها.

فالاقتراب من تيّارات الواقعيّة السائدة لم يمنعها من اعتماد أسلوب متميّز فريد من نوعه، قائم على إبراز الطابع المحليّ ومآسي الشخصيّات، مع النبش في أعماق النفس البشريّة ومشاكلها وأبعادها الروحيّة.

إنّ أكثر شخصيّات دياليدّا قلقةٌ، تقع ضحيّة صراعاتها الداخليّة، غير أنّها تجد سنداً لها في العمق الدينيّ، ولاسيّما حين تتحرّك على أرضيّتها القاسية العنيفة، أرضيّة سردينيا.

ماتت دياليدّا إثر مرض عضال ودفنت في كنيسة عذراء الوحدة في بلدتها نوّرو[1] في سردينيا، فتحوّل بيتُها هناك إلى متحف تاريخي.

انطفأت ساعتها تلك الجذوة التي كانت تغذّي خصائص تلك الكاتبة القديرة، بسعة خيالها ونظرتها الثاقبة وقوّة ذاكرتها ومقدرتها التعبيريّة الأدبيّة البارزة.

---

(١) Nuoro.

غراتسيا ديليدّا

أوّل نوبل نسائيّ لأديبة إيطاليّة

ثاني امرأة في العالم تحصل على جائزة نوبل للآداب

في ١٤ آب ٢٠١٦ قدّم سيرجو ماتّاريلّا[١] رئيس الجمهوريّة الإيطاليّة التصريح التالي: «في عام ٢٠١٦ هذا تحلّ الذكرى الثمانون لموت كاتبة بلدة نوّرو غراتسيا ديليدّا، وكذلك الذكرى التسعون لتقليدها جائزة نوبل النسائيّة الوحيدة التي قدّمت للأدب الإيطالي.

كانت غراتسيا ديليدّا امرأة قويّة مبدعة، لا تخاف الأحكام المسبقة، ومؤلّفة لنوع خاصّ من الكتابة، يضرب جذوره في أعماق معرفتها لتقاليد موطنها جزيرة سردينيا ولثقافتها.

إنّ هذا الرباط الوثيق بين الأدب والموطن، الذي تمكّنت على كلٍّ من التحرّر منه، يسري عبر إنتاجها على هدى أنموذج مشحونٍ بقوّة استثنائيّة وبقدرة تعبيريّة فائقة، كما يحمل بين طيّاته نغماتها الغنائيّة وسيرتها الذاتيّة، ويمثّل شخصيّات تعكس غالباً الحياة التي كانت تحلم بها.

لقد ترجمت ديليدّا مشاعر القلق الوجوديّة التي ميّزت القرن التاسع عشر، وتمكّنت من الدخول بكلّ جدارة في أوليمبوس المشهد الأدبيّ العالميّ. وكان ذلك

---

(١) Sergio Mattarella.

بفضل أصالة إنتاجها، ونفاسة أعمالها الأدبيّة، هذا رغم انحدارها من منطقة ريفيّة من مناطق بلادنا.

في رواياتها نستطيع أن نشاهد الأثر الحاسم للمذهب الروائيّ الواقعيّ الذي رسم نقطةَ تحوّلٍ أساسيّة في طراز كتابتها، ومكّنها من أن ترسم بيد بارعة شخصيّات تعاني صراعات باطنيّة عميقة.

إنّ أعمالها تمثّل حجر الأساس في بناء تاريخ الأدب، وإنّ إعادة نشر الكثير من أعمالها اليوم، ليشهد بالاهتمام المتزايد بإنتاجها. وهذا يسهم في نشر ثقافتنا داخل إيطاليا وفي الخارج، ويعمل كذلك على تمثيل أنموذج لا شكّ في قيمته بالنسبة للأجيال الجديدة».

- جائزة نوبل:

وصلت ديليدّا إلى ستوكهولم بعد سفر في البرّ والبحر دام ثلاثة أيّام. وتشير الرسائل التي أرسلتها آنئذ إلى عائلتها إلى أنّها لقيت هناك اهتماماً بالغاً، وأنّها فتنت بمن التقتهم من شخصيّات مرموقة ووزراء وسفراء وأفراد العائلة المالكة. كما أنّها ألقت خطاباً في الحفل وصف بأنّه أحد أقصر خطابات القبول في تاريخ الجائزة.

حاولت الكاتبة عندما سمعت بخبر فوزها بالجائزة أن تجعل ذلك اليوم من عام ١٩٢٦ يوماً كغيره من أيام العشرينيّات في العاصمة الإيطاليّة روما... ولم تتفوّه إلّا بكلمة واحدة حملت كلّ مشاعرها المتداخلة وأنهت قالت: «حقّاً!»، ثمّ هربت إلى مكتبها، في محاول استباقية للحفاظ على روتين إبداعها اليوميّ، هي التي كانت تعيش في منزل مزدحم مع زوجها وأبنائها وابنة أختها.

ولم تشأ ديليدا وقتها أن تغيّر من روتين حياتها، بل بقيت تسير على الجدول الزمنيّ نفسه يوميّاً: إفطار متأخر، وساعتان للقراءة، ثم وجبة غداء تليها قيلولة قصيرة، وأخيراً بضع ساعات من الكتابة في فترة ما بعد الظهر. وعندما جلست إلى مائدة العشاء لم تكن قد كتبت إلّا أربع صفحات فقط.

ومع ذلك فقد ظهرت حول الكاتبة توقّعات كثيرة من أولّ امرأة إيطاليّة تحصل على الجائزة، وكانت ديليدّا تفهم ما يعنيه ذلك جيّداً. كان قد مرّ عام على نهاية الحكم الدستوريّ في إيطاليا، وظهر موسوليني الذي دشّن الفاشيّة الإيطاليّة. ولم تكن ديليدّا قد ذهبت إلى شمال أوروبّا قطّ، لكنّ «الدوتشي» أوضح أنّه يتوقّع منها عند عودتها من ستوكهولم حاملة جائزة نوبل للأدب في العام ١٩٢٦، أن تحضر احتفالاً رسميّاً على شرفها. وقد أراد موسوليني، الذي سجن العديد من صديقاتها والعديد من مواطنيها، أراد أن يهديها صورة له، موقّعة بعبارة «مع عظيم تقديري».

وهكذا سمحت الكاتبة الانطوائيّة لحشود من الصحفيّين والمصوّرين والمهنّئين بالدخول إلى منزلها في اليوم التالي، وبدت هادئة معهم وكريمة، أو على الأقلّ متسامحة مع الإزعاج الذي سبّبوه. لكنّ طائر الغراب الأليف «تشيتشا» الذي كانت تربّيه في بيتها بدا منزعجاً بشكل واضح بسبب ذلك الضجيج، فاندفع يحلّق فوق الضيوف بحثاً عن مكان فارغ. حينئذ سارعت ديليدّا بإخراج الجميع، وهي تقول: «إذا كان تشيتشا قد اكتفى ولم يعد يحتمل... فأنا كذلك».

في الوقت الذي حصلت فيه ديليدّا على جائزة نوبل، وكانت في السادسة والخمسين من عمرها آنذاك، أدركت أنّ الاهتمام العامّ يشكّل خطراً بالنسبة إلى البعض، وهي منهم، بل ربّما كان مدمّراً بالنسبة إليهم.

بعد نحو عشر سنوات من ذلك اليوم ماتت غراتسيا ديليدّا بمرض السرطان. ودفنت في الفستان المخملي الذي ارتدته في فندق غراند أوتيل في ليلة قبولها بالجائزة. وقد عثر بعد وفاتها على مخطوطة لها في أحد الأدراج. كانت تلك رواية «كوزيما»، وهو اسمها الأوسط، وهي عبارة عن سيرة ذاتيّة في صورة رواية، لكنّها لم تكن كاملة .

صورة غراتسيا ديليدّا تزيّن جناح طائرة بوينغ نرويجيّة

في ٢٧ أيلول ٢٠١٨ قرّرت واحدة من كبرى شركات الطيران النرويجيّة المسمّاة Norwegian أن تضع صورة الكاتبة الإيطاليّة غراتسيا ديليدّا الحائزة جائزة نوبل للآداب عام ١٩٢٦، على طرفيْ ذيل الجناح الخلفيّ لطائرة من طراز بوينغ ٧٣٧ اعتباراً من أوائل أشهر ٢٠١٩. وفي هذه السياق صرّحت مديرة تسويق الشركة شتاين بروكه قائلة: «نحن سعداء بالفعل بتخصيص إحدى طائراتنا لواحدة من أشهر كاتبات العالم، أي غراتسيا ديليدّا. ونحن سعيدون بإعلاننا ذلك في ذكرى مولدها».

وعلّق ماتيو بيريسي، مدير متحف منزل ديليدّا قائلاً إنّه «لا أحد استطاع مثل كاتبتنا أن يقدّم للعالم صورة عن هذا الكون الصغير المسمّى سردينيا بكلّ ما فيه من آداب وقيم إنسانيّة».

والجدير بالذكر أنّ غراتسيا ديليدّا كانت ثالث شخصيّة إيطاليّة كرّمتها شركة الطيران النرويجيّة هذه، وذلك بعد كلّ من كريستوفر كولومبو وماركو بولو، وضمن ١١٩ شخصيّة عالميّة شهيرة.

* رواية «بعد الطلاق»

نشرت رواية «بعد الطلاق» أوّل مرّة في عام ١٩٠٢ في فترة كان يحتدم فيها النقاش حول تشريع الطلاق في إيطاليا رغم تعاليم الكنيسة الصارمة. وفي عام ١٩٠٥ نشرت ترجمة الرواية باللغة الإنجليزية.

بطلا الرواية هما كوستانتينو ليدّا وزوجته جوفانّا إيرا. يتّهم كوستانتينو بقتل عمه ويحكم عليه بالسجن لفترة طويلة على الرغم من براءته، لكنّه يقبل الحكم بدافع الحبّ لزوجته جوفانّا.

في غياب زوجها لفترة طويلة لا تستطيع جوفانّا الاستمرار في العيش فترضخ لعروض جار لها ثريّ وتتزوّج به، رغم تعاسة طبعه.

يعترف القاتل الحقيقيّ بجريمته فيطلق سراح كوستانتينو. وهنا تبدأ علاقة ممنوعة مع جوفانّا.

* أهمّ أعمال غراتسيا ديليدّا[1]

Fior di Sardegna	زهرة سردينيا
Anime oneste	نفوس شريفة
Dopo il divorzio	بعد الطلاق
Racconti sardi	حكايا من سردينيا
Elias Portolu	إلياس بورتولو
Nostalgie	حنين
Cenere	رماد
L'edera	اللبلاب
Canne al vento	أقصاب في مهبّ الريح
Marianna Sirca	ماريانّا سيركا
La madre	الأمّ
La fuga in Egitto	الهروب إلى مصر
Il sigillo d'amore	خاتم الحبّ
Cosima	كوزيما
Il cedro del Libano	أرز لبنان

(١) نشر منها بالعربية وبترجمة نبيل رضا المهايني كلّ من: «أرز لبنان وحكايا من سردينيا» عن دار ناشرون في بيروت، ثمّ: «الأمّ» و«الهروب إلى مصر» و«كوزيما» عن دار التكوين في دمشق، و«أهواء حديثة» و«بعد الطلاق» عن الهيئة العامّة للكتاب - سوريّة، و«أقصاب في مهبّ الريح» و«بيت الشاعر» و«نفوس شريفة» عن دار المدى في بغداد.

الهيئة العامة السورية للكتاب

نبيل رضا المهايني
- ٢٠٢٢ -

- من مواليد دمشق ١٩٤٤.
- أقام في إيطاليا للدراسة، ثمّ العمل، بين عامي ١٩٦٣ و١٩٨٦.
- تخرّج عام ١٩٦٨ من فرع ديكور المسرح والتلفزيون في أكاديميّة الفنون الجميلة في مدينة فلورنسا.
- ثمّ تخرّج عام ١٩٧١ باختصاص علوم الرأي العام – إخراج تلفزيون وسينما، من جامعة الدراسات الاجتماعيّة في روما.
- عمل، قبلها وبعدها، في مجالات التلفزيون والسينما في روما.
- ومراسلاً لكثير من المجلات الأدبيّة والعامّة العربيّة، من فلورنسا وروما.
- ترجم وقتها، وفيما بعد، عدّة كتب عن الإيطاليّة. وقد نُشر كثير منها في بيروت ودمشق وبغداد.
- أخرج كثيراً من الأفلام التلفزيونيّة، في مختلف المجالات الوثائقيّة والإرشاد الزراعيّ، حاز بعضها جوائز في مهرجانات دوليّة وعربيّة.
- يعمل منذ عام ١٩٨٣ خبيراً لدى الصندوق الدوليّ للتنمية الزراعيّة - إيفاد، في روما بداية، ثمّ في دمشق.
- يعمل الآن كممثّل ميدانيّ لإيفاد في سورية.

الهيئة العامة السورية للكتاب

- قائمة الكتب المنشورة
- نبيل رضا المهايني -

	الكاتب	العنوان الأصلي للكتاب	العنوان بالعربية
1	Agos Melena	Mal di Pietre	حبّ في سردينيا
2	Calvino Italo	Marcovaldo -Le stagioni in città	ماركوفالدو أو الفصول في المدينة
3	Calvino Italo	Tutte le cosmicomiche	الهزل في قصص الأزل
4	Capuana Luigi	C'era una volta	كان يا ماكان
5	Capuana Luigi	Il Drago	التنين
6	Capuana Luigi	Gli Americani di Rabatto	أمريكان الضيعة
7	Collodi Calro	Pinocchio	بينوكيو
8	Conte Giuseppe	Dante in Love	دانتى في حبّ
9	De Amicis Edmondo	Cuore	قلب
10	Deledda Grazia	Amori Moderni	أهواء حديثة
15	Deledda Grazia*	Anime oneste	نفوس شريفة
11	Deledda Grazia	Canne al Vento	أقصاب في مهبّ الريح
16	Deledda Grazia*	Colombi e sparvieri	حبّ وحقد
17	Deledda Grazia	Dopo il Divorzio	بعد الطلاق
12	Deledda Grazia	La Fuga in Egitto	الهروب إلى مصر

13	Deledda Grazia	La madre	الأم
14	Deledda Grazia	Racconti Sardi e il Cedro del Libano	أرز لبنان وقصص من سردينيا
18	Deledda Grazia	La casa del poeta	بيت الشاعر
19	Gabrieli Francesco	Storici Arabi delle Crociate	المؤرخون العرب للحروب الصليبيّة
20	Goldoni Carlo	La Locandiera	صاحبة النزل
21	Machiavelli Niccolò	La Mandragola	الماندراغولا
22	Mahaini Nabil	Cesare Pavese, Vita, Opera e Critica	بافيسه، حياته، شعره، أعماله
23	Mahaini Nabil	The Arabian Deserts and the challenge of desertification	الصحارى العربية وتحدي التصحر
24	Mahaini Nabil	Antologia di Letteratura Italiana Classica	مختارات من الأدب الإيطالي الكلاسيكي
25	Mahaini Nabil	Antologia di Letteratura Italiana Moderna	مختارات من الأدب الإيطالي الحديث
26	Mahaini Nabil	Chi è Dio-Libro Elettronico in Italiano, Inglese, Francese, Arabo	من هو الله
27	Mahaini Nabil	I Bei Nomi di Dio-Libro Elettronico in Italiano, Inglese, Francese, Arabo	أسماء الله الحسنى
28	Morante Elsa*	La Storia	التاريخ

29	Moravia Alberto	Quando verrai sarò quasi felice	قد أشعر بالسعادة إذا جئت
31	Moravia Alberto	A quale Tribù appartieni?	إلى أيّة قبيلة تنتمي؟
32	Moravia Alberto	Io e Lui	أنا وهو
33	Moravia Alberto*	la Ciociara	الشوشاريّة
34	Moravia Alberto	Il Conformista	الرجل الاعتياديّ
30	Moravia Alberto	1934	١٩٣٤
35	Peshelle Enrica	La Rivoluzione Continua	الثورة المتواصلة
36	Risaliti S./Jovine G.	Gustav Klimt	جوستاف كليمت
37	Sciascia Leonardo	Il Contesto	السياق
38	Silone Ignazio*	Vino e Pane	نبيذ وخبز
39	Tabucchi Antonio	Per Isabel	ايزابيل
40	Tabucchi Antonio	Il Filo dell'Orizzonte	سراب
41	Vivaldi Marco	La misura dell'Uomo	مقاس الإنسان
		أو تحت الطبع كتب قيد الإنجاز*	

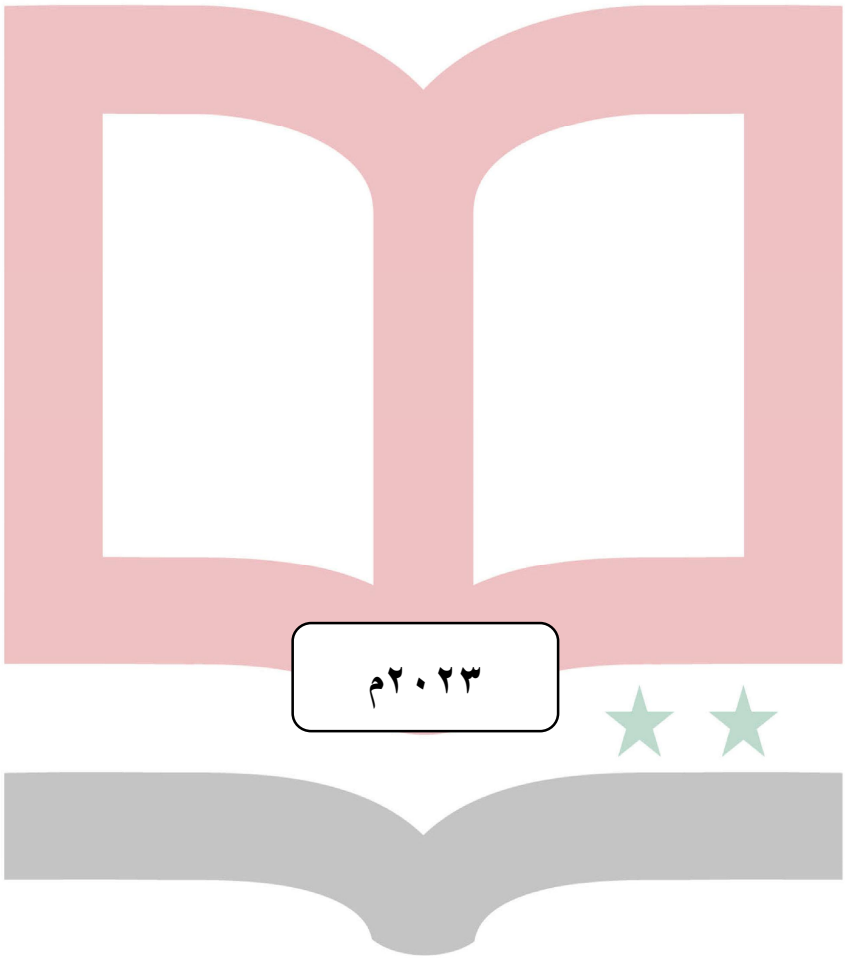

الهيئة العامة السورية للكتاب